

445

عبد الوهاب مطاوع

الأرض المخرقة

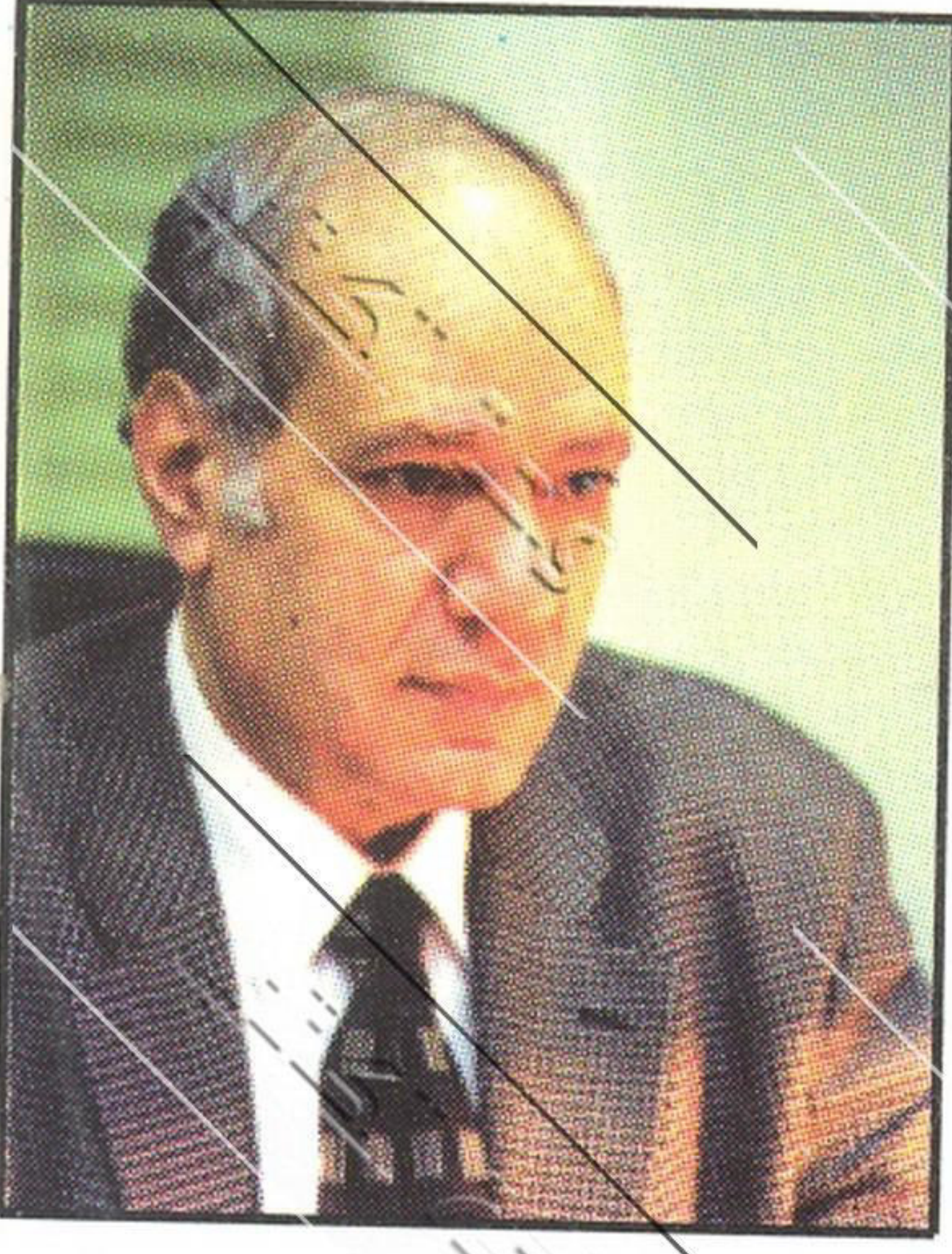
A.M.



<http://www.wahetelkotob.com/>

الدار المصرية اللبنانية

Friday
6/2/2015



الأرض المحترقة

● عندما فكر الأستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع في اختيار عنوان هذا الكتاب ، تذكر ما كانت تفعله الجيوش المهزومة حين كانت تضطر إلى الانسحاب من الأرض التي كانت تحتلها .. فكانت تقوم بحرق هذه الأرض وتدمير ما عليها حتى لا يستفيد منها الجيش المنتصر.

● ولاحظ الأديب الكبير الأستاذ عبد الوهاب مطاوع في بعض الرسائل التي تصل إليه من قرائه، والتي يعرضون فيها مشاكلهم، ويطلبون مساعدتهم في حلها، أن بعض أصحاب تلك الرسائل يفعلون بحياتهم وبحياة الآخرين الذين يرتبطون بهم ، ما كانت تفعله الجيوش المهزومة من حرق وتدمير في الأرض قبل انسحابهم منها .. حيث كان بعض أصحاب تلك الرسائل يدمرون حياتهم بسوء التصرف وضيق الأفق و«البطر» والتعجل وقلة الصبر على المكاره .. فيدفعهم الحقد إلى الإضرار بأنفسهم وبالغير في حماة الغضب والرغبة في الانتقام.

● وفي هذا الكتاب يعرض لنا الأستاذ المؤلف بعضاً مما ألهمه به الله من حلول موفقة لمثل تلك المشاكل .

● مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب .

● حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين الصحفية عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب في المسائل الإنسانية .

● يكتب باب « بريد الجمعة » الإنساني في الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢ ، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومي بصحيفة الأهرام .

● صدر له ٤٠ كتاباً ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها، ويتضمن البعض الآخر قصصاً قصيرة وصوراً أدبية ومقالات في أدب الرحلات .

● له ثلاث مجموعات قصصية هي : «أماكن في القلب» و«لا تنسى» ، و«الحب فوق البلاط» .

الدار المصرية اللبنانية

عبد الوهاب مطاوع

الأرض الملتقفة

الدار المصرية اللبنانية

مقدمة

« الأرض المحترقة » هو عنوان إحدى قصص هذا الكتاب الواقعية . .
وعلى الرغم من أنني وازع هذا العنوان للقصة حين أعددتها للنشر في
«بريد الجمعة» بالأهرام ذات يوم . . إلا أنه استوقفني وأنا أختار قصص
هذا الكتاب وكأنني أقرأه للمرة الأولى . . فتأملته طويلاً ، واسترجعتُ ما
كان يُقال قديماً في تفسيره من أنه إشارة إلى ما تفعله الجيوش المهزومة
بالأرض عند انسحابها منها ، فتضطر إلى حرقها كيلا يستفيد منها
المنتصر حين يدخلها .

وتفكرتُ طويلاً في مغزى هذا العنوان . . ووجدتُني أتساءل : ألا
يفعل البعض منا بحياته وبالآخرين الذين يرتبطون به - في بعض الأحيان
- ما تفعله الجيوش المهزومة قبل انسحابها بالأرض؟! . . ألا يدمر بعضنا
حياته بسوء التصرف وضيق الأفق والبَطَر والتعجل وقلة الصبر على
المكاره؟! . . ألا يدفعنا الحمق في كثير من الأحيان إلى الإضرار بأنفسنا
وبالغير في حمأة الغضب والرغبة في الانتقام؟! .

إن بعض قصص هذا الكتاب تروى أمثلة لذلك . . وبعضها الآخر يحكى عن معاناة الإنسان مع نفسه وأقداره، ومع الآخرين .

ولقد حاولتُ جاهداً أن أشير على مَنْ استشارونى فى أمرهم بما رأيتُ فيه خيرهم وصلاح حالهم . . وأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ فى ذلك بعض التوفيق ، كما أرجو أيضاً أن يجد قارئ الكتاب فى تجارب هؤلاء ما يستفيد به فى إثراء خبرته بالحياة، ويزيد من قدرته على تجنب أشواكها !

عبد الوهاب مطاوع

الاختيار القهرى

أرجو أن أجد لديك ما أحتاج إليه من مشورة تعيننى على الخروج من بحر الحيرة . . فأنا سيدة فى الثامنة والعشرين من عمرى ، وقد نشأت بين أبوين متحابين ، عشتُ معها حياة هادئة وادعة ، وتمتعتُ دائماً بحب أبى وأمى وأخى الأصغر وأهلى . . وتعودتُ منذ صغرى أن أسمع كلمات الإعجاب بجمالى داخل أسرتى نفسها ومن الآخرين . . وحرصت والدتى منذ صغرى على تعليمى فروض دينى ، فنشأت على الصلاة والصيام والاحتشام فى مظهرى . وبدافع تلقائى فى أعماقى وجدتُ نفسى أقرر ارتداء الحجاب وأنا فى سن السادسة عشرة من عمرى ، وفاتحتُ أمى برغبتى فى ذلك ، فسعدتُ بها كثيراً وطلبتُ منى أن أستشير أبى أيضاً فى ذلك ، فلما تحدثتُ إليه عن رغبتى شاع الرضا فى وجهه ، ثم سألتنى : هل هذه الرغبة نابعة من نفسى أم حثنى عليها أحد؟ . . فأجبتُهُ بأنها رغبة صادرة عنى ، وأن كل صديقاتى المقربات بالمدرسة قد تحجبنَ من تلقاء أنفسهن ويواظبن على الصلاة والصوم مثلى . . وأرغب فى أن أنال رضا الله مثلهن . . فقبّلنى فى جبهتى ودعالى بالخير والسعادة .

وازداد حبًا لى واقترابا منى ، وأصبح منذ ذلك اليوم يقول لى وللجميع
إننى درة ثمينة لن يفرط فيها إلا لمن يعرف قيمتها . والغريب أن ارتدائى
الحجاب قد زادنى جمالاً ، وأكسبنى مزيداً من الحب والاحترام .

ولم تمض بضعة شهور حتى فوجئتُ بأمى تبلغنى بأن عمى ترغب فى
خطبتى لابنها الذى يدرس بالسنة النهائية بكلية الهندسة ، وأن أبى قد
اعتذر لها لصغر سنى . وبعد أسابيع أخرى أبلغتنى برغبة ابنة عمها فى
خطبتى لابنها ، ورفض أبى للسبب نفسه . ثم تكررت هذه القصة أكثر
من مرة خلال السنة الأخيرة من دراستى الثانوية ، وكان رأى أبى دائماً هو
أننى مازلتُ صغيرة ، وأنه لا يريد التسرع فى هذا الأمر لكيلا يسىء
الاختيار .

ووافقتُ أبى على ما رآه . . . والتحقتُ بكلتى الجامعية ، ومضت
حياتى هائلة وسعيدة . . .

وفى عامى الثالث شعرتُ بالتجاوب العاطفى مع شقيق إحدى
صديقاتى ، وهو محاسب متدين ووسيم وعلى خلق كريم . . . وصارحتُ
أمى بذلك . . . فوعدتنى بمساندتى عند أبى حين يتقدم لى ، وبدأ هذا
الشاب يستعد لخطبتى ، وطلب منى الصبر عليه عاماً آخر لكى يكون
قادراً على توفير متطلبات الزواج . . . ووعدتهُ بذلك ، لكن شيئاً جديداً
ظهر فى حياتى وهدد أمانها وهدوءها ، فلقد كان هناك شاب مستهتر
يلاحقنى منذ فترة بإلحاح شديد ويطاردنى بسيارته خلال ذهابى للكلىة

وعودتى منها، ويحاول فرض نفسه علىّ بكل الطرق، وأنا أتجاهله وأتفادى شره لعلمى بسوء سلوكه وسمعته.. وكان هذا الشاب قد حصل على شهادته الجامعية بعد رسوب عدة سنوات، وشارك أباه فى عمله التجارى، وقد أعجب بى وراح يلاحقنى.. وكلما تمسكتُ بتجاهله ازداد إصراراً على ملاحقتى، كأنما قد عز عليه أن ترفضه فتاة وهو المرغوب من غيرها.

وبعد محاولات مستميتة بدأ يرسل لى رسائل شفوية عن طريق صديقاتى، ينبئنى فيها بأنه لن يتنازل عنى مهما فعلتُ، وأنه سيتقدم لخطبتى، فإذا رفضته فإنه سوف يشن علىّ حرباً شعواء ويشوّه سمعتى ويشيع عنى أشياء غير حقيقية ليثبت بها استهتارى وسوء أخلاقى!.. فلما سمعت هذه التهديدات من بعض صديقاتى تملكنى الغضب والحق، وازددتُ إصراراً على رفضه.

ولكنه تقدم بالفعل لخطبتى، وسألنى أبى عن رأى فصارحته برفضى له لسوء أخلاقه وتعدد علاقاته مع الفتيات ولعدم تجاوبى معه. واعتذر أبى للشاب ووالده، فكان ذلك بداية للحرب القذرة من جانبه ضدى.. فقد راح يطاردنى فى كل مكان ويحاول محادثتى، ويتوعدنى بأنه سيحول حياتى إلى جحيم.. ونفذ تهديده بالفعل فراح يرسل الخطابات القذرة لأبى وأخى وأهلى وأسر صديقاتى يتهمنى فيها فى شرفى، ويحذر آباء صديقاتى من السماح لبناتهن بمصادقتى.. فوجدتُ نفسى أسمع كل يوم قصة جديدة من هذا النوع وأبكى من شدة القهر

والإحساس بالظلم . . وتكدر صفو حياتنا جميعًا، وغضب أبي غضبًا شديدًا، وتوجه لوالد الشاب وأطلعه على الرسائل التي تلقاها، وشكا إليه مما فعله ابنه، فغضب الرجل غضبًا عاصفًا واستدعى ابنه وكاد يبطش به، وهدده بأنه سوف يشهد ضده في قسم الشرطة إذا شكاه أبي إليه، فإذا به يقول لأبيه مشيرًا إلى والدي: ولماذا لا يوفر على نفسه وعلى ابنته هذه المتاعب ويزوجني منها؟ . . فكاد أبي - المعروف دائمًا بهدوئه - يُجنّ لوقاحته . . وانصرف غاضبًا وثنائًا، لكنه لم يتقدم بشكوى ضده إلى الشرطة حرصًا على سمعتي، وتعاطفًا مع والد الشاب الذي حار معه .

وفي هذه الفترة تقدم فتاى لأبي ورحبت به، وبدأنا نستعد لإعلان الخطبة . . فجُنّ جنون هذا الشاب المستهتر ولاحق خطيبي في الشارع أكثر من مرة مفتعلًا الأسباب للاصطدام به، وكاد يصدمه في إحدى المرات بسيارته في الشارع .

ولم يكتف بذلك، وإنما راح يرسل الرسائل القذرة إليه وإلى والدته وإخوته المتزوجين وشقيقاته، يخوض فيها في عرضي ويتهمني - سامحه الله - بأنني لست عذراء، وأن حجابي ليس سوى مظهر خداع للتستر على حقيقتي «المدنسة» !

وبلغني ذلك فانهرتُ . . ولزمتُ الفراش بضعة أيام . . وخيم الحزن والاكتئاب على حياتنا . . وشعرت أُمي بالخوف الشديد، ليس فقط على، وإنما على شقيقي الأصغر الذي أقسم أن ينتقم من هذا الشاب

المستهتر ولو أدى الأمر إلى دخوله السجن ثمناً لذلك . . . وبات أبى فى هم شديد . . . وحصل على إجازة من عمله ليلأزم أخى ويمنعه من الإقدام على عمل يضيع مستقبله . . . واضطر لمراقبته ليل نهار، كما منعه من الخروج إلى كليته بضعة أيام، وأخذ عليه العهود المغلظة بألا يفعل ما يزيد به من متاعبنا . . . وفعلتُ أنا أيضاً نفس الشيء معه . . . وقبّلتُ رأسه وتوسلتُ إليه ألا يضاعف من عذابنا بالخوف عليه . . . لكنى شعرتُ بأنه يسايرنا لطمأنتنا . . . وأنه سوف يقدم على ما يفكر فيه بمجرد اطمئنانه إلى عدم مراقبتنا له، خاصة وأنه قوى الجسم ورياضى وله أصدقاء رياضيون مثله .

وفكرتُ أنا طويلاً فيما أفعله لأحمى أخى وأسرتى من هذا العناء . . .

وبعد يومين من التفكير المتصل ، خرجتُ على أبى وأمى بقرار غريب : هو قبولى لخطبة هذا الشاب المستهتر . . . والاعتذار للآخر الذى أحببته عن عدم الارتباط به ! . . . وأعلنتُ قرارى لأسرتى ، فجنَّ أبى وغضبتُ أمى وشقيقى وحاولوا إثنائى عنه بكل السبل . . . لكنى صارحتُ أمى وحدها بأن هذا الشاب لن يدعنى فى حالى مهما فعلتُ ، وقد حوّل حياتى إلى جحيم وأنا بين أبى وأمى وفى حمايتهما . . . وسيواصل ذلك أيضاً وأنا زوجة . . . ومادام الأمر كذلك فليكن زواجى منه تضحية منى لحماية أسرتى ، ومن يدرى فلعله لم يفعل ما فعله إلا لأنه يحببنى بصدق . . . وإذا كنتُ أنا لا أحبه الآن فربما أحبه فى المستقبل . واستمر الجدل بينى وبين أسرتى حول هذا الأمر شهراً كاملاً . . . وأسهم فى تليين

موقف أبي أن والد هذا الشاب قد زاره بضع مرات معتذراً ، وراجياً قبول ابنه الذي لم يعد له من هدف في الحياة سوى الفوز بى ، آملاً أن يكون ذلك سبباً في صلاح أحواله .

واعتذرتُ لفتاى الآخر وتحملتُ عتابه ولومه ودموعه . . . وتحدد موعد قراءة الفاتحة مع الشاب المستهتر ، فبكيثُ بكاءً مُرّاً ، وشعرتُ بأننى أساق إلى مصير لا أستطيع الفكاك منه .

وتمت الخطبة في جو كئيب ، وكدتُ بعدها أراجع عن استكمال المشوار ، لكن أشباح الجحيم الذى عشتُ فيه طوال العام السابق تراءتُ لى فى مخيلتى وحطمت مقاومتى .

وقدم الشاب ووالده لأبى كل الإغراءات المادية لعقد القران وإتمام الزواج فى أقرب وقت ، ولم تمض شهور حتى تم إعداد شقة الزوجية الفاخرة والزفاف .

وفى ليلة الزفاف شعرتُ بكراهية الدنيا كلها لهذا الشاب الذى أصبح زوجى . . . لكنى كتمتُ مشاعرى فى داخلى .

وشاءت رحمة ربه أن يعجز هو عن الوفاء بواجباته الزوجية ، مما جعلنى أشعر نحوه بالاحتقار والانتصار . . . وأردتُ أن أسأله : أين تذهب من عقاب السماء على ما افتريته على ظلماً وبهتاناً ؟

ومضت حياتنا معاً بعد ذلك فى جفاء صامت من ناحيتى ومحاولات مستمرة من جانبه للتودد إلىّ والاعتذار لى عن كل ما فعله ضدى ،

بدعوى أنه يحبني بصدق وأراد ألا يفوز بي أحد غيره . .

وبعد عام وضعتُ طفلتى الوحيدة الجميلة ، فلم يغير مجيئها شيئاً من برود العلاقة بينى وبينه . . بل ازدادت صمتاً وجفاءً ونفوراً . .

وبعد ميلاد الطفلة صارحتُّ برغبتى فى الانفراد بغرفة نومى دونه لكى أرى المولودة وأتفرغ لها ، فلم يعترض على ذلك كما لم يعترض على شىء أردته طوال زواجنا .

ثم مات والده . . فشعر بالحزن الشديد عليه . . وداوم على الصلاة لبعض الوقت بعد وفاته ثم انقطع عنها . . وشاركتُّ الحزن على هذا الرجل الطيب الذى لم أر منه سوى كل عطف واحترام منذ أن عرفته .

ومضى على زواجنا ثلاث سنوات دون أن يتغير الحال بينى وبينه . .

فأنا أشاركة الزيارات العائلية والواجبات الأسرية ، وأقوم بواجباتى الزوجية تجاهه . . لكنى لا أشاركة المشاعر العاطفية ، ولا أحب الخروج معه وحدنا ، وقد سعى هو بإخلاص خلال هذه السنوات إلى تحسين علاقته بأبى وأمى وشقيقى ، فاعتذر لهم مراراً وتكراراً ، وقبل رأس أبى وأخى عدة مرات وتحمل جفاءهم ورفضهم حتى شعروا بالخجل من ذلك ، فبدأوا يتعاملون معه بروح جديدة . . كما لم يكف طوال هذه السنين عن محاولة استجداء مشاعرى وتقديم القرابين لى لكى أغفر له ما فعل فى حقى ، فقدّم لى الكثير من الهدايا الثمينة ، الأمر الذى جعلنى أشعر فى بعض الأحيان بشىء من العطف عليه ، وأشعر فى أحيان أخرى

بثورة داخلية شديدة ضده حين أتذكر الحرب الشعواء التي شنّها ضدّي
واتهاماته القذرة لي في شرفي، وإرغامى على الزواج منه والتخلّي عن
خطيبى الأول .

واكتسبتُ علاقتى به بعد أربع سنوات من الزواج طابعًا من الاستقرار
الذى لا حياة فيه ولا عاطفة، فنحن لا نتشاجر ولا نتصادم، ولكنى
أعيش في داخلى أكثر مما أعيش معه . . وأشاركه الأشياء في صمت وفتور
بلا رغبة حقيقية .

. ومنذ بضعة شهور رأيتُ خطيبى السابق بالمصادفة في «مول» تجارى
مع شقيقته، فتبادلنا التحية والأحاديث، وشعرت في نظرة خطيبى
السابق لى بالعتاب الصامت، وعرفتُ من أخته أنه قد خطب فتاة لمدة
عام ثم فسخ خطبته لها . . وأنه خاطب الآن فتاة أخرى منذ بضعة
شهور . . فرجعتُ إلى بيتى وأنا مضطربة المشاعر . . وانفجر بركان
الغضب الصامت في أعماقى ضد زوجى، فاشتبكتُ معه في مشاجرة
مفتعلة، وثرثُ عليه ثورة هائلة، وتركت طفلتى وبيتى ورجعتُ إلى بيت
أبى بدعوى أننى سأستريح هناك بعض الوقت .

وفى اليوم التالى اتصل بى زوجى فى التليفون ورجانى باكيًا العودة
للبيت من أجل طفلتى التى تفتقدنى . . وأبدى استعداداه لأن يغادر هو
البيت إذا لم أكن أرغب فى رؤيته .

ووجدت الغضب الهائل الذى تملكنى فجأة يذوب أيضًا فجأة،

ورجعتُ إلى البيت، وواصلتُ حياتي معه.. . ولاحظتُ بعد عودتي أشياء جديدة في شخصية زوجي.. .

فلقد لاحظتُ أنه قد انتظم في الصلاة لأول مرة في حياته، وأنه شاركني لأول مرة أيضًا صيام الأيام الستة البيضاء عقب العيد، وشاركني كذلك صوم يوم الوقفة، وبدأ يصوم تطوعًا من حين لآخر.. . كما لمستُ فيه أيضًا تغيرات أخرى.. . إذ نهضتُ من نومى ذات ليلة لدخول الحمام فوجدتهُ يصلى في الليل وحيدًا وهو داعم العينين وفي حالة خشوع صادقة.. . ورأيتُه بعد ذلك أكثر من مرة يصلى قبل نومه في حجرته ويقرأ القرآن ويستغفر الله كثيرًا.

وعرفتُ من أحد العاملين معه حين جاء إلى بعض مطالب البيت، أنه يحرص على الصلاة في مواعيدها خلال العمل، وأن «أخلاقه» - على حد تعبيره - قد تغيرت كثيرًا خلال السنة الماضية وأصبح إنسانًا آخر.

ولاحظتُ أيضًا لأول مرة أن ابنتى الطفلة لا تتجاوب أبدًا معه حين يلاطفها أو يحنو عليها وتسرع بالابتعاد عنه والالتصاق بى، وأنه يشعر بنفورها منه ويتألم لذلك كثيرًا. وعجبتُ لنفسى: كيف لم ألاحظ ذلك من قبل؟!.. . وتساءلتُ عن السبب وأنا لا أذكره أمامها بسوء! فبدأتُ أشعر بشيء من الأسى له وأسأل نفسى: هل يحاسبنى الله على جفاء مشاعر ابنته له؟!.. . وهل يحاسبنى على هجرى له، وصمتى وفتورى الدائمين معه؟!!

ومنذ فترة قصيرة فوجئتُ به يقول لى فى هءوء : إنه لا يريد أن يكرهنى على الحياة معه أكثر من ذلك ، وإنه يترك لى الخيار بين الاستمرار معه كزوجة كاملة ، أو الانفصال عنه . . ويؤكد لى أنه لن يعترض على أى اختيار لى بل سيعيننى عليه ، فإذا رغبتُ فى الانفصال عنه فسوف يعطينى كل حقوقى بلا منازعة ، وسوف يترك لى ابنتى لأربيتها فى أحضانى . . وإذا تزوجت فى المستقبل فلن يحول بينى وبين رؤيتها ، وستكون دائماً ابنتى وأنا أمها . وحدد لى مهلة لمدة شهر أفكر خلالها فى أمرى وأبلغه بعدها بقرارى النهائى .

ودار رأسى بما سمعتُ . . واستغرقنى التفكير فى أمرى طوال الوقت . . فاستشرتُ إحدى صديقاتى فقالت لى : إنها فرصة ثمينة لكى أتخلص منه وأرتبط بالشاب الوحيد الذى كنتُ قد أحببته من قبل . واستشرتُ أمى فنصحتنى بالاستمرار معه لأنه تغير كثيراً وأصبح إنساناً طيباً يحببى ويحترمى ويصبر على الأذى منى ، وأيضاً من أجل طفلتى التى لن تسعد بافتراقها عن أبيها أو عنى . وذكّرتنى أمى بأن زواجى منه كان قرارى الشخصى واختيارى الذى لم يرغبنى عليه أحد .

وبالرغم من تأثرى بكلامها إلا أننى ثرتُ فى داخلى على عبارة أنه « لم يرغبنى أحد على الزواج منه » ، وقلت لها : بل إنه هو الذى أكرهنى على الزواج منه بالحرب القذرة والضغط المستمر ، وتحويل حياتى إلى جحيم . . لكن ذلك لم يخرجنى من حيرتى . . وما زلتُ أتردد بين الميل للقبول بزواجى والاستمرار معه على أسس جديدة من أجل طفلتى ،

ومن أجل ما طرأ عليه من تغيرات إيجابية وما بدأت أشعر به من تقدير لحيه الكبير لى وصبره على جفائي له كل هذه السنوات ، وبين الرغبة فى إنهاء هذه الحياة الفاترة الصامتة والتحرر منها ، واختيار حياة جديدة لى بكامل إرادتى هذه المرة ، وليس تحت ضغط الظروف التى حكيتها لك . . فبماذا تشير على يا سيدى . . وبماذا تنصحنى أن أفعل ؟

●● ولكتابة هذه الرسالة أقول :

الفرق بين الاختيار الحر للإنسان والاختيار القهرى الذى تمليه عليه الظروف الملحة ، هو أن الاختيار الحر يكون بين بدائل شبه متقاربة يعتمد التفاضل بينها على الترجيح بين «الحسن» و «الأحسن» من وجهة نظر صاحب القرار، ووفقاً لاقتناعه العقلى وميوله العاطفية والنفسية . أما الاختيار القهرى فهو الذى تضيق فيه دائرة الاختيار بين بدائل لا وجه للمقارنة من الأصل بينها، كأن يجد الإنسان نفسه فى الطريق وسيارة مسرعة تقترب منه لتدهمه، فىكون الاختيار الوحيد المتاح أمامه هو التجمد فى موقعه لتصدمه السيارة، أو القفز إلى الرصيف لينجو من الهلاك . وبالرغم من أن الإنسان سوف يختار غريزياً النجاة من الخطر، إلا أن اختياره هذا يعدّ اختياراً قهرياً لا بديل لعاقل سواه .

وأحسب أن اختيارك لزوجك كان من قبيل هذا الاختيار القهرى ، الذى لا تتوافر فيه حرية الإرادة الكاملة، حتى ولو لم يرغمك عليه أحد من أهلك، إذ كان بالنسبة إليك اختياراً بين الاستمرار فى مكابدة

الجحيم والحرب القدرة وتعريض شرفك وسمعتك وأسرتك وشقيقك للأذى، وبين إيثار السلامة وطلب النجاة من هذا البلاء ! فإذا كنتُ قد مُتُّك على هذا الاختيار، لأنه كان هروباً من المعركة ونكوصاً عن التمسك بحقك المشروع في الاختيار الحر لحياتك وتحمل تبعات ذلك إلى النهاية، فإنني على الناحية الأخرى ألتمس لك بعض العذر فيه بالنظر للظروف المحيطة والضغط القاسية التي أحاطت بك عند الاختيار .

غير أنني أتصور أن هناك عاملاً آخر قد رجح لديك هذا الاختيار القهري لا يقل أهمية عن الاعتبارات السابقة . .

فلقد كنتِ تخوضين معركة غير متكافئة للدفاع عن شرفك وسمعتك ضد من يفترى عليكِ السوء ويتهمك بأبشع الاتهامات، وضاعت نفسك بهذه الحرب القدرة، وورغبتِ في تطهير نفسك وسمعتك من كل ما علق بها من هذه السهام الطائشة، فرأى عقلك الباطن - وربما الواعي أيضاً - أن أنجح وسيلة لدحض هذه الاتهامات الظالمة لك هو أن تتزوجي ممن أطلقها ضدك، فكأننا تحصلين بذلك، منه على شهادة البراءة أمام الجميع من كل ما افتراه عليكِ واتهمك به من قبل .

لكنّ السؤال المهم هو : هل كان نفي هذه الاتهامات الكاذبة والرغبة في إنهاء هذه الحرب القدرة وحماية أسرتك من متاعبها ، يستحق منك هذا الثمن ؟

إنه سؤال ترجع إجابته إليك . . وأياً كانت الإجابة فسوف يكون لها

جانب لا بأس به من المنطقية والحجية ، لأنه لا يعرف لسع نيران الجحيم إلا من يكتوى بها .

لكنى إذا عجبْتُ لشيء في قصتكِ هذه فلن يكون عجبى الأكبر لاستسلامك أمام خصمك في هذه الحرب غير الشريفة طلباً للسلامة ، وقد كانت هناك بالفعل وسائل أخرى لإنهائها ، منها اللجوء إلى القانون . . وإنما سيكون عجبى الأكبر لاستسهال البعض بمثل هذا الطيش لاقتراف جريمة القذف في أعراض المؤمنات بغير خشية لعقاب السماء ولا عقاب المجتمع ، مع أنه جريمة يعاقب عليها الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة ، ويعاقب عليها أيضاً المجتمع في قوانينه الوضعية !

فلقد جعل الله جريمة القذف من كبائر الإثم والفواحش التي يُحدُّ عليها مرتكبها إن لم يُقَمِّ البينة على صحة ما رمى به الغير، وعقوبة القذف في الشريعة السمحة مادية وأدبية ، فالعقوبة المادية هي الجلد ، والأدبية هي رد شهادة القاذف وعدم قبولها أبداً ، والحكم بفسقه حيث يصبح بذلك غير عدل عند الله والناس .

بل إن العلماء قد اختلفوا في توبة القاذف : هل ترد له اعتباره فتقبل منه شهادته أم لا ؟ فذهب بعضهم إلى قبول شهادته إذا صحت توبته ، وذهب البعض الآخر إلى عدم قبولها .

كما أن الإسلام لم يكتف بتحريم القذف بالتصريح المباشر فقط ،

وإنما حرمة كذلك بالتعريض - أى بالتلميح - دون التصريح به، وفي عهد العظيم «عمر بن الخطاب» تَسَابَّ رجلان، فقال أحدهما للآخر: ما أمى بزانية ولا أبى بزَانٍ. وسأل عمر أهل الشورى فى حكم هذه العبارة: هل تعتبر قذفاً أم لا؟ . . فقال أحدهم: مَدَحَ أباه وأمه . . ولا شىء فى ذلك! وقال آخرون: كان له فى مدحهما سبيل آخر، إنما هو قذف بالتعريض يستحق عليه الحد . . فأخذ عمر بهذا الرأى وجَلَدَ الرجل .

فما أعجب أن يرتكب البعض هذه الجريمة النكراء دون أدنى إحساس بالإثم، وكأنها قد صارت سلوكاً عادياً لا يستحق الوقوف أمامه!

فأما تساؤلاتك الحائرة فليسوف أجيب عنها بترتيبها . .

فإذا كنتِ تسألين: هل يحاسبك الله سبحانه وتعالى على جفائك لزوجك وهجرك له؟ . . فجوابى عليه: نعم . لأنك بالرغم من كل ما جرى قد ارتضيت به زوجاً لك وقد كان فى مقدورك رفضه، ولو تحملت فى سبيل ذلك العناء .

وإذا كنتِ تسألين: هل يحاسبك الله سبحانه وتعالى على نفور طفلة منه بالرغم من أنك لا تشيرين إليه بسوء أمامها؟ . . فجوابى عليه هو أيضاً: نعم . لأنك إذا كنتِ لا تذكرين أباهما بسوء أمامها فأنتِ على الناحية الأخرى لا تذكرينه بخير لها ولا تحثينها على حبه والاقتراب منه،

ولا تعرفينها بفضله عليها كأب لها . . . وتكتفين بالتصاقها بك دون أن تؤدي واجبك كأم تجاه هذه الطفلة في توجيهها إلى حب أبيها والاقتراب منه .

فالأطفال الصغار إذا كانوا يرضعون حب الأم مع لبنها ، فإنهم لا يشربون حب الأب في مثل هذه السن المبكرة إلا من خلال الأم الواعية لواجباتها الدينية والتربوية ، وذلك قبل أن يكبر الصغار ويتأثروا بمؤثرات الأب المباشرة .

وأما سؤالك الجوهري عن القرار النهائي الذي ينتظره منك زوجك ، فالحق أنني أشعر من خلال كلماتك بأنك لا تخلين من رضا عميق في داخلك عن حبه الكبير لك ، وأحسب أن هذا الرضا كان أيضاً واحداً من الأسباب التي رجحت لديك الارتباط به إلى جانب الاعتبارات السابقة ، غير أنك تشعرين على الناحية الأخرى بأنك مازلت «ضحيته» ولست زوجته التي اختارته بملء إرادتها ، فيقف هذا الإحساس المؤلم حائلاً بينك وبين التجاوب المتصل معه .

كما أنني لا أشعر بأن لديك رغبة حقيقية في تغيير حياتك وبدء حياة جديدة مع خطيبك السابق ، أو مع غيره . . . وإنما أشعر فقط بأنك مازلت تريدان مواصلة «عقاب» زوجك على ما اقترفه في حقك من جرائم قبل ٤ أو ٥ سنوات ، لأنك لا ترين الفترة الماضية كافية له للتكفير عما فعل ولا للصفح عنه ، ولا ترين كذلك أن ما قدمه لك من

قرايين حسن المعاملة والاعتذار والتودد والصبر على الجفاء والهجر كاف لذلك .

وبذلك لا يصبح الاختيار الذى تواجهينه الآن فى الحقيقة بين الحياة معه كزوجة كاملة ، أو الانفصال عنه وبدء حياة جديدة بعيدة عنه . . وإنما يصبح الاختيار الحقيقى الذى تترددين أمامه هو إطالة مدة العقوبة لفترة أخرى . . أو الصفح الآن والإفراج عنه لحسن السير والسلوك خلال فترة العقاب !

وأرجو أن تواجهى نفسك بشأن هذا الاختيار مواجهة صريحة ، لأنك - فيما أتصور - لا تخططين لبدء حياة جديدة مع غيره ، ولا ترغبين لطفلتك فى التمزق بينك وبينه . فإذا كان الأمر كذلك ، فلعلّى أقول لك : إن زوجك قد قدّم لك ولأسرتك من القرايين ، وأهمها فى نظرى حسن معاشرته لك وتسامحه معك وصبره عليك ، ما يكفى - إلى جانب التوبة والندم والاستغفار - لأن يشفع له عند ربه فيما اقترف من جرم القذف السابق فى عرضك . فكيف لا يشفع له كل ذلك لديك ؟

إن التغيرات الإيجابية فى شخصيته والتزامه الدينى والخلقى وكثرة استغفاره وصلاته وصيامه . . كل ذلك يرشحه لأن يستحق صفحك وحسن معاشرتك له .

ولقد اعتبرت نفسك قبل ذلك قد أرغمت على الزواج منه بالاختيار القهرى الذى لا خيار سواه إلا الجحيم وسوء السمعة . . وكان هذا الإحساس كفيلاً وحده بعدم تفتح مسامك له . . فلماذا لا يكون قرارك

النهائي الآن هو «الزواج» من زوجك هذه المرة بالاختيار الحر له والرغبة الصادقة فيه ؟

إنني أعتقد أن حرية الاختيار لزوجك هذه المرة سوف تكون عاملاً جوهرياً في اختلاف علاقتك به وحياتك معه إلى الأفضل بإذن الله . .



سوط الحقيقة

كتبْتُ إليك من قبل رسائل عديدة في فترات سابقة ولم أرسلها لك ،
أما الآن فإنني في حاجة إلى مشورة إنسان لا يجاملني ولا يترفق بي . . وإنما
يمسك بسوط الحقيقة ويجلدني به بلا شفقة .

فأنا سيدة في الثانية والثلاثين من عمري ، تزوجتُ بعد حصولي على
الشهادة الإعدادية مباشرة امتثالاً لرغبة أبي . . ولم أكن أرغب في زوجي
ولا أحبه بالرغم من أنه شاب هادئ وطيب ، وقد استمر زواجنا ١٢
عاماً ، حملتُ خلالها ٤ مرات . . وفي كل مرة يموت الجنين أو المولود
بمجرد ولادته ، فيئس مني زوجي وبدأ يفكر في الزواج مرة ثانية ،
فتجرعتُ المرارة طوال عامين وأنا أراه مشغولاً بالتفكير في الزواج إلى أن
فاض بي الكيل ، فطلبتُ الطلاق ، ورجعتُ إلى بيت أسرتي جريحة
الكرامة والأنوثة ، ومضت شهور قليلة تقدم إليّ خلالها كثيرون ، لأنني -
كما يقولون - شابة جميلة ، وكان معظم المتقدمين لي من المتزوجين ، وفكرت
جدياً في الزواج من رجل لديه أبناء لكيلا أقاسى ما قاسيته مع زوجي

السابق بسبب عدم الإنجاب، ورجوتُ أبي ألا يتدخل هذه المرة في اختياري لمن يشاركني حياتي بعد ما حدث في المرة الأولى .

وتقدم لي شاب عمره ٣٠ عامًا ومتزوج وله طفلتان، وزوجته حامل! ..

وبالرغم من ذلك فقد طلبتُ أن أتحدث معه لأعرف شخصيته ، فجاء إلينا، وقال إنه غير متفاهم مع زوجته . . لكنه لم يطلقها من أجل أطفاله ، وإنما سيتزوج بمن يتفاهم معها ، وزوجته موافقة على ذلك .

تعجبتُ لما سمعت . . وطلبت منه أن يدعو زوجته للحضور معه إلى بيتنا في الزيارة المقبلة لأتأكد من قبولها بزواجه من غيرها . . وجاءت معه بالفعل . . ووجدتها أصغر مني سنًا وجميلة جدًا، وسألتها عما قاله لي زوجها، فهزت رأسها وقالت إنه سيتزوج في كل الأحوال، سواء مني أم من غيري . . ولهذا فهي لا تعترض تسليماً بالأمر الواقع . . وبالرغم من أن كل الظروف كانت تدعوني للابتعاد عن هذا الشاب، فقد قبلتُ به وتمتُ خطبتنا . . وبعد الخطبة ترامت إلى أقاويل عن سلوكه وسوء سمعته من الناحية النسائية، وعلمتُ أن عمله يتطلب منه أن يقضى في كل محافظة بضعة أشهر، فيبتعد عن زوجته ويتورط في علاقة نسائية أخرى، بل إن والده نفسه قد جاءني بعد الخطبة ونصحني بألا أتزوج ابنه لأنني لا أستحق ما سوف ينالني منه، فلما واجهته بما قيل لي عنه ، إذا به يعترف لي بكل بساطة بأن كل ما سمعته عنه صحيح ، وفسره لي

بأنه كان يبحث عن الحب الذي لم يجده في حياته الزوجية ، وأنه ما دام قد وجدته فسوف يتغير ويبدأ معى صفحة جديدة في حياته ، ويلتزم بالصلاة وفروض دينه . . إلخ .

وثار أهلى جميعاً ورأوا عدم إتمام هذا الزواج الذى لن يعدنى إلا بالمشاكل ، لكنى صممت على أن أتزوجه - وسط دهشة الجميع واعتراضهم - لسبب بسيط : هو أننى كنتُ مشدودة إليه بقوة ، وتأكدتُ من أننى أحبه ، وتخيلت أن الحب الحقيقى يطهر الإنسان من أدرانته ويجعله أقرب إلى الملائكة ، وما دام قد أحبنى فلسوف يتغير إلى الأفضل .

وتزوجتُهُ بالفعل بالرغم من مقاطعة أهلى ورفض معظمهم لهذا الزواج ، وطلبتُ منه أن يكون عادلاً بينى وبين زوجته الأولى . . وبدأتُ حياتى بالاقتراب منها وزيارتها والخروج معها ، ونجحتُ إلى حد كبير فى امتصاص غضبها ، خاصة بعد أن وقفتُ إلى جوارها حين وضعتُ حملها وأنجبتُ طفلاً جميلاً .

وبعد فترة قصيرة شعرتُ بالجنين يتحرك فى أحشائى ، وسعدتُ بذلك كثيراً ، وأملتُ أن تتحقق أمنيتى الغالية هذه المرة . ووضعتُ طفلة . . لكنها - للأسف - ماتت هى الأخرى بعد ولادتها بساعة . . واكتأبتُ لذلك كثيراً ، ثم حاولتُ التآلف مع ظروفى .

وبعد فترة أخرى وقع خلاف شديد بين زوجى وزوجته الأولى طلبتُ

على إثره الطلاق منه وحصلت عليه ، وتنازلت له عن حضانة الطفلين والولد الذي كان عمره حينذاك ستة أشهر . . وفكر زوجي في أن يضم أطفاله الثلاثة إلى والدته لكي ترعاهم ، لكنني رفضت ذلك بإصرار وصممتُ على أن يقيموا معي لأنني أحبهم ، حيث إنهم بضعة من زوجي الذي أحبه .

وجاء الأطفال للإقامة معنا . . فحملتُ الطفل الصغير بين يديّ وأنا في غاية الابتهاج ، إذ كانت المرة الأولى في حياتي التي يصبح لي فيها طفل وولد ، وسعدتُ للغاية بالطفلتين وبكلمة «ماما» الجميلة التي حُرمتُ منها طوال عمري . وتعلقتُ بالطفل الوليد كثيراً وأصبحتُ أخاف عليه حتى من ملامسة يدي لجسمه الرقيق ، واعتبرته تعويض الساء لي عن حرمانى الطويل ، حتى صار الجميع ينادونني باسمه .

ومضت سنتان وأنا في سعادة غامرة . . وبالرغم من أن زوجي لم يتغير ولم يكف عن المغامرات النسائية ، ولم ينكرها أيضاً حين واجهتهُ بها ، فلقد احتملتُ حياتي وتفانيتُ في محاولة إسعاده وإسعاد «أولادي» ، وحرصتُ على أن أكون زوجة مثالية وأماً رائعة ولست زوجة أب . وخلال ذلك كانت مطلقة زوجي قد تزوجتُ من رجل آخر وعاشتُ معه ولم تعد تسأل عن الأطفال .

وفجأة عرفتُ أنها قد حصلتُ على الطلاق من زوجها ، «واكتشفتُ» - لدهشتي وذهولي - أن زوجي ظل طوال العامين الماضيين يطاردها وهي

زوجة لرجل آخر حتى طلقها منه لترجع إليه . . وأنه الآن في انتظار انتهاء فترة العدة لكي يتزوجها !! . . فصعقتُ حين علمتُ بذلك . . وواجهتُهُ فلم ينكر . .

ومشكلتى الآن هى أننى لم أعد أتخيل أن ترجع حياتى إلى الخواء الذى كانت عليه بعد عامين طويلين اعتدتُ خلالها على وجود «أولادى» معى ، حتى امتلأتُ بهم حياتى وروحي ونفسى . . فكيف أتركهم لها الآن خاصة «ابنى» الصغير هذا ؟

من المستحيل طبعًا أن تسمح هى بأن يظل الصغير معى ، لكنه لو خيّر بيننا لاختارنى ، حيث إنه لا يعرفها . . ولقد حاولتُ الهروب من المشكلة فطلبتُ الطلاق من زوجى لأعود لأسرتى وأغلق حياتى على نفسى وهمومى ، لكنه رفض واتهمنى بالأنانية لأننى أريد أن أحرم زوجته السابقة من أطفالها ، ونسى أنها هى التى اختارت وتركت أولادها وتنازلت عنهم ، ونسى أنها تركتهم عامين لم تفكر خلالها سوى فى حياتها ونفسها . . فى حين سلمتُ أنا روحى ونفسى لهم وتعودتُ على وجودهم فى حياتى . .

إننى أعرف أنه ليس ذنبها . . لكنه أيضًا ليس ذنبى ، حيث أعتقد أننى لم أخطئ فى شىء وإنما احتملتُ مرارة حياتى من البداية للنهاية ، وتحملتُ فضائح زوجى النسائية من أجل بيتى و «أولادى» وحياتى ، كما أننى أعرف أن الطلاق لن يحل مشكلتى بل سوف يعقدها ، لأننى أحب

زوجى بالرغم من كل شيء ، ولأن زواجى به هو الزواج الثانى فى حياتى
ولن أحتمل الفشل مرة أخرى . . فهل أنا ظالمة أم مظلومة . . وبماذا
تنصحنى ؟

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

إذا كنتِ تحتاجين حقاً لمن يجلدك بسوط الحقيقة ولا يجاملك على
حسابها ، فلا بد لى من أن أقول لك إن رغبتنا الشديدة فى الأشياء لا تسوغ
لنا أبداً اغتصابها من أصحابها أو الاستئثار بها دونهم ، حتى ولو أهملوها
بعض الوقت أو بدوا لنا غير مبالين بها ، فالحقيقة التى تبقى غير قابلة
للجدال هى أن حقهم فيها يظل قائماً وثابتاً بغير الحاجة إلى دليل . كما أن
رعايتنا نحن لهذه الودائع الثمينة فى فترة انصراف أصحابها عنها قد
توجب لنا الشكر عليها ، لكنها لا ترتب لنا أبداً حق الاستيلاء عليها
دونهم بحجة أننا قد أخلصنا فى رعايتها وأحببناها وسعدنا بها وملأت
علينا حياتنا .

وهكذا فلا بد لكِ لكيلا تتجاوزى حد الإنصاف أن تسلمى بهذه
الحقيقة المؤلمة لكِ ، وهى أن هؤلاء الأطفال الثلاثة ليسوا أبناءك ، وإنما
هم أبناء هذه الأم التى تخلت عن حضانتهم بعض الوقت وتزوجت من
غير أبيهم ، وتستعد الآن لإعادة جمع شمل أطفالها مع أبيهم تحت سقف
واحد .

ولأن الحقيقة كثيراً ما تكون صادمة لأهوائنا ورغباتنا ، فإن شجاعة
التسليم بها تتطلب منا أن نرتفع فوق هذه الرغبات والأهواء ، وألا نتأثر

بمشاعرنا الشخصية في حكمنا على الأمور لنكون من المنصفين ، فالحق ينبغي له أن يكون أحب إلينا مما تهفو إليه نفوسنا وقلوبنا . ولقد كان الفقيه الحنبلي «ابن قيم الجوزية» في شرحه لكتاب الشيخ الهروي « منازل السائرين» يقول حين يتهاى لمعارضته في بعض آرائه : شيخ الإسلام حبيب إلينا عزيز علينا ، لكن الحق أحب إلينا منه وأعز علينا منه . ثم يعرض بلا جرح ما يختلف فيه معه .

فلعلك تفهمين من ذلك إذن أن تقديري لظروفك الإنسانية وتطلعك المحروم للأطفال لا يجوز لي أن أخالف الحق المر بالنسبة لك ، وهو أن هؤلاء الأطفال الثلاثة مهما بلغ من حبك لهم وعطفك عليهم واحتياجك النفسى لوجودهم في حياتك ، ليسوا «متاعاً» يفقد صاحبه الحق فيه إذا أهمله أو ابتعد عنه مرغماً أو راضياً بعض الوقت . وإنما هي «أمانة» استودعت إياها في ظروف معقدة ، ثم تغيرت هذه الظروف الآن ، وأن لك أن تردىها إلى أهلها كما يأمرنا بذلك الحق سبحانه وتعالى - مع الفارق في التشبيه - في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (١) ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فليؤدِّ

الَّذِي أُوتِيَ مِنْ أَمَانَتِهِ، وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ ﴾ (٢) خاصة إذا تذكرت في هذا الشأن قوله ﷺ فيما معناه : (من فرّق بين والدته وولدها فرّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة) ، وإذا تذكرت كذلك أن «عمر بن الخطاب» -

(١) سورة النساء ، من الآية ٥٨ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية ٢٨٣ .

رضى الله عنه - قد طلق زوجته الأنصارية بعد أن أنجب منها ولده «عاصماً» . . ثم رآه في الطريق وأراد ضمه إليه، فقال له «أبو بكر الصديق» - رضى الله عنه : رِيحُهَا وَمَسُّهَا وَمَسْحُهَا وَرِيْقُهَا خَيْرٌ لَّهِ مِنَ الشَّهْدِ عِنْدَكَ يَا عَمْرُ . .

فإذا كان هذا هو الحال مع الأب، فكيف يكون معكِ أنتِ يا سيدتى مهما بلغ من حبكِ لهؤلاء الأطفال وحنوكِ عليهم واحتياجكِ النفسى إليهم؟! فلا تحاولي إقناع نفسك بأنكِ أحق بهؤلاء الأطفال الصغار من أمهم التى حملتهم وهنَّ على وهنٍ لأنها قد انفصلتُ عن زوجها وتزوجتُ غيره، وابتعدتُ عنهم مُرْغَمَةً أو راضية عامين من الزمان، ذلك أننا لا نعرف الكثير عن ظروف انفصالها عن زوجها، وإن كان زواجه بكِ وهى حامل فى طفلها الثالث بدعوى عدم تفاهمه معها، يكفى وحده للإشارة إلى ما عانتُهُ وتكبدتُهُ من أجل الحفاظ على هؤلاء الأطفال أنفسهم حتى لتُضْطَرَّ مرغمة للتسليم بزواجه من غيرها وتصحبه أيضاً إلى بيتكِ لتبلغكِ بعدم معارضتها له، والله وحده أعلم بعمق الجرح فى قلبها وصدرها وهى تفعل ذلك . . فإذا كانت قد ضاقت بها الحيل بعد حين وطلَّقتُ منه وتزوجتُ غيره وكان الثمن الباهظ لذلك هو التنازل عن حضانة هؤلاء الصغار، فإن وقوفكِ فى وجه إصلاح هذا الخطأ الفادح وإعادة جمع شمل الأطفال بين أبيهم وأمهم لا يمكن تفسيره بالفعل إلا بالأنانية ومحاولة إيثار النفس بما ليس من حقها، حتى ولو كانت فى أشد الاحتياج إليه، لأن الاحتياج وحده لا يصنع حقاً لأحد . . تماماً كما أن

الاستغناء لا يسقط حقًا لبشر . . . ولقد اخترت حياتك هذه بملء إرادتك، فارتبطتِ برجل متزوج وزوجته حامل في طفله الثالث، ومضيتِ في مشروع زواجك منه بالرغم مما اطلعتِ عليه من أمره، ولم تستجيبى في ذلك لنصح الناصحين حتى والده الذى كره لك أن تتعرضى معه لما لا تستحقين من المتاعب والمشاكل، فأنتِ إذن واختيارك . . . ولك أن تبرريه لنفسك بما تشاءين من المبررات العاطفية حتى ولو أنكراها العقل والحكمة . . . لكنه لا يحق لك - مهما كانت معاناتك مع الحرمان المؤلم من الإنجاب، أو الارتباط العاطفى بهؤلاء الصغار - أن تدعى لنفسك فيهم حقًا ليس لك، وإذا كنتِ قد أحسنتِ رعايتهم والحدب عليهم، فإن :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس

وهكذا . . . فإن رعايتك لهؤلاء الأطفال الثلاثة لن تذهب سُدَى، وإنما سوف تنالين عنها أجرِك الموفور بإذن الله من السماء، كما أن علاقتك الإنسانية بهم لن تنقطع بمجرد عودتهم إلى أحضان أمهم، وإنما من الممكن أن تتواصل وتستمر فتعوضك بشكل أو بآخر عن بعض حرمانك منهم، ومن الممكن بكل تأكيد أن تكونى أمًّا ثانية لهم إلى جوار أمهم الحقيقية، لكنه ليس من العدل أو الرحمة أن تتطلى لأن تكونى أمهم الأولى دونها. أما شكواك من عدم تغير زوجك ومغامراته النسائية

وصبرك عليها حرصًا على مصلحة «أولادك» واقتناعك بأن الطلاق منه لن يحل مشكلتك وإنما سوف يزيد لها تعقيدًا، فلا تعقيب لي عليها سوى أن مَنْ يعرف قواعد اللعبة قبل المشاركة فيها لا يحق له الاعتراض عليها خلال اللعب. وأنتِ قد قبلتِ الزواج من رجل متزوج وله أطفال ويتمتع بسمعة غير طيبة بسبب ضعفه حيال النساء ومغامراته المتعددة.. فأمركِ إذن بيدكِ إذا رغبتِ في أن تواصلِ «الشرب على القذى» كما يقول الشاعر، أو ترفضى الاستمرار في تجرع الماء العكر وتختارى لنفسكِ حياة أخرى.. أما تبريركِ لرغبتكِ في الاستمرار في زواجكِ - بالرغم من كل شيء - بالحب، فإنه تكرر لما وصفه الكاتب الفرنسى «مارسيل بروست»: «الصراع بين الذكاء الواعى للإنسان وإرادته الوضيعة»، أى الضعيفة تجاه ما يجب ويعلم في نفس الوقت أنه يدفعه دفعًا إلى الوقوع في البئر لغير سبب سوى أنه «يريد» مَنْ يجب ولا يقوى على مقاومة ضعفه تجاهه، بالرغم من اقتناع عقله الواعى بكل مثالبه وعيوبه.. وهو صراع قد يطول أو يقصر.. لكنه لا بد له في النهاية من لحظة حسم واختيار يتمالك الإنسان فيها إرادته فيفعل ما يمليه عليه العقل.. مما يتغافل هو عنه أو يتجاهله استسلامًا لهذه الإرادة الضعيفة.

مَحَطَّةُ الْقِطَارِ

أكتب لك للمرة الثالثة وأرجو أن تجد رسالتي لديك هذه المرة اهتمامًا كافيًا، لأنني في أشد الحاجة إلى مساعدتك . .

فأنا شاب عمري ٣٦ سنة . . حاصل على شهادة عليا ومن أسرة متوسطة ومحترمة . . وقد مضت حياتنا هادئة وطبيعية في ظل أبويننا، فتعلمنا وعمل إخوتي وحققوا نجاحهم، وعملتُ أنا بعمل مرموق بإحدى الهيئات، وأصبحتُ حياتي موزعة بين العمل والبيت والنادي، وبعد التحاقى بالعمل خطبت فتاة . . فكان مصير خطبتي الفشل بعد حين لخلافات عائلية . . وبعد فترة أخرى خطبت فتاة أخرى، وكان الفشل أيضًا هو مصير هذه الخطبة الثانية ولنفس السبب .

ثم رحل والدي عن الحياة - يرحمه الله - وشعرتُ بالحزن الشديد عليه لأنه ضحى بالكثير من أجلنا، وكان وافر العطاء لنا، رحمه الله، وأثابه عنا . . وعقب رحيله عن الحياة ببعض الوقت أبلغتني والدتي أن إحد صديقاتها - وهي سيدة مصرية مهاجرة لأمريكا، وترجع من حين لآخر

فالتقى بأُمى وتتبادل معها الزيارات - تبحث عن فرصة ملائمة للعمل لإحدى قريباتها الشابات، وطلبتُ منى أن أحاول مساعدتها على العمل معى بنفس الهيئة . . . ووعدها خيراً . . . ونسيت الأمر لبعض الوقت . . . لكنّ إلحاح أُمى علىّ دفعنى لأن أحدث رئيسى فى شأنها، فطلب مقابلتها لإبداء الرأى فيها، وحددتُ معه موعدًا للمقابلة، واتصلتُ بالسيدة صديقة أُمى وطلبت منها إرسال قريبتها إلى مكتبى فى هذا الموعد، فلما جاءت وجدتها فتاة جميلة ومشرقة وممتلئة بالحوية . . . وتحدثتُ إليها حديثًا طويلًا وجدتُنى فى نهايته أتمناها لنفسى وأتعجب لهذه الرغبة العجيبة، وتم اللقاء بينها وبين مديرى، فانتظرتُ خروجها لأعرف ماذا جرى فى اللقاء . . . لكنها كانت قد خرجت من باب آخر، وبعد ساعات اتصلتُ بى لتشكرنى . . . وعرفتُ أن المدير قد اقتنع بها وقرر أن يعطيها فرصة للعمل تحت الاختبار.

وجاءت الفتاة إلىّ لكى أعرفها بظروف العمل وكيفية التعامل مع العاملين فيه، وجرى حديث طويل بيننا شعرتُ خلاله بانجذاب شديد إليها. ثم تكرر اللقاء والحديث بيننا . . . وفى كل مرة أجدنى أكثر انجذابًا إليها . . . حتى سلمتُ بعد بضعة أسابيع بأننى أحبها وأرغب فى الارتباط بها، وهنا بدأت المشكلة التى اعتصرتنى بعد ذلك وغيرت مجرى حياتى، فلقد أدركتُ من الوهلة الأولى أن والدتى لن توافق على الإطلاق على ارتباطى بها على الرغم من أنها هى التى أوصتنى بتوظيفها فى جهة عملى، لأنها من وسط اجتماعى أقل من وسطنا، وإن لم يكن أقل من

الناحية المادية . . حيث إن والدها يمارس عملاً شريفاً مربحاً لكنه ليس عملاً مهنيًا مرموقاً كعمل والدي . . وحاولتُ تجنب المشاكل مع والدتي التي أعرف عنها الصلابة وقوة الشخصية ، فقررتُ الابتعاد عن هذه الفتاة ، وحاولتُ ذلك بالفعل . . لكنني وجدتُني عاجزاً عن الاستمرار في البعد ومكتئباً وحزيناً على الدوام ، فتشجعتُ وفاتحتُ أمي برغبتي في خطبة هذه الفتاة، فكانت الطامة الكبرى . . وانفجرتُ في وجهي بالرفض والصراخ والبكاء وأثارت عليّ إخوتي ، وفشلتُ كل المحاولات معها لإثائها عن هذا الموقف المتشدد حتى انقطع حبل الكلام بيني وبينها .

وفي غمرة ضيقي بتأزم العلاقة بيني وبين أمي توجهتُ إلى الأزهر الشريف ودار الإفتاء ، وحصلت منها على فتوى مكتوبة بأن من حقي شرعاً أن أختار من أريد وأتزوجها على سنة الله ورسوله لأنني رشيد . . ورجعتُ إلى أمي بهذه الفتوى ، فرفضتها لأنها - للأسف - كانت مختصرة وغير مسببة ، وتحدثت فقط عن جواز أن أفعل ذلك من الناحية الشرعية .

وهجرتُ البيت خلال فترة اشتداد الخلاف بيني وبين أمي بصفة مؤقتة تجنباً لتصعيد الموقف ، وطلبت مني والدتي العودة ووعدتني بالتفاهم . . فرجعتُ مستبشراً . . ولكنني وجدتها على نفس موقفها بل أشد، وبدأت في الشجار معي من جديد كل يوم حول هذا الموضوع

وتدخل الآخرون بيننا، فأدى التدخل إلى زيادة العناد وارتفاع الصوت حتى ساءت حالتى المعنوية كثيراً، وقل تركيزى فى العمل بعد أن كنتُ مرشحاً للنجاح الباهر فيه، فتم نقلى إلى مكان آخر داخله .

وأصبح مزاجى حاداً وعصبيتى شديدة، ووالدتى تلاحقنى كل يوم بالتهديد والمطالبة بترك هذه الفتاة. . وفى فترة يأس شديدة قررتُ الحصول على إجازة بدون مرتب من عملى والسفر إلى أمريكا لألحق بصديق مهاجر إلى هناك منذ فترة، وقدَّرتُ أننى إذا لم أوفق فى الحصول على عمل خلال فترة محددة، فإنى أستطيع العودة لعملى فى مصر بعد أن أكون قد ابتعدتُ بعض الوقت عن الجحيم الذى أعيش فيه بسبب الخلاف مع والدى، وعلى أمل أن يسهم البعد فى تهدئة الغضب والأعصاب. وكتبْتُ إليك فى هذه الفترة رسالتين أستشيرك فىهما فى ذلك. . لكنها ضاعتا للأسف فى زحام الرسائل لديك ولم أقرأ رداً عليها.

وسافرتُ بالفعل بغير معارضة من جانب والدى، بل لعلها سعدت بسفرى لكى أبتعد عن هذه الفتاة وأتخلى عن الرغبة فى الزواج منها، واستقبلنى صديقى أحسن استقبال وأشركنى معه فى مسكنه، وقدمنى لصاحب العمل الذى يعمل معه حيث كان يستعد لتركه لعمل آخر. . وعملت فى مكان صديقى، وبدأت حياتى فى الغربية.

وبعد أسابيع كانت فتاتى قد نجحت هى الأخرى فى الحصول على تأشيرة الدخول عن طريق قريبتها المهاجرة، وجاءت إلى نفس المدينة

التي أقيم فيها وأقامت لدى أقاربها وعملت ، وأصبحنا نلتقى كل مساء في محطة القطار عقب انتهاء العمل وكل منا في طريقه إلى بيته ، فتشرق أسارير كل منا حين يرى الآخر ويقبل عليه بلهفة ، ونمضي معاً في المحطة فترة سعيدة من الزمن يروى فيها كل منا للآخر ماذا فعل في يومه ، وماذا صادفه من أحداث وتجارب . . ثم يركب كل منا قطاره إلى سكنه على وعد باللقاء في اليوم التالي .

ومضت حياتي في الغربية في طريقها المعهود . . ومن حين لآخر أحاول أن أتلمس من خلال الاتصال التليفوني بأمي أي تغير في موقفها من مسألة زواجي من هذه الفتاة ، فأجدها على رفضها وتمسكها الشديد بموقفها ، مما يضطرنى إلى الالتزام بالصمت ، خاصة أنها لا تعرف أن فتاتي قد جاءت إلى نفس البلد الذي أعيش فيه . .

ومضت شهور على غربتنا حدثت خلالها مشاكل كثيرة . . وانتقلت أنا إلى أكثر من عمل ، وواجهت فتاتي بعض المشاكل في عملها ، فطلبتُ منها تركه واستجابت . ونصحتني بعض الأصدقاء في الغربية بأن أتزوجها ولو عرفياً حماية لها من مؤثرات الغربية وأقاويل زملاء العمل المهاجرين . . ورحتُ أفكر في ذلك طويلاً وفي وقعه على والدتي ، فقررت أن أصارحها في التليفون لأول مرة بأن فتاتي مقيمة في نفس البلد الذي أعيش به . . وفعلتُ ذلك متردداً ، فإذا بها تجرى تحريات عني وعن الفتاة عن طريق بعض الأصدقاء في الغربية ، فاتصلتُ بأحد الأشخاص العائدين لمصر في إجازة لتسأله عن رقم تليفون صديق لي في الغربية ،

فتطوع - سامحه الله - وهو الذى كان على خلاف مع فتاتى ، وبسببه طلبتُ منها أن تترك العمل لأنه كان يتقوّل عليها بكل سوء - بأن يقول لأمى إننا قد تزوجنا . . فثارت ثورة عارمة ومرضتُ ، واتصلت بى تليفونياً لتطلب منى طلاقها بإصرار شديد . . وكلما حاولتُ الشرح أو الاعتذار لم أسمع منها سوى كلمة : طَلَّقْهَا !!

ورجعتُ إلى البيت فى ذهول لمعرفة بأمْر زواجنا ، وواجهتُ فتاتى بما حدث وسألتها عما أفعل ، فتوسلتُ إلىّ ألا أطلقها لأنها سوف تتحطم نهائياً إذا فعلتُ ذلك ، فهى تحتاج إلىّ وتحبنى ولا ترى لنفسها حياة بعيداً عنى . . وشعرتُ بضعفها وانكسارها ، فأحسستُ بخنجر حاد ينغرس فى قلبى ، وازددتُ ألماً وحرزناً . .

وأنا الآن فى حيرة من أمرى ، فأمى تطلب منى طلاقها بإصرار ولا تقبل أى تفاهم حول هذا الأمر . . وأنا أحبها ولا أرضى بغيرها بديلاً ، ولا أريد فى نفس الوقت أن أفقد أمى التى أحبها وأعترف بفضلها علىّ ، وأبكى ألماً لمرضها حين تمرض ولغضبها حين تغضب . . إننى أرجوك أن تساعدنى على الخروج من هذه المحنة بغير أن أفقد أمى أو فتاتى ، وأن تكتب لوالدتى كلمة تستعطفها فيها ألا تحرمنى من رضاها عنى ومشورتها التى أفقدها الآن .

●● ولکاتب هذه الرسالة أقول :

الهروب من مواجهة المشكلة ليس حلاً لها ، وأنتَ قد واجهتَ

مشكلتك مع رفض والدتك لمن اختارها قلبك بالهروب النفسى والمكانى من مواجهة المشكلة وليس بالصبر عليها ومحاولة التوصل إلى حل وسط لها . . . ولأن الهروب من مواجهة المشاكل لا يثمر سوى تأجيل انفجارها لفترة من الزمن ، فلقد انفجرت المشكلة الآن بينك وبين والدتك بشكل أعنف مما كان عليه الحال قبل أن تلجأ إلى هذا الحل الهروبى . ولا غرابة فى ذلك لأن تأجيل بعض المشاكل يؤدي إلى تفاقمها وتعقدتها بدلاً من أن يساعد على حلها . . . وأنت قد هربت من المواجهة (مكانيًا) بالهجرة إلى أمريكا . . . و(نفسياً) بتكتم خبر وجود فتاتك معك بالغرابة عن والدتك . . . وبإدعاء أن سفر فتاتك إلى المهجر ولقاءك بها هناك كانا مجرد مصادفة قَدَرِيَّة أتاحَتْ لكما إعادة جمع شملكما واستكمال مشوار الحب والارتباط من جديد ، وكذلك بالتعمية على حقيقة زواجك منها فى الغربة حتى فى رسالتك لى ، وإلى حد أننى لم أتبيّن زواجك منها إلا من خلال مطلب والدتك القاطع منك أن تطلقها! . . . فلماذا لاتعترف لنفسك ولوالدتك وللجميع بحقائق الأشياء بلا هروب ولا تنصل منها؟! . . . ولماذا لاتعترف لنفسك بأنك قد دبرت مع فتاتك - حين يئست من قبول والدتك لها كزوجة لك - أن تهجرا إلى أمريكا الواحد بعد الآخر لتلتقيا هناك وتتزوجا بغير معارضة من أحد؟!!

إنك لو كنت قد فعلت ذلك قبل سفرك وهجرتك وامتلكت شجاعة المواجهة لوالدتك وصارحتها بنيتك فى الهجرة خصيصاً لكى ترتبط بفتاتك هناك ، وأنه لا بديل أمامك سوى ذلك ما دامت هى مُصِرَّة على

موقفها المتصلب منها ، لربما أعانتها هذه المواجهة الصريحة على إدراك الحقيقة التي غاب عنها إدراكها في غمار معارضتها لهذا الزواج وهي أن رغبتك في الزواج من فتاتك هذه قد خرجت عن نطاق السيطرة ، وأن استمرارها في معارضتها لك إلى ما لا نهاية لا عائد له عملياً إلا دفعك إلى الخروج عن طاعتها والزواج من فتاتك رغماً عنها في السر أو العلن . . . ومادام الأمر قد بلغ بك هذا الحد الذي لا تجدى معه النصيحة أو المجادلة . . . فإن الأكرم لها ألا تستمر في معارضتك إلى ما لا نهاية حتى ولو كانت غير راضية عن اختيارك ، ولربما كانت قد أدركت حينذاك أن من واجبها كأم تحرص على ألا يخرج ابنها على طاعتها ، أن ترخي الخيط الرفيع الذي يربط بينه وبينها قبل أن ينقطع بالعصيان والإقدام على تنفيذ ما لم تقبل به رغماً عنها ولو في السر . لكنك لم تفعل ذلك وآثرت الحل الهروبي ، وكانت النتيجة هي انفجار المشكلة ، ومواجهتك لهذا الاختيار القاسي بين الأم ونداء القلب .

ولأن ما جرى قد جرى فسوف أتوجه بحديثي إلى السيدة الفاضلة والدتك . . . وأقول لها : إنني أقدر دوافعها كأم لمعارضة زواج ابنها ممن تراها - من وجهة نظرها - غير ملائمة له ، وأعرف جيداً أنها ما عارضت هذا الزواج إلا طلباً لما تراه الأفضل والأمنع لابنها . . . لكن من حقائق الحياة كذلك ما يفرض علينا يا سيدتي أن نسلم به وألا نقف في طريقه ، وإلا اكتسحتنا أمواجه في طريقها ، ومن هذه الحقائق أن لأبنائنا الحق في أن يختاروا حياتهم ما يرون - من وجهة نظرهم - أنه سوف يحقق لهم

سعادتهم وأمانهم في الحياة ، وليس لنا عليهم سوى واجب النصيحة والإرشاد . . . فإن تبينوا ما في وجهة نظرنا من أوجه الحكمة والخير لهم وعملوا بنصحننا؛ سَعِدْنَا باستماعهم لنداء العقل ورجوتنا لهم الخير في الدنيا والآخرة . . . وإن عَمِيَتْ أَبصارهم عما في رأينا من حرص عليهم وخير لهم واختاروا أن يخوضوا تجربتهم في الحياة وفقاً لرؤيتهم ورغباتهم ، لم يكن لنا أن ننكر عليهم حقهم في التجربة والاختيار حتى ولو كنا نرى في الأفق نذر التعاسة والفشل تقترب من سمائهم . . . ذلك لأنهم راشدون ومسئولون عن أنفسهم شرعاً وقانوناً ، وغاية أمرنا معهم هو أن نوجه أنظارهم إلى ما قد يغيب عنهم في غمرة اندفاعهم لنيل ما يريدون ، ونرجو الله أن يكذب الظنون ويحقق لهم ما يرجونه لأنفسهم من سعادة ونجاح ولو أثبت ذلك خطأ توقعاتنا !

ولقد كان هذا هو مضمون الفتوى التي حملها إليك ابنك من لجنة الإفتاء بالأزهر ودار الإفتاء حتى ولو لم تتعرض للتفاصيل ، ولهذا فليس من الرشد أن نفرض نحن حكمتنا على أبنائنا الراشدين ولو كنا على يقين أنها الأنفع لهم ، ولا أن نلزمهم برؤيتنا للأشياء ولو كنا على ثقة من خطأ تقديراتهم ، وإلا دفعناهم بذلك دفعاً إلى شق عصا الطاعة علينا وإهدار مشورتنا في كل أمور الحياة . ولقد قال الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١)

(١) سورة القصص ، من الآية ٥٦ .

والمعنى هو أن الحب وحده قد لا يكفي أحياناً لإقناع مَنْ نحب بما نريده له من خير ورشاد ، وأن لقدرة البشر حدوداً في ذلك ولو كانوا من الرسل المكرمين . . فما بالك بنا نحن !

إن الحب الحقيقي المبرراً من الأنانية وشهوة التسلط على الأبناء هو الحب الذى لا يضعهم أمام الاختيار القاسى بيننا وبين مَنْ يختارون وما يختارون من اختيارات الحياة ، لأننا بذلك لا نعينهم على البر بنا ، وإنما على شق عصا الطاعة علينا ، وليس من حقنا حين ندفعهم دفعاً إلى ذلك أن نأسى لأنفسنا ونتهمهم بالعقوق ، لأننا فى واقع الأمر قد حرّضناهم تحريضاً عليه بالتصلب الشديد معهم والتمسك المطلق بإخضاعهم لمشيئتنا ، دون النظر إلى رغباتهم واختياراتهم واعتباراتهم الشخصية والإنسانية .

ويكفيك دليلاً على حب ابنك لكٍ وحرصه على ألا يفقدك : تخفيه بأمر زواجه عنك وهو يعيش على بُعد آلاف الأميال عن أنظارك ، ويكفيك دليلاً على ذلك أيضاً أنه لا يحتاج إليك مادياً لكى يتوسل بطاعته الشكلية لكٍ لنيل ما يطمح إليه منك ، وإنما كل ما يرجوه منك هو رضاك عنه . . وتسليمك بحقه فى الاختيار لحياته حتى ولو لم يكن هذا الاختيار مقنعاً لكٍ . . فتنازلى يا سيدتى عن موقفك المتصلب معه ورفضك لاختيار ابنك لحياته ، حتى ولو كانت كل مبرراتك للرفض صحيحة وصائبة واختياره لنفسه خاطئاً . . ولا تحرميه من رضاك عنه وتواصلك الإنسانى معه ، وحقه فى خوض تجربة الخطأ والصواب على

مسئوليته الكاملة . . وتذكرى أنه يعيش الآن في مجتمع يعتبر مجرد تدخل الأب أو الأم بإبداء الرأي في اختيار الأبناء «عدواناً» صارخاً على حرمتهم الشخصية وحقهم في الاختيار . وعلى الرغم من ذلك فهو لم يتأثر - والحمد لله - بمؤثرات هذا المجتمع ولم يفقد الرغبة في استرضائك والأمل في نيل قبولك لما اختار لحياته . . كما أرجوك أيضاً في النهاية أن تتذكرى أن ابنك الشاب هذا ليس فتى غرّاً مراهقاً تتحملين أمانة المسؤولية عنه أمام الله والناس ، وإنما هو رجل مكتمل الأهلية في السادسة والثلاثين من عمره ، ومن حقه أن يختار لحياته حتى ولو لم نرض نحن عن هذا الاختيار . .





المياه الراكدة

أعرف جيدًا أن مصير رسالتي هذه سيكون سلة المهملات لأنك لا تحب هذا النوع من الرسائل . . ومع ذلك فإنني أكتبها لك عسى أن يستفيد بها بعض الزوجات والأزواج .

فأنا سيدة في الأربعين من العمر ، تزوجت منذ ١٢ عامًا ، وقد تأخرت في الزواج لأنني شُغِلْتُ بعمل المرموق وصممتُ أذني عن عبارات الحب والإعجاب والهيام بجمالي ، إلى أن اشتد إلحاح أبي وأمي عليّ للحاق بقطار الزواج قبل أن يفوتني ، فقبلتُ شابًا يعمل عملاً مهنيًا محترمًا وتزوجته ، فوجدته بعد الزواج إنسانًا طيبًا وحنونًا ، وعرفت أنني المرأة الأولى في حياته . . ومضت بنا السنوات وأنجبتُ طفلين . . وشيئًا فشيئًا حل الفتور بيننا وأصبحتُ حياتنا كالمياه الراكدة . . لا يحركها تيار ولا يغير من مللها شيء . . وازداد اهتمامه بعمله . . ورجعتُ أنا للعمل الذي كنتُ قد انقطعتُ عنه عند الإنجاب ، ومنذ ثلاث سنوات ذهبتُ إلى عيادة طبيب أسنان شاب لعلاج أسناني ، فأبدى إعجابه واهتمامه

الفائقين بي ، وبعد عدة جلسات حاول أن يعبر عن حبه لي ، لكنني أفهمته أنني سيدة متزوجة ، وأن زوجي هو الرجل الأول والأخير في حياتي ، فالتزم حدوده معي ، وواصلتُ بعد ذلك زيارته كلما احتجتُ للعلاج .

وفي إحدى هذه الزيارات صارحني بأنه يحبني للغاية ويتمني لو كنتُ غير متزوجة كي يفوز بي دون الآخرين . . فإذا سألتني الآن : لماذا واصلتُ التردد على عيادته بعد أن صارحني بذلك ، ولماذا لم أذهب لعيادة طبيب آخر ؟ . . سيكون جوابي هو أنني قد اعتدتُ أن أسمع كلمات الإعجاب من الآخرين دون أن تؤثر على التزامي . . كما أن الطبيب قد التزم بالحد الذي أوقفته عنده ، لكنه لم يتوقف - بالرغم من ذلك - عن إدارة أسطوانة الغزل وكلمات المديح والإعجاب الشديد بجمالي وأخلاقى وأدبى واحترامى لنفسى ورشاقتى . . إلخ .

وشيئاً فشيئاً وجدتني أحب سماع هذا الكلام منه ، بل ووجدتني أيضاً أتعمد الذهاب لعيادته وأنا في كامل أناقتي وجمالي . . وأسعد باهتمامه بي حين يستقبلني على باب غرفة الكشف بابتسامة عريضة . . ولأنني كنتُ محرومة من سماع كلمات الغزل من زوجي ، فقد وجدتني أستعذب سماع هذه الكلمات من هذا الطبيب ، ومنذ عام اكتشفتُ أن زوجي يعبث في أوراقى كأنها يحاول أن يكتشف فيها شيئاً لا يعرفه عنى . . وضقتُ بشكِّه فيَّ ، خاصة حين عرفتُ أنه كان يفعل ذلك طوال السنوات الماضية . . وانفجرتُ فيه لأول مرة منذ تزوجنا . . وحاول هو

أن يهدىء من روعى وطلب منى أن أخفض صوتى العالى دون جدوى ،
فإذا به يرفع يده إلى أقصى مدى ثم يهوى بها على وجهى ليسكتنى ،
فنزلت صفعته على وجهى كالصاعقة . . وكففتُ عن الصراخ . .
وأحسستُ أن جداراً سميكاً قد قام فجأة بينى وبينه .

وغادرت بيت الزوجية عائدة إلى بيت أبى . . وبعد فترة قصيرة ذهبتُ
إلى عيادة هذا الطبيب للعلاج ، ووجدتُنى أتحدث معه عن مشكلتى مع
زوجى ، فكان ينبوعاً للحنان . . وحاول أن يخفف عنى ولم يحاول أن
يستغل الظروف لاستشارتى ضد زوجى ، بل قال لى : إن من حقه أن
يعرف عن زوجته كل شىء لأنه ليست هناك خصوصية بين الأزواج . .
فزادنى هذا الموقف اقتراباً منه ، واستمررتُ فى الإقامة فى بيت أبى
ورفضتُ محاولات زوجى للصلح ، حتى ضاق بى أبى وأندرنى أننى إذا
حصلتُ على الطلاق فلا مكان لى فى بيته لأن بناته لايعرفن الطلاق ،
فانتقلتُ للإقامة فى شقة أخى المسافر للخارج . وبعد فترة من الوحدة
والملل وجدتنىُ أرجع إلى بيت الزوجية وحدى دون ضغط من أحد . .
ومضت فترة طويلة دون أن ترجع علاقتى بزوجى إلى طبيعتها السابقة ،
لأن صورته وهو يهوى بيده على وجهى كانت تقف حائلاً بينى وبينه . .
ثم اشتعلت الخلافات بيننا من جديد لأن زوجى لم يتفهم حالتى النفسية
ولم يتحملنى ، وطالت فترات الخصام بيننا . . وفى هذه الفترة رجعتُ
للتردد من جديد على عيادة طبيب الأسنان الشاب بعد انقطاع ٩
شهور . . وكنتُ هذه المرة فى حالة نفسية سيئة وعلى استعداد لقبول غزله

وإعجابه . . وذات يوم وقعتُ مشاجرة عنيفة بيني وبين زوجي هجرتُ بيت الزوجية على إثرها ، ورجعتُ للإقامة في شقة أخي . . فذهبتُ الى عيادة هذا الطبيب وجلست على كرسى الأسنان استعدادًا للعلاج ، وجلس هو إلى جوارى وسألني عما بي ، فلم أجب . . لكنني تنهدتُ تنهيدة عميقة . . فأمسك بيدي وضغط عليها بحنان . . ولم أعترض . . فرفعها إلى فمه وقبلها ولم يتحرك لي ساكن . . وخلال لحظات انتهى كل شيء . . ورجعتُ إلى بيتي وأنا ذاهلة . . وفي غرفتي وجدتُني أبكي بمرارة وأنظر إلى نفسي في المرآة باحتقار ثم أبصق عليها . وبعد أيام جاءني صوته يحاول أن يقنعني بأن ما حدث بيننا لم يكن لأحدنا يد فيه . . إلخ . . ودارت رأسي بكلامه المعسول وغزله الرقيق مرة أخرى . . وعرفتُ منه لأول مرة أنه متزوج وعنده أطفال . . وبالرغم من ذلك فقد تكرر الخطأ بيننا مرة ثانية في المكان نفسه . . ومرة ثالثة أيضًا ، وبعد هذه المرة الثالثة لم يتصل بي كما كان يفعل من قبل ، وطال تجاهله لي لفترة ، وحين اتصلتُ به وملتُّه على ذلك تعلل بمشغولياته العديدة ، فأصبحت أنا التي ألاحقه وهو الذي يتعلل بالانشغال والمسئوليات وضيق الوقت دائماً . . إلخ .

وبدأتُ أفيق مما أوقعتُ نفسي فيه ، وذهبتُ إليه في العيادة وأنا عاتبة عليه لتجاهله لي ، ففوجئتُ به يكشر لي عن أنيابه ويُسْقِطُ عن وجهه قناع الرقة والحنان ويحتد على في النقاش إلى حد أن دفعني بيده في كتفي وهو في قمة الانفعال . . وخرجتُ من عنده وأنا لا أصدق ما فعلتُ

بنفسى وكرامتى وشرفى ، فلم يغمض لى جفن طوال الليل . . وعشتُ
الأيام التالية وأنا فى أسوأ حال ، أسأل نفسى كيف انحدرتُ فجأة من
قمة الوقار والاحترام إلى مستنقع السقوط والخطيئة ، وأين ذهب عقلى وأنا
أتخلى عن التزاماتى ومسئولياتى كزوجة وأم؟ . . وضاعف من عذابى
وحيرتى أن زوجى قد ظهر بعد هذه المحنة نادماً على ما حدث بيننا من
خلافات ومشاجرات طوال العام الأخير ، وراعباً فى استمرار الحياة بيننا
بأية شروط أضعها لأنه متمسك بى ويقدر فى طبيئى وتسامحى معه . .
ووجدتُنى أرفض العودة إليه بإصرار . . ليس كرهاً فيه ولكن خجلاً من
نفسى . . وكان جوابى على توسله لى للعودة إلىّ هو أن هذا الحل لم يعد
صالحاً الآن للتنفيذ ، دون إفصاح عن السبب .

وفى لحظات الصدق مع نفسى اقتنعتُ بأن كل مشكلاتى مع زوجى
فى العام الأخير كانت من أثر تحول مشاعرى عنه بسبب هذا الشيطان
اللعين الذى غدر بى . أما زوجى فهو كما هو منذ تزوجتُهُ ، ولم تكن
العيوب والأخطاء التى أخذتها عليه سوى تبرير أقنع به نفسى لتحول
مشاعرى عنه . . وللأسف فإننى لا أستطيع مصارحته بالحقيقة ولا
بسبب رفضى الحقيقى للعودة إليه الآن بعدما حدث . . فماذا أفعل مع
نفسى لكى أنسى ما حدث وأمحو عن ثوبى الأبيض هذه البقعة
القدرية؟ . . وماذا أفعل مع زوجى الذى يُلحُّ علىّ هو وكل الأهل فى
العودة إليه؟

إننى أكتب إليك لكى تقول لكل زوجة : إن الرجل الذى يغازل سيدة

متزوجة لا يكون شريف القصد ، ولا يكون له سوى هدف واحد يسعى للوصول إليه وبمجرد بلوغه هدفه تصبح هذه السيدة أرخص عنده من فردة الحذاء . . . وأقول لكل الأزواج : إن قليلاً من الاهتمام بالزوجات وشيئاً من الرقة والحنان والذوق الذى يتعامل به مع الأخريات سيكون له مفعول السحر فى نفس زوجته . . . أما أنا فإنى نادمة نادمة حتى النخاع . . . والسلام .

●● ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

هناك مثل فرنسى قديم يقول :

لا يُعجب بفستان امرأة . . . مَنْ يدفع ثمنه !

وإنما يعجب به دائماً ويبرع فى التعبير عن هذا الإعجاب من لا يكلفه إعجابه به سوى الكلمات السهلة التى لا تترتب عليها أى التزامات .
وقد يكون من مفارقات الحياة التى تستحق التأمل أن من يعجب بفستان امرأة «أى جماها» قد يغفل فى الوقت نفسه عن إظهار إعجابه بفستان زوجته أو جماها ! . . .

ومن هنا تأتى المفارقة التى تخدع أبصار البعض أحياناً حين تقارن الزوجة بين ندره كلمات الغزل والإعجاب بجماها التى تسمعها من زوجها، وسخاء وشاعرية كلمات الطرف الخارجى فى التعبير عن إعجابه بجماها ورقتها وأناقتهما إلى آخر هذه المعزوفة الشيطانية التى تدير بعض الرؤوس .

ومع أن الأفضل والأمثل دائماً هو أن يتبادل الزوجان التعبير عن الحب والإعجاب بالكلمات والأفعال ، وليس بالأفعال وحدها كما يفعل البعض . . إلا أن اكتفاء بعض الأزواج بالتعبير العملي الصامت عن الحب والإعجاب لا يبرر للزوجة الاستئمامة لكلمات الغزل ممن يحاولون غزو حصونها ولا يجدون ثغرة ينفذون منها إليها إلا بمثل هذا الغزل الحقيقير. ولا يبرر كذلك بخل بعض الزوجات بكلمات الحب على أزواجهن لهؤلاء أن يطربوا لكلمات الإعجاب الشاردة التي قد يسمعونها من الأخريات ، وبينون عليها حساباتهم وعلاقاتهم مع الأطراف الخارجية . كما لا يبرر عقم حديث بعض الأزواج مع زوجاتهم واقتصاره على شئون الحياة اليومية والشئون الأسرية لأحد أن ينخدع بمثل هذه المقارنة الظالمة بين «رقة الآخرين» و«تحفظ الشركاء» . . أو خلوّ أحاديثهم من الكلمات الشاعرية ، لأنهم إنما يتعاملون مع الصورة الخارجية لهؤلاء الآخرين ولا يتعاملون مع أعماقهم وسرائرهم وشخصياتهم الحقيقية ، ذلك أن العشق أسهل ألف مرة من الزواج - كما كان يقول الأديب الفرنسي «بلزاك» - لأنه يتطلب منك أن تكون لطيفاً بعض الوقت . . أما الزواج فإنه يتطلب منك أن تكون لطيفاً كل الوقت وفي كل الأحوال والظروف ، وهو مالا يقدر عليه أحد!

فإذا اضطررنا للتعامل مع هؤلاء الآخرين - كل هؤلاء الآخرين - كل الوقت وعلى مستوى العمق وليس على مستوى السطح . . فلا أحد يضمن ألا يكون هذا اللطف قناعاً مؤقتاً يسقط عن وجوههم عند أول

اختبار ، كما سقط قناع الرقة والحنان واللطف عن وجه طبيبك الشاب ،
فأسفر عن قسوة وأنانية وخسة في التعامل لا تقارن بها كل أخطاء زوجك
- إذا كانت له أخطاء تستحق التوقف عندها .

وجوهر الخطأ في قصتك هذه هو أنك قد استمررت في التردد على
عيادة هذا الطبيب بعد أن غازلك غزلاً صريحاً مُردِّداً على مسامعك
أنشودة أنه كان يتمنى لو كنتِ غير متزوجة لكي يفوز بكِ دون العالمين !
أما تبريرك لاستمرارك في التردد عليه بعد أن غازلكِ بأنكِ قد ألفتِ
سماع كلمات الإعجاب بجمالكِ دون أن تدير رأسك وتنسيك التزاماتكِ
كزوجة وأم ، فهو تبرير خادع وليس صادقاً . . لأن المرأة المتزوجة التي
ترغب حقاً في أن تنأى بنفسها عن الإغراء والخطأ هي التي تقطع صلتها
بحسم بمن غازلها غزلاً مكشوفاً أو مستتراً ، إذ إن استمرار هذه الصلة
بينها وبينه بعد إعلان الإعجاب والهيام لا يعنى لمن غازلها سوى أن
مقاومتها قد بدأت تتأثر بالفعل بأنشودة الغزل التي أنشدها لها ، وأن
المسألة ليست في النهاية سوى مسألة زمن يطول أو يقصر ثم تنهار
حصونها . . وقد تساعد ظروف طارئة في حياتها على الإسراع بهذا الانهيار
كما حدث معكِ حين اشتدتِ خلافاتكِ مع زوجكِ ، ووجدتِ نفسكِ
تطربين لسماع هذه الكلمات التي رفضتها في البداية رفضاً لينا يشجع على
استمرارها وليس توقفها ، ثم بدأتِ تستمرئين سماعها وتذهبين إلى عيادة
هذا الطبيب وأنتِ في كامل جمالكِ وأناقتكِ لكي تطلبى المزيد منها !

ولا عجب في ذلك لأنك قد خطوت الخطوة الأولى على الطريق المنحدر حين رجعت لعيادة هذا الطبيب مرة ثانية بعد أن سمعت منه كلمات الغزل والهيام ، ولأن للمديح والإطراء أثر السحر في نفوس البشر مهما تصوروا في أنفسهم القدرة على عدم التأثر بهما .

ولقد قال حكيم عن أحد الأشخاص الذين يتظاهرون بالفضل :
أستطيع أن أحول هذا المغرور إلى مجنون خلال شهر واحد ! . فقيل له :
كيف ؟ . . فأجاب : بالمديح والتملق ! . . كما كان الإمام أحمد بن حنبل
رضى الله عنه يبكي إذا حدّثه البعض عن افتتان الناس به ، ويقول :
هذا استدراج . . أي هذا استدراج من القائل له لكي يعجب بنفسه
فيفقد بعض تواضعه ورشده .

أما أنتِ يا سيدتي فلقد استسلمتِ لهذا «الاستدراج» حتى ضعفتِ
مقاومتكِ تدريجيًّا وانهارت حصونكِ ، وتكشفتِ لكِ الحقيقة المؤلمة . .
فإذا كنتِ ترغبين حقًّا في محو هذه البقعة السوداء من ثوبك فلا سبيل
لذلك سوى بلوِّم النفس على ما أوردتكِ إليه من موارد التهلكة والندم
الصادق على ما فعلتِ والكف عنه ، وعقد النية على ألا ترجعي إليه
أبدًا . . ومع كثرة الاستغفار ، والالتزام بالطريق القويم والتكفير
الصادق عما حدث ، يتطهر الثوب تدريجيًّا مما علق به . . ويصح لك
عندها التفكير في مستقبل علاقتك بزوجك .





جَنَى الثِّمَارِ

أنا سيدة متزوجة منذ عشرين عامًا . . نشأت في أسرة «فاشلة» بسبب سوء العلاقة بين الأبوين ، فأورثني ذلك الإصرار على النجاح في حياتي ، وفضلتُ منذ صباى الاعتماد على عقلي أكثر من عاطفتي .
و حين بلغتُ سن الشباب اخترتُ ممن تقدموا لي شابًا يتميز بالرجولة والشهامة والحنان ، ويعرف دينه ، وله أخلاقياته الكريمة ، ويتمتع بحب مَنْ حوله . . وتزوجنا . . فكان عند حسن ظني به ، وأصبح لي الزوج والحبيب والصديق والأب .

ومشكلتى الوحيدة معه كانت تتمثل في أنني لا أحسن التعبير عن الحب بالكلمات ، فعوضتُ ذلك بالتعبير عنه بالأفعال ، وباهتمامى الشديد بزوجى وبكل شئونه . . كما صبرتُ على صعوبات البداية وعثراتها حتى توصلتُ معه إلى علاقة دافئة اعتبرتها - من جانبى - ناجحة تمامًا ، وأعجب بها أهله قبل أهلى وراحوا يشيدون بحميمية العلاقة بيننا وبالإيثار المتبادل بينى وبينه .

ولقد وجدتُ فيما أسمعُه وما أقرأه في «بريد الجمعة» أن معظم الأزواج يشكون من أنهم يرجعون إلى بيوتهم مرهقين من عناء العمل والحياة فيجدون زوجاتهم في انتظارهم بالمزيد من العناء ، ويلقن على أكتافهم مشاكل البيت والأبناء . . فحاولتُ ألا أفعل ذلك ، وأن أبذل كل جهدي لحل مشاكل البيت والأبناء قبل عودة زوجي إلى بيته . لكيلا أضجره بها . . كما رأيتُ ولمستُ كذلك أن بعض الأزواج والزوجات لا يسرعون بتصفية المشاكل الصغيرة التي قد تنشأ بينهم ، فيؤدى ذلك إلى تراكمها وإلى ابتعاد المسافات بينهم بدلاً من اقترابها . . فحرصتُ على أن تكون لنا من حين لآخر جلسة للمراجعة ، نقوم فيها - أنا وزوجي - بتصفية الخلافات الصغيرة بيننا ، ويُخرج كل منا من صدره ما يضايقه من الآخر ، فيتم التصافي وتقرب المسافات .

كل ذلك إلى جانب وضعي لزوجي على قمة أولوياتي واهتماماتي ، فشعرتُ بأن الدنيا قد عوضتني بزوجي حقاً عن كل ما افتقدته في حياتي السابقة من حنان ، ولم أشعر من ناحيته إلا بكل إخلاص وتفان في إسعادى ، حتى فكرتُ ذات يوم في أن أكتب لك عن تجربتي الناجحة في الحياة الزوجية لتستفيد بها غيرى من الزوجات والمقبلات على الزواج . . لكننى شعرتُ منذ فترة - بإحساس الزوجة - أن هناك شيئاً قد تغير في زوجي ، فلقد أصبح يثور كثيراً - وهو المعروف بهدوء الطبع - ويتذرع بالحجج الكثيرة للخروج من البيت . . كما أن لغة الحوار قد توقفت بيننا وابتعدت المسافات . . ولأننى أعرف كل خلجة من خلجاته ، فلقد تيقنتُ من أن هناك شيئاً ما قد طرأ عليه ولا بد لي من اكتشافه .

وواجهتُ زوجي بأفكارى . . فإذا به يعترف لى - بلا مراوغة - بأن هناك امرأة أخرى ! كيف . . ولماذا . . وماذا حدث ؟ . . سألته عن كل ذلك وأنا ذاهلة ، فإذا به يقول لى : إنه «النصيب» ، وإنه وجد نفسه متعلقًا بأخرى !

ولأننى - كما قلتُ لك فى البداية - أوثر الاعتماد على العقل أكثر من العاطفة ، فلقد استغربتُ أن يفعل الإنسان شيئًا لا يستطيع تبريره أو الدفاع عنه ، وحاولتُ أن أعرف من زوجى أسباب ما فعل ، فإذا به يتحدث عن أخطاء لى ، ويعتبرها مبررًا لهذا التحول الطارىء عليه . . ويكفى أن أقول لك عن هذه «الأخطاء» : إن آخرها حدث منذ خمس سنوات ، ولا يعدو الأشياء البسيطة التى تحدث بين أى زوجين . . وإن من هذه الأخطاء أيضًا ما كنتُ أظنه أنا فى سجل مميزاتي ، فلقد اعتبر محاولتى الدائمة لعدم الضغط عليه بمشاكل الأبناء والبيت خطأ من هذه الأخطاء ، وشكا من أنه قد بدأ يشعر بعدم أهميته فى البيت ، وبأن الأبناء قد أصبحوا يعتمدون علىّ فى حياتهم فقط دونه !

وقررتُ أن أسلك الطريق الصعب وأستمر فى محاوره عقله على الرغم مما يعتصرنى من الألم ، وقلت له : إذا كان قد كرهنى فمن الأفضل لى وله أن يدعنى لحالى ويسرحنى بإحسان . . فإذا به يرفض ذلك رفضًا قاطعًا ويقول لى : إنه لا يستطيع الاستغناء عنى ولا أن يتنفس هواء لا أتنفسه أنا ، وإنه سوف يحتفظ بى للنهاية ولو كان ذلك ضد إرادتى ! وكان المنطقى بعد أن أسمع منه هذا الجواب أن أطلبه فى الحال بترك الأخرى ما

ولا مالا ، ولم تحسن معاشرة زوجها ، ولم تُجِد معها محاولات الإصلاح ،
فبحث زوجها عن أخرى وتزوجها حلاً لمشكلته مع الأولى ؟!

وإذا لم يكن هناك فارق بين الزوجتين - في مثل هذه الحالة - فلماذا
إذن تسعى المرأة لكي تكون زوجة صالحة إذا كانت النتيجة واحدة في
النهاية - وهي تَعَلُّ الرجل بالحق الشرعي في الزواج من غيرها ؟!

ثم أريد في النهاية أن أسأل تلك الغافلة : ألا تعلم هي حقاً أن مَنْ
عاشر زوجته عشرين عاماً لم يَشْتَكِ منها خلالها ، وكان دائم الإشادة بها
في كل مناسبة حتى ظهرت هي في حياته . . . أسأل هذه الغافلة : هل
تتوقع حقاً أن يستمر زواجها بمثل هذا الرجل ؟ . . . وهل تتصور أنه لن
يجيء الوقت الذي يشعر فيه بالحنين لزوجته وأسرته ؟ . . . وهل تظن حقاً
أن ما يشعر به تجاهها ليس سوى رغبة رجل يحس بأنه يريد امرأة إضافية
لنفسه متعللاً في هذه الرغبة بالرخصة الشرعية في الزواج الثاني ؟!

وبماذا أنصح ابنتي يا سيدي عند الزواج ؟ . . . هل أنصحها بأن تكرر
ما فعلته أنا وتختار شاباً يحبها وله أخلاقياته وتدينه ومبادئه ومستقبله
الذي يبشر بالخير كوالدها ، فتكافح معه بضع سنوات وتتحمل عناء
البداية والسنوات العجاف إلى أن تبدأ في جنى ثمار الكفاح ؟ . . . أم ترى
أنصحها بالألا تتعب نفسها في الكفاح والصبر ، وبأن تنتظر رجلاً حان
وقت قطف ثماره ، فتشارك زوجةً أخرى مُكافِحةً في جنى هذه الثمار ، أو
تستأثر به دونها كما تفعل الآن هذه الأخرى التي كدّرت سماء حياتي ؟ . . .

إنني حائرة ومتخبطة . . . فماذا تقول لي ؟

●● ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

أقسى من الألم أن تضطرنا الظروف القاسية - في بعض الأحيان - إلى التجاوز عن آلامنا لكي نتناقش بصبر وموضوعية مع مَنْ صنعوا لنا هذا الألم ، ونحاول إقناعهم بالعدول عما يفعلون بنا ، ونتحمل مجادلاتهم وادعاءاتهم لتبرير ما فعلوا بنا .

ولأن الحياة ليست في كل الأحوال نزهة شاعرية في نهر هادئ الأمواج ، فمن واجبنا أن ندرب أنفسنا على تجاوز «الألم» في بعض الأحيان إلى مناقشة صانعيه في أسباب إيلاهم لنا ، وكيفية عدوهم عما يؤلموننا به ، وكأننا نتحدث في ذلك عن مشكلة صديق نهتم بأمره وليس عن آلامنا الشخصية وتعاستنا الخاصة .

ولقد لفتَ انتباهي في رسالتك وأنتِ تناقشين مع زوجك أسباب رغبته في الارتباط بأخرى - على الرغم من خلو علاقتهما الزوجية من أسباب واضحة للشكوى أو التعاسة - أنه قد بدأ المناقشة بتعليل ذلك في البداية بـ « النصيب » جرياً على عادتنا نحن البشر في نسبة نزواتنا وأخطائنا وضعفنا البشري إلى قوى غيبية غامضة تبدو معها ، وكأننا مسيرون فيما نفعل رغماً عنا ولسنا مخيرين فيما نختاره لأنفسنا من اختيارات . . . وحين لم يكفِ هذا التبرير القدرى لإقناعك - وهو غير مقنع بالفعل - فلقد راح يسترجع مايعتبره من أخطائك ويبرر به تحوله ووقوعه في هوى تلك الأخرى .

والتماس الأخطاء للآخرين حيلة نفسية معروفة لتبرير إساءة المرء لهم ،

وكانها يريد بذلك أن يعفى نفسه من الإحساس بالذنب تجاههم بادعاء أن الآخرين يستحقون ما ارتكبه ضدهم من إساءات . . . وبالتالي فلا لوم عليه فيما فعل ولا تثريب ، وكلتا المحاولتين خاطئتان وظالمتان بكل تأكيد، فتعليق أخطائنا ونزواتنا وبدوات أنفسنا على «النصيب» محاولة فاشلة للزعم بانعدام الإرادة فيما نفعل ونختار ، وهو ما يتنافى حقاً وصدقاً مع الواقع والحقيقة في معظم الأحيان .

ومحاولة التماس الأخطاء لك ، دوافعها النفسية واضحة ومفهومة . . . وهى ميل الإنسان الغريزي للثناء لنفسه . . . وتفضليه في كثير من الأحيان لأن يعتبر نفسه ضحية للغير وليس جانياً عليهم . وخطورة الغدر ممن لا يتوقع منهم الإنسان إلا الوفاء هو أنه يهز القيم والمثل في نفس المغدور به ، وأنه يشككه في جدوى التزامه بالمبادئ والقيم التى يرى نفسه ملتزماً بها . . . ولهذا فمن العدل أن نتعامل مع الخطأ باعتباره تصرفاً فردياً أو نزوة عابرة ترجع فى أسبابها إلى ضعف مرتكبها وليس إلى عيب فى هذه المبادئ ، فلا يغير ذلك ثوابتنا الأخلاقية ، ولا يفقدنا الإيمان بخيرية المبادئ القويمة والقيم المثلى . . . ولهذا فلسوف تجدى نفسك يا سيدتى - بالضرورة وليس بالاختيار - تنصحى ابنتك بأن تكرر قصتك أنتِ مع الزواج وليست قصة الأخرى قاطفة الثمار ، لأنها المثل السوى الذى ينبغى تكراره مهما اعترض الحياة من عثرات وهفوات . . . ولسوف تجدى نفسك مطالبة بإعلاء نفسك ومثلك وأفكارك عن الحياة الزوجية السوية لديها . . . من الارتباط بشاب مناسب لها فى السن والكفاح معه ، وتحمل

صعوبات البداية حتى يؤتى زرعها حصاده وتستمتع بثمراته ، ولن يغير من ذلك شيئاً أن والدها قد فاجأك بعد ٢٠ عاماً من العشرة الطيبة بوقوعه في هوى أخرى ورغبته في الجمع بين الحُسْنَيْنِ في حياته : زوجته الأولى وحياته المستقرة معها ومع أبنائه ، و «هواه» الجديد وارتشاف الرحيق الموهوم فيه بالطريق المشروع . . ولا عجب في ذلك لأن نهجك في الزواج هو القاعدة ، ولأن رغبة زوجك في التمتع بأخرى - بلا أى مبررات جادة أو نقص يشكوه في حياته معك - هو الاستثناء ، وسيظل كذلك إلى أبد الأبدين .

ولقد قلتُ مراراً : إن «الحلم المستحيل» الذى يراود كل زوج يقع في هوى امرأة أخرى - أو يتوهم ذلك - هو أن يحتفظ بزوجه الأولى وحياته معها واستقرار أبنائه في كنفها ، ثم يمرح هو كيفما يشاء مع زوجته الجديدة ، زاعماً لنفسه أنه يحقق العدل بينها وبين زوجته الأولى ورفيقة كفاحه ، ومطمئناً إلى أن أسرته الأولى لم تنهدم بالانفصال ، وأن استقرار الأبناء وسعادتهم لم يتأثرا بزواجه «العاطفى» الآخر . . ولهذا فهو يكافح حتى الرمق الأخير لكى لا يكون ثمن استجابته لنداء العاطفة أو المغامرة هو تهدم أسرته الأولى وتمزق أبنائه بينه وبين زوجته ، ولا يتخلى عن الأمل فى أن ينجح بكل الحِيلِ فى إقناع زوجته الأولى بالاستمرار ، زاعماً لها أنه لا يستطيع الاستغناء عنها ، أو أنه لا يقدر على ألا يتنفس الهواء الذى تتنفسه - كما يقول لكِ زوجك .

ولا شك فيما يحمله هذا الزعم من تناقض غريب لا يتفق مع المنطق

ولا مع الطبيعة البشرية، لأن من لا يقوى على مفارقة زوجته لأسباب عاطفية وليس لحاجته إليها لرعاية أبنائه والحفاظ على كيان الأسرة، ينبغي له ألا يقدر كذلك - إذا كان صادقاً في زعمه - على إيلاء زوجته وإشراك امرأة أخرى لها في مشاعره واهتماماته وحياته، ولهذا فإن نصيحتي لكل من تواجه هذا الموقف العصيب هي ألا تسلم نفسياً بقبول هذا الوضع الذي يرغب زوجها في فرضه عليها لكي يقلل من فاتورة الخسائر العائلية بسبب زواجه الآخر، وأن تتمسك بالرفض النفسى لذلك حتى ولو آثرت تغليب اعتبارات الأبناء على اعتباراتها الشخصية، وفضلت الاستمرار مع زوجها حمايةً لأبنائها، واحتفاظاً بحقها المشروع في ألا تنسحب من الأرض التي روتها بعرقها ودموعها وتخليها طائعة لمن لم تظهر في الأفق إلا في موسم الحصاد!

وكثيرات هن من يرجحن مصلحة الأبناء على الكرامة الشخصية والاعتبارات العاطفية، لكنهن يتمسكن في الوقت نفسه بالرفض النفسى لما يرغب شريك الحياة في فرضه عليهن بشتى الحيل والمزاعم، إلى أن يكتشف الزوج زيف المغريات ويرجع نادماً إلى من أساء إليهن. . فإذا كان لى أن أضيف إلى ما قلت شيئاً، فلعلنى أقول فقط: إننى قد توقفتُ خلال سردك لقصتك أمام ما قلتِ عن نفسك من أنك كنتِ تواجهين مع زوجك مشكلة أنك لا تجيدين التعبير عن الحب بالأقوال، وتؤثرين التعبير عنه بالأفعال وحدها وباهتمامك بزواجك، ووضعه دائماً على رأس أولوياتك واهتماماتك، ويتسق ذلك مع ما قلتِ في موضع

آخر من أن ظروفك العائلية قد أورثتك إيثار الاعتماد على العقل أكثر من العاطفة . .

ولا شك في أن الاعتماد على العقل في تصرفات الإنسان واختياراته أمر مطلوب دائماً ، ولكن دون إهمال في نفس الوقت لدور العاطفة في حياته ، وإلا خَلَّتِ الحياة من بعض مباحجها ومن كثير مما يجعل الإنسان إنساناً . . وكذلك فإن التعبير عن الحب بالأفعال والتصرفات أمر إيجابي ومرغوب بالفعل ، لكن ذلك لا يبرر أبداً إغفال التعبير عنه كذلك بالكلمة الرقيقة واللفتة الحانية ، وإلا ظن الشريك في شريكه جمود العاطفة وجفاف القلب .

ونفس الشيء يمكن أن يقال عن شكوى زوجك من أن الأبناء قد أصبحوا يعتمدون في حياتهم عليكِ دونه ، وأنه لا يشعر بأهميته لدى أبنائه وفي بيته ، فالحق أن دوافعك لعدم إرهابك زوجك بمشاكل الأبناء والبيت كانت دوافع مخلصه تهدف إلى التخفيف عن كاهله بدلاً من إثقاله بالمتاعب الأسرية . . لكن المثل الإنجليزي القديم يقول لنا أيضاً: «إن الطريق إلى الجحيم قد يكون مفروشاً في بعض الأحيان بالنيات الحسنة»! . . وبالتالي فلقد كان من حسن الإدراك والفهم أيضاً ألا تتجاوز رغبتك في التخفيف عن زوجك الحدود الآمنة لها ، فتبدو في نظره وكأنها «إبعاد» له عن شئون أبنائه وبيته وليس إشفاقاً عليه من إثقاله بها . . وكان من حسن الإدراك كذلك ألا يشعر الزوج أبداً بأن الحياة في بيته تدور حول محور آخر سواه ، مهما كانت نية هذا المحور الآخر طيبة

ودوافعه نبيلة . . . ومن هذا القبيل أيضًا ألا يشعر الزوج والأب أن أبناءه ليسوا قريبين منه بنفس درجة قربهم من أمهم ، وأنه لا يواجهه في حياته العائلية حربًا خفية مع شريكة حياته لاستقطاب أبنائها إليها وليس إليه . . . فلماذا لا تناقشين كل ذلك مع زوجك من جديد ؟ ولماذا لا توصلين جهادك المقدس للاحتفاظ به لنفسك وأبنائك دون الأخرى ؟ . . . إن الأوان لم يفت بعد لتعديل الأفكار وتصحيح المسار ومقاومة الغزاة . . . فلماذا لا تكررين المحاولة مرة أخرى ؟



الأرض المشتعلة

منذ ثلاث سنوات كتبتُ إليك رسالة من سلسلة رسائل «النكد» الزوجي التي كنت تنشرها في ذلك الوقت ، وشكوتُ لك من تصرفات زوجتي «النكديّة» التي تجعل حياتي معها غير محتملة ، وكيف أنها تهوى البكاء في كل مناسبة ، سواء لمرض أحد أفراد أسرتها أو لأنني انتقدتها في شيء عابر من شؤون الحياة اليومية . . فإذا لم تبكِ تعمدتُ استفزازي بإجبار طفلتنا على الصراخ والبكاء بإرغامها على تناول الطعام قسراً ، أو بحرمانها من اللعب عقاباً لها على أي خطأ . . هذا إلى جانب اعتبارها كل تصرف من تصرفات أهلي تجاهها إهانة لها ، وبعد كل زيارة منهم لنا تلقنني محاضرة في حقوق الزوجة ، وكيف أن واجب الزوج هو التربص لكل بادرة يشتم منها رائحة الإساءة إلى زوجته ، فيهب ممتطياً حصانه وشاهراً سيفه في وجوه أهله ، إلى آخر ما ذكرتهُ لك في حينه .

وقد قرأتُ ردك على رسالتي ورسائل غيري من الأزواج الذين شاركوا في مسلسل النكد الزوجي ، فوجدتُك - بالرغم مما ذكرتهُ في ردودك عن

تأثير هذا السحر اللعين للنكد على الحياة الزوجية - تدعوني وغيرى من ضحايا النكد الزوجى إلى الصبر والتضحية من أجل أطفال لا ذنب لهم فى شىء ، ومحاولة التكيف مع الأمر الواقع ، والتقليل بقدر الإمكان من أثر هذا السحر اللعين على الحياة الزوجية . . إلخ .

لكنى رغم اقتناعى بما قلتُ لم أستطع مواصلة الاحتمال ، وحسبْتُ أمرى على الانفصال عن زوجتى ، وطلب منى والدها التروى قبل اتخاذ هذا القرار من أجل طفلتى التى أحبها وتحبنى كثيراً . . لكنى سددتُ أذنى عن النصيحة وتم الانفصال . . وبدأتُ أبحث عن عروس أخرى وأحلم بالسعادة والهناء معها .

وبعد ستة أشهر من الانفصال كنتُ قد ارتبطتُ بفتاة أخرى رشحتها لى أسرتى وتزوجتها ، وأمِلتُ أن أجد سعادتى وهدوء بالى معها ، وبعد شهرين من الزواج علمتُ أن مطلقتى قد وضعتُ طفلى الثانى وأنها كانت قد أخفتُ عنى حملها عند الانفصال لكيلا ترغمنى على العودة إليها مضطرا . وأصارحك القول بأن مشاعرى لم تتحرك فى ذلك الوقت لرؤية وليدى الجديد، ربما لأن أمه كانت قد أقامتُ ضدى دعوى نفقة للطفلين بالرغم من أن والدها ميسور الحال . . وتصورتُ - كما أقنعنى بذلك الجميع - أنها تصر على ملاحقتى بالنكد حتى بعد انفصالنا، وتمنيتُ أن أنسى كل ما جرى فى حياتى السابقة ، وأن تعوضنى عنه زوجتى الجديدة، لكنى وجدتها بعد شهر قليلة من الزواج تضيق بمشاكلى وأحزانى ، ولا تحتمل ظروفى المادية الجديدة التى فرضتها على

الظروف مؤقتًا بسبب تكاليف الزواج الجديد، ودفع مستحقات الزوجة السابقة، بل وجدتها كذلك لا تحمل أى نقد ولو كان رقيقًا لأى تصرف من تصرفاتها ، وإنما تثور على ثورة هائلة وتفقد سيطرتها على لسانها ، فتوجه لى أفضع السباب ، ولربما قذفتنى كذلك خلال انفعالها بأى شىء تجده أمامها من الأدوات المنزلية .

وخلال ذلك توفى أبى إلى رحمة الله وأصبحتُ أمى وحيدة فى مسكنها، وقبل أن أفكر فى فعل أى شىء للتخفيف عنها، وجدتُ زوجتى ترفض بإصرار إقامتها معنا ولو لفترة مؤقتة عقب الوفاة ، وتضعنى فى حرج شديد أمام إخوتى وأهلى ، فى الوقت الذى جعلتُ فيه من بيتى أرضًا مشاعًا لكل أقاربها - حتى الدرجة الثالثة - يأتون إليه فى أى وقت ، وترحب بهم فى كل حين . . وحرمتُ بيتى فى المقابل على أهلى ، ومن يغامر بزيارتنا وتفلتُ منه - ولو على سبيل المزاح - كلمة تعتبرها إساءة لها ، يكون مصيره الطرد بلا رحمة .

وتساءلتُ : أين السعادة التى بحثتُ عنها وهجرتُ من أجلها زوجتى الأولى وأطفالى ؟ . . وتراكم الإحساس بالمرارة فى أعماقى ، لكنى تحملتُ كل شىء خوفًا من الفشل الثانى فى الزواج ، ومن شهامة زوجتى السابقة .

وفى أحد أيام شهر رمضان الماضى توجهتُ لأحد المساجد الكبرى لأداء صلاة التراويح ، فبكيْتُ فى صلاتى وأنا أتذكر طفلتى الحبيبة وطفلى الذى قارب على العام الأول من عمره، ثم هممتُ بمغادرة المسجد

بعد الصلاة ، فوجدتُ والد مطلقتي أمامي ، ولما اتجهتُ إليه لأحييه أشاح الرجل بوجهه عني ، لكنني لاحقتهُ وتوسلتُ إليه بالمكان الطاهر الذي يجمعنا وأيام الشهر الفضيل الذي نعيشه أن يسمح لي برؤية طفلي . . . وتحملتُ صابراً جرحه لكرامتي وهو يذكرني بأن الأبناء ليسوا فقط زينة الحياة الدنيا ، وإنما هم أيضاً مسئولية كبرى لا يصح التنصّل منها أو التخلي عنها ليتحملها عنى الآخرون ، ووافق في النهاية على أن أراها . . .

توجهتُ معه إلى البيت ، وشعرتُ حين رأيتهما بالسعادة والحزن في الوقت نفسه . . . السعادة لرؤيتهما ، والحزن لحرمان نفسي من الاستمتاع بقربهما وملاحظة مراحل نموهما عن قرب . . . وغلب الحزن على السعادة في قلبي حين رأيتُ طفلي الجديد وهو يخطو خطواته الأولى وينظر إليّ في ترقب وشك ولا يعرفني للأسف .

ورجعتُ إلى «وكر النكد الحقيقي» ، وحمدتُ الله حين وجدتُ زوجتي نائمة ، فلما تهيأتُ للنوم إذا بالعاصفة تهب على غير انتظار ، وإذا بزوجتي تصحو من نومها وتنفجر فيّ بسيل من الكلمات البذيئة لأنني لم أستأذنها في التأخر عن العودة للبيت ، وإذا بها أيضاً تقذفني بوسادة تطير كالقذيفة وترتطم بوجهي . . . فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أنهال عليها ضرباً بعد أن نفذ صبري ، وطلقتها . . . ووضعتُ النهاية المحزنة لحلم السعادة والابتعاد عن النكد الزوجي . . . ووافقتُ على تسليمها أثاثها ودياً على أن تبقى في البيت إلى حين انتهاء عدتها .

وتسلم والدها أثاث ابنته ومزق أمامى قائمة المنقولات، وتركتُ لها البيت وانفردتُ بنفسى متسائلاً عما فعلتُ بنفسى وحياتى، فلم يمضِ أسبوعان حتى فوجئتُ بالزوجة الثانية وقد أقامت ضدى دعوى تبديد لأثاث الزوجية . . واكتشفتُ بعد فوات الأوان أن القائمة التى مزقتها الأب لم تكن القائمة الأصلية، وحاولتُ - بالرغم من ذلك - التفاهم معها ودياً لتجنب الوقوف أمام المحاكم، فكان ثمن تنازلها عن هذه الدعوى هو أن أدفع لها مرة أخرى ثمن الأثاث الذى تسلمتهُ بالفعل تأديباً لى على ما فعلتُ.

وراحت أسرتى تلح علىّ فى إعادتها إلى عصمتى لكى تتنازل عن دعوى التبديد بلا شرط، لكننى رفضتُ ذلك وآثرتُ أن أقترض المال لأسدد لها المبلغ المطلوب، ولم تكتفِ - سامحها الله - بذلك، وإنما أصرت عند انتهاء عدتها دون أن أعيدها لعصمتى على ألا تترك البيت إلا بعد إلحاق كل ما تستطيع من ضرر بالشقة قبل مغادرتها : من إتلاف للجدران إلى تكسير النوافذ وأطقم الحمامات . . إلخ . . ورجعت إلى البيت فوجدتهُ خراباً . . وفى غمار ذلك تلقيتُ من عملى إنذاراً بالاستغناء عنى إذا لم أرجع إلى سابق انضباطى والتزامى بمواعيد العمل، بعد أن كثرت أيام غيابى بسبب هذه الظروف .

وبعد انتهاء العاصفة وجدتنى أفكر فى زوجتى السابقة «وعيوبها» التى دعتنى لإنهاء حياتى معها، وبنظرة عادلة هذه المرة للعيوب والمزايا، وجدت أنها إذا كانت تبكى كثيراً لأى شىء أو لمرض أحد ذويها، فقد

كانت على الناحية الأخرى تجلس على الأرض إلى جوارى إذا أصابنى برد عابر . . . وما كنتُ أراه قسوةً من جانبها على طفلتنا ، كان سببه الخوف عليها ورغبتها في توجيهها إلى الصواب . . . وما كنتُ أسمعُه من شكواها من أهلى وثورتها على تصرفاتهم معها ، لم يكن يتجاوز فى النهاية حدود الكلام والغضب المؤقت ، ثم ما كان أسهل إرضائها بعد ذلك بأقل كلمة اعتذار منى ولو كانت ساخرة ، فضلاً عن أنها لم تخرجنى أمامهم مرة واحدة ، ولم تتعمد إهانتهم فى بيتى أو طردهم منه كما فعلت زوجتى الثانية ، بل كانت - بالرغم من كل خلافاتها معهم - توصينى بالبر بهم وصلة رحمهم . . . حتى موقفها منى بعد انفصالنا لم يتجاوز الرغبة المشروعة فى الحصول على حق طفلى منى وإشعارى بمسئوليتى عنها ، لكنها لم تتعمد قط إيدائى أو الافتراء على ظلماً كما فعلت الزوجة الثانية . . . وبعد تفكير طويل رغبتُ بإصرار فى استعادتها والاعتذار لها عن كل ما جرى . . . وسعيتُ إليها أملاً فى أن تكون الأيام قد علمتُنا نحن الاثنين درسها القاسى . . . لكنها رفضتُ مقابلتى ، وذكّرنى والدها - حين فاتحتهُ برغبتى فى استعادة أم طفلى - برسالتى التى أرسلتها إليك ونشرتها فى حينها ، وما ذكرتهُ فيها عن ابنته . . . فقررتُ أن أكتب إليك مرة أخرى . . . ليس فقط لكى تقنعها بالعودة إلىّ ، وإنما أيضاً لكى أرفع عنها الظلم الذى ظلمتهُ لها فى رسالتى السابقة إليك . . . وأرجو ألا تبخل علىّ بمساعيك الحميدة هذه المرة أيضاً لإقناعها بالعودة إلىّ وبدء صفحة جديدة من حياتنا ، لأننى فى أشد الحاجة إليها الآن لكى أتجاوز محتى

. . وأرجو أن تصفح هي عنى . . ويكفيها أننى قد عرفتُ بالتجربة القاسية النكد الحقيقى المدمر خلال زواجى الثانى . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

ليس لَدَى الكثير مما أقوله لك تعقيبًا على رسالتك هذه سوى أنها تقدم لنا مثلاً جديدًا لآفة الإنسان القديمة فى قلة الصبر على ما يشكو منه ولو كان هينًا بسيطًا ، ولميله الغريزى للثناء لنفسه واعتبارها ضحية للآخرين عن طريق تضخيم عيوبهم وتبرئة النفس من كل شبهة عيب أو خطأ من جانبه فى حقهم .

لقد تعجلتَ يا سيدى هدم أسرتك الأولى وحرمان طفلتك الصغيرة منك ومن حقها عليك فى أن تحيا حياة عائلية مستقرة ، لغير أسباب جدية تجعل من الانفصال عن زوجتك الخيار الصعب الذى لا بديل له ، ولا مفر منه . . فكيف كان جزاء؟

لقد أثبتتُ لك التجربة العملية أن كل ما شكوتَ منه - مما اعتبرتهُ من عيوب زوجتك الأولى - كان من الممكن احتمالها والتجاوز عنه أو علاجه ، وفهم دوافعه وأسبابه ، واستجلاء النيات الطيبة وراءه . . كما أثبتتُ لك التجربة أيضًا - والأشياء تعرف بأضدادها - أنه لا وجه للمقارنة بين ما نسبتهُ إلى زوجتك الأولى من عيوب وأخطاء ، وما تجرعتَ آلامه ومرارته الحقيقية مع زوجتك الثانية . . فحتى ما اعتبرتهُ ملاحقة لك بالنكد من

جانب زوجتك الأولى بعد انفصالك عنها لم يكن أكثر من سعى مشروع للحصول على حق عادل لطفليك عليك، ولا يغير من مشروعية هذا الحق شيئاً أن يكون والدها ميسور الحال أو غير ميسور، لأن الحق لا يتقرر بمدى احتياج الإنسان إليه، وإنما بمشروعيته .

ولو كانت زوجتك الأولى قد رغبت حقاً في ملاحقتك بالنكد بعد انفصالك عنها، لما تعففت عن إبلاغك بحملها الثاني لكيلا تكون عودتك إليها - إذا رغبت فيها - اضطرارية وليست إرادية . . بل إنى لأرى أن شرف خصومتها لك بعد الانفصال وعدم ادّعائها عليك بباطل قد كشفنا عن معدنها الأصيل، وحقيقة القيم الأخلاقية السائدة في محيطها العائلي، ذلك أن الفضلاء حقاً هم من لا يخرجهم الخلف والغضب عن التزامهم بالعدل والفضل مع الآخرين، ولو آذاهم هؤلاء الآخرون وافتروا عليهم السوء. فالخلاف هو محك الأخلاقيات الحقيقية للإنسان وليس الرضا والوفاق .

وفي ذلك يقول الشاعر :

مَنْ يَدْعِي الْحِلْمَ أَغْضِبُهُ تَعْرِفُهُ

لَا يُعْرِفُ الْحِلْمُ إِلَّا سَاعَةَ الْغَضَبِ

ويقول الإمام « ابن حزم الأندلسي » :

أَفْعَالُ كُلِّ امْرِئٍ تُنْبِي بِعُنْصُرِهِ

وَالْعَيْنُ تُغْنِيكَ عَنْ أَنْ تَطْلُبَ الْأَثَرَ

فقارنْ إذن نُبْلَ خصومة زوجتك الأولى لك بعد الانفصال ، بفحش خصومة زوجتك الثانية لك عند الخلاف خلال الحياة الزوجية بينكما وبعد انتهائها . . حيث لم تكتف باسترداد أثاثها ، وإنما استأذنتك ثمنه أيضاً بالباطل وتحت سيف التهديد بالسجن وقضية التبديد . . ولم يشفِ ذلك وحده غليلها ، فاتبعت معك سياسة «الأرض المحترقة» التي كانت تتبعها جحافل التتار حين تحرق القرى برمتها قبل الجلاء عنها لكيلا يجد الخصوم فيها أخضر ولا يابس عند دخولها . .

فإذا كان الأفضل دائماً هو ألا يحتاج الإنسان لأن تطحنه التجربة القاسية لكي يعرف أقدار الآخرين ويعترف لهم بفضائلهم ، فإن ما يتعلمه المرء من جحيم التجربة قد يكون في كثير من الأحيان أعمق أثراً في حياته وأفكاره . . لأنه قد دفع ثمناً غالياً لما اكتسبه من حكمة وفهم للحياة . . ويبقى بعد ذلك أن أناشد زوجتك الأولى وأم طفليك الصغيرين ألا تغلق أبواب الرجاء في وجهك . . وألا تسمح لغضبها المشروع لكرامتها بأن يحجب عنها رحمتها بطفليها وعدلها معها الذي يفرض عليها ألا تعاقبها بخطأ أبيها وتحرمها من حقها في الحياة الطبيعية بين أبايها . . وكم من أزواج وزوجات اعترضت حياتهم مثل هذه المحنة . . فلم تمنع إعادة اجتماع شملهم مرة أخرى ومواصلة رحلة الحياة بينهم إلى النهاية المقدورة لها . .

فإذا كانت في حاجة إلى ترضية واعتذار كافيين ، فلا تردد في تقديمها إليها . . واصبر على رفضها العودة إليك بعض صبرك على أذى زوجتك

الثانية لك، لأن لكل إنسان كرامته في النهاية، ومن حق المظلوم أن يسترضيه ظالمه ويصبر عليه حتى تشفى نفسه من مرارتها ويصبح مستعدًا للصفح والسيان، فاذهب إليها يا سيدي مرة ثانية وثالثة . . ولا تتوهم أن مجرد إبداء رغبتك في عودتها إليك بعد كل ما جرى كاف لأن يذيب المرارة التي ترسبت في أعماقها . . وإنما واصل السعى لاستردادها بلا كَلَل . . وتمثّل بقول الشاعر :

إِذَا كَانَ ذَنْبِي كُلَّ ذَنْبٍ فَإِنَّهُ

مَحَا الذَّنْبَ كُلَّ الْمُحْوَمَنْ جَاءَ تَائِبًا

وما أحسب إلا أنها سوف تصفح وتنسى بعد حين . . لأن المعدن الأصيل الذي تبدى في الخلاف ولم يسمح لها الافتراء عليك بباطل ، سوف يتجلى أكثر وأكثر حين تلمس صدق ندمك على إساءتك السابقة لها ، وتغلبها أمومتها الحانية لطفليها على مشاعرها فترجح لديها سعادتها وأمانها على كل شيء بإذن الله .

الحربُ الشرسة

حاولتُ مقابلتكَ أكثر من مرة ولم تسمح الظروف بذلك فأنا طبيب
عمري ٤٥ سنة، وهيئتي وصحتي على ما يرام والحمد لله .

وقد عملت خارج مصر لفترة ثم رجعت إلى بلدي منذ ٣ سنوات،
وتزوجت من فتاة كان عمرها وقتها ٢٥ عاما، وتحمل شهادة من معهد
التعاون التجاري، وذات جمال متوسط، وتقيم بالإسكان الشعبي
بحلوان، وقد تزوجتها لأحمى نفسي من الموبقات وأرعى حدود الله،
غير أنها ومنذ اللحظة الأولى لزواجي منها، راحت تثبت لي كل يوم أنني
قد أخطأت بالزواج منها . . فهي تتناول عليّ بالسب والشتم وتطلب
مني الطلاق في كل مناسبة وتسمعي عبارات مؤلمة من نوع : إنت مش
راجل . . طلقني، أنا مش طايقة أشوف وجهك، إنت أكبر مني بـ ١٧
عامًا . . إلخ . .

وخلال انفجاراتها العصبية هذه تقوم بتحطيم المسجلات والفايزات
والأشياء التي تقع في يدها، ثم تترك بيت الزوجية وترجع إلى أبيها، وكل

ذلك بالرغم من عدم تقصيري معها في كل الجوانب المادية والعاطفية . .
إلخ وحين ترجع إلى بيت والدها يبدأ هو في الاعتذار لي ، ولا أسمع
منه سوى عبارات : «معلّش» . . «أصلها صغيرة في السن» . . إلخ .

وقد مضت الشهور الأولى من الزواج على هذا الحال ، وبعد تسعة
شهور و ١٥ يوماً بالضبط من زفافنا ، وضعتُ زوجتي طفلنا الوحيد ،
وظننتُ أن هذا المولود سوف يجعلها أكثر تمسكاً بحياتنا ، فإذا بها تزداد
شراسة وسوء أدب . . . وبعد ثمانية شهور من ميلاد الطفل ، تركتُ بيت
الزوجية من جديد عقب خلاف مماثل ، وبدأتُ في تحرير المحاضر
وإقامة الدعاوى القضائية ضدّي ، وشن والدها على حرباً شرسة دمرني
خلالها على مدى عام ونصف العام - حتى الآن - في سمعتي ومالي
ومستقبلي ، وأساء إلىّ في عملي الحكومي وفي عيادتي حتى اضطررتُ إلى
بيع العيادة وترك الحي كله ، كما حرمني من رؤية طفلي بالرغم من التزامي
بدفع النفقة الشهرية له ، وأقام عشرات القضايا ضدّي . . . وقد عرضتُ
عليه أكثر من مرة حل الأمور المعلقة بيننا ودياً ، فكان يرفض ذلك دائماً
ويقول : إنه يعرف طريق المحاكم جيداً ، ويعرف كيف يحصل على ما
يريد من خلاله .

لقد خرجتُ زوجتي من بيتي دون إذني منذ عام ونصف العام ،
ونسبتُ إلىّ صفات قبيحة ظالمة ، وأقامت بمساعدة والدها القضايا
ضدّي وحصلتُ على الطلاق . . . لكن القضايا الأخرى مازالت تأخذ
مجراها . . .

والآن ، وبعد كل ما حدث ، فإنها - كما تقول - نادمة على ما فعلتهُ
وتود أن ترجع إلى بيت الزوجية ، ولكن بشرط : أن أوافق على شروط
أبيها! . . . أما شروط الأب للعودة فهي أن أكتب له شيكًا على بياض ،
وقائمة منقولات بضعف قيمة القائمة الحالية .

وكلما التقيتُ بزوجتي وتحديثنا في أمر العودة طلبتُ منها الرجوع إلى
بيت الزوجية ، ولكن بدون كتابة أى شيء فترفض . . . إلا إذا وافقتُ على
شروط أبيها بالرغم مما تقوله من أنها قد تغيرتُ وعرفتُ قيمة الحياة الزوجية
التي لم تترك وسيلة لتدميرها دون أن تتخذها . . .

والآن ، وبعد كل هذه المسيرة ، فإننى أجد نفسى وحيدًا فى مسكنى
بمدينة نصر . . . لا أرى ابنى . . . وقد أنفقتُ ثلاثة أرباع مدخرات العمر
على القضايا وهذه الحرب الشرسة . . . فبماذا تنصحنى أن أفعل ؟ . . . هل
أقبل بشروطها وشروط أبيها وأرجع للحياة تحت رحمة انفجاراتها العصبية
وتهديد والدها لى بالشيك والقائمة ، والقضايا التى يجيد التعامل
معها؟ . . . أم تنصحنى بأن أطوى هذه الصفحة نهائيًا وأبدأ من جديد مع
إنسانة كريمة من أسرة محترمة تقدر الحياة الزوجية وتحافظ عليها ؟

●● ولکاتب هذه الرسالة أقول :

بعض البشر ينطبق عليهم حال أسرة «البوربون» الملكية التى حكمت
فرنسا من عام ١٥٨٩ حتى عام ١٨٣٠ ، فيما عدا فترة الثورة الفرنسية
التي عُزلت خلالها ، ثم رجعتُ للحكم بعد القضاء على الثورة لبضع

سنين أخرى . . فلقد تصور البعض أن ملوكها سوف يستفيدون بعد عودتهم للحكم من أخطائهم السابقة التي أطاحت بهم من قبل ، وسوف يتعلمون درس التجربة ويبدأون عهدًا جديدًا خاليًا من أخطاء الماضي . . فقال المؤرخون : إنهم رجعوا إلى الحكم ، لكنهم لم يتعلموا شيئًا من محنة العزل وإعدام «لويس السادس عشر» وزوجته «ماري أنطوانيت» . . ولم ينسوا أيضًا شيئًا من أحقادهم القديمة على من عزلوهم ، ولهذا فقد فقدوا ملكهم مرة ثانية بعد قليل وانقرضت أسرهم للأبد .

والواضح أن زوجتك السابقة لم تتعلم شيئًا من تجربة النزاع والطلاق وانهيار بيت الزوجية ، وحرمان طفلها الوليد من أبيه لأكثر من عام ونصف العام حتى الآن ، ولم تنس أيضًا شيئًا من مطالبها الظالمة أو مطالب أبيها التي تمارس الضغط عليك للقبول بها ، إذ كيف تقول لك إنها الآن نادمة على ما فعلت ، وعرفت قيمة الحياة الزوجية التي لم تدع سبيلًا لتدميرها وتدمير شريكها فيها إلا واتخذته ، ثم تطالبك بعد ذلك بالعودة على أساس شروطها الظالمة وليس بلا قيد ولا شرط ، وأي ندم هذا الذي لا يغير من الإنسان شيئًا ، ولا يعيده إلى جادة العدل والعقل والصواب؟!!

إنها لم تستفد شيئًا - للأسف - ولم تندم على شيء ، ولو كانت قد تعلمت درس التجربة حقًا لما تمسكت مع أبيها بهذه الشروط المجحفة للعودة إلى عصمتك واستئناف الحياة الزوجية معك ، ولسعت إلى العودة

إليك بلا مطالب متعنتة لكى تهيبىء لطفلها المظلوم معها حياة مستقرة وآمنة فى أحضان أبويه، راجية أن تمسح الأيام ذكرى هذه الفترة العصبية من حياتك وحياتها، وأن يذيب الزمن مرارة هذا الفحش فى الخصومة الذى مارسته معك طوال الفترة الماضية .

إنه ليس ندمًا . . . لكنه حيلة أخرى لقهر إرادتك وإرغامك على القبول بأن تحيا معها تحت ظلال سيف الشيك وقائمة الأثاث الوهمية فى يد أب يفخر بأنه يعرف طريق المحاكم، ويعرف كيف يحصل بواسطتها على ما يريد! . . . والحياة فى ظلال الخوف وتحت سيف مشهر يمكن استخدامه فى أى خلاف عابر لا يمكن أن تكون حياة طبيعية ولا آمنة، وإنما هى نوع من القهر لا يرضاه الإنسان الحر لنفسه . . . فإن عجبتُ لشيء فإنى أعجب لهذه الظاهرة الجديدة التى أقرأ عنها الآن كثيرًا فى رسائل القراء، وهى تفنن بعض الآباء فى محاولة تكبيل زوج الابنة بالقيود والسلاسل وإرغامه على توقيع شيكات مفتوحة على بياض، أو على قوائم وهمية لأثاث لم يدفع الأب ثمنه، وكل ذلك بدعوى توفير الأمان لابنة وضمان حقوقها المادية لدى زوجها عند الخلاف . . . فأى أمان هذا؟! . . . وكيف تستمر حياة زوجية سليمة تحت ظلال التهديد بالشيكات الموقعة على بياض وشبح قضايا التبديد والسجن؟! . . .

إن ديننا الحنيف يرشدنا إلى السبيل القويم للتعامل مع الحياة الزوجية

وهو : ﴿ فَاِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ اَوْ تَسْرِيحُ بِاِحْسَنٍ ﴾ (١)

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٢٩ .

والتسريح بإحسان هو أن يعطى الرجل مطلقته - بغير مماطلة أو
منازعة - مؤخر صداقها ومنتعة الطلاق وينفق عليها خلال عدتها،
ويؤدى إليها بقية حقوقها المادية من أثاث وممتلكات خاصة بها بغير أن
يعضلها فى ذلك أو يجرمها من شىء منه، وأن يؤدى راضياً نفقة أبنائه
منها بما يتناسب مع دخله المادى ومستواه الاجتماعى والعائلى، وليس
أقل من ذلك. . فأين ذلك مما يجرى الآن بين البعض حين يتحولون بعد
حياتهم المشتركة إلى خصوم ألداء يتفنن كل منهم فى محاولة إعضال الآخر
وسلبه ما لا حق له فيه؟!!

يا صديقى ، إننى أفضل بالطبع أن ترجع زوجتك إلى عصمتك ،
وأن يأوى طفلك الوليد إلى ظلال أبويه ، ولكن ما تطالبك به زوجتك
السابقة ووالدها لا يرضى به شرع ولا قانون ، فإذا كانت قد ندمت على
ما فعلت حقاً وتعلمت شيئاً من درس الانفصال ، فلترجع إليك بلا
شيكات ولا قوائم وهمية ، وبما يحفظ لها فقط حقها المشروع لديك فى
أثاثها الحقيقى - وليس الموهوم - وبصداق عادل لا مغالاة فى عاجله أو
آجله ولا استغلال . . فإن لم تقبل بذلك - ولن تقبل به غالباً هى ووالدها
خبير المنازعات القضائية - فاطو هذه الصفحة المؤلمة من حياتك للأبد ،
وَلْيَتَوَلَّ اللهُ بِرَحْمَتِهِ أَمْرَ طِفْلِكَ الْوَلِيدِ مِنْهَا . . وابحث لنفسك عن شريكة
حياة أخرى تنسيك هذا العناء ، وتعوضك عما لقيت فى هذه الزيجة من
أهوال وبلاء .

السُّوَكَةُ الْقَوِيَّةُ

قرأت رسالة «الحرب الشرسة» للطبيب الذي يروى عن معاناته مع زوجته السابقة والحرب الشرسة التي شتتها عليه حتى نالت منه ما لا حق لها فيه ، فأثارت هذه القصة شجوني ودفعتني لأن أروى لك قصة حرب مماثلة كنتُ أنا قائدها لا ضحيتها . .

فأنا مهندسة شابة على قدر من الجمال ، نشأتُ في أسرة متوسطة ، وكنتُ أول طفلة في عائلتي ، فتمتعتُ بعطف الأسرة وتدليلها الزائد لي حتى تعودتُ أن أمر فأطاع ، وإلا غضبتُ وتعذر إرضائي إلا بصعوبة شديدة . . كما ساعدني على هذا الدلال كذلك تفوقى الدراسى والتحاقى بإحدى كليات القمة .

وخلال فترة الدراسة تعرفتُ على معيد شاب يكبرنى بخمس سنوات ، فأحببته بجنون ، وفرضتُ حوله أسواراً من الممنوعات والمحظورات خوفاً من أن تأخذه منى فتاة أخرى أو يرحل عن الحياة ،

ابتداء من «تعليماتي» المشددة له بألا يعبر الطريق إلا إذا كان خالياً، إلى تحريمى عليه أن يتبسط في الحديث مع أى فتاة أو زميلة له في العمل الحكومى أو فى المكتب الاستشارى الذى يعمل به فى المساء . . ويا ويله منى لو فاجأته فى المكتب فوجدته يتحدث مع زميلة له ، إذن فهى النار التى لا يطفئها سوى تركه للعمل فى هذا المكتب نهائياً ، مهما يكن دخله منه .

تكررت هذه القصة كثيراً حتى لم يعد يستقر فى أى مكتب سوى بضعة أشهر ، وأحياناً أسابيع ، حتى رفضته بعض المكاتب لعدم استقراره فى العمل .

وعلى هذا النحو مضت فترة خطبتي له . . ثم تزوجنا . . وتكررت مواقف الشك فيه والغيرة عليه ، فكنت أشك فى كل اتصال تليفونى يتلقاه . . وكل ورقة أجدها فى جيبه أو حقيبته ولا أفهم فحواها ، وأحاصره حين يرجع من عمله مرهقاً بالأسئلة والاستجابات المضنية إلى ما لا نهاية !

وأنجبنا طفلة جميلة . . والحال ما زال على ما هو عليه . . ثم زاد شكى فيه حين أبلغنى بعض الزملاء أنه شوهد يسير فى الشارع فى أحد الأيام مع زميلة له فى آخر مكتب هندسى قبله للعمل فيه . . ولاحقته بالتحريات واستجواب زملائه فى المكتب حتى هياً لى شيطانى أنه لا بد أن يكون أخطأ مع هذه الزميلة ، فافتعلت معه مشاجرة عنيفة وأخذت

طفلتى وعدتُ إلى بيت أهلى ، وبغير أى محاولة للتفاهم معه بدأتُ فى شن حربى الشرسة ضده ، ابتداء من رفع دعوى قضائية ضده واتهامه بتبديد أثائى ، إلى رفع دعاوى النفقة ، وحتى تشويه سمعته فى عمله بالمكتب الهندسى وعمله الحكومى واتهامه بكل ما لا يخطر على البال من اتهامات . . كل ذلك وهو لا يكف عن محاولة إعادتى إلى بيته مرة أخرى واسترضائى والتفاهم معى ، لكنى كنتُ قد تحجرتُ أمام مطلب واحد هو الطلاق والحصول على كل حقوقى بلا تنازل عن أى شىء مهما يكن ، ولم أترك وسيلة مادية أو معنوية لإيذاء زوجى إلا واستخدمتها . . كل ذلك وهو صابر ويكتفى بالدفاع عن نفسه ، ومحاولة دفع الاتهامات الظالمة عنه دون أى محاولة لإيذائى .

وخلال انهماكى فى قيادة هذه المعركة الضارية ضد زوجى تقرب إلى كثير من الزملاء يريدون الزواج منى بعد نجاحى فى الحصول على الطلاق ، فقوى ذلك من شوكتى وزادنى إصراراً على مواصلة الحرب حتى النصر !

وأخيراً حصلتُ على الطلاق ، وفزتُ بالأحكام القضائية التى أردتها . . وتلقيتُ التهانى من الأهل والصديقات شاعرةً بنشوة النصر . .

وبدأتُ أفكر فى المستقبل ، فانتظرتُ انقضاء فترة العدة لكى أبدأ فى اختيار واحد من الذين يحومون حولى ويرغبون فى الزواج منى للارتباط بى . . وبدأتُ أقارن بين مميزات كل منهم وعيوبه ، وأفكر بعمق فى ذلك

لكيلا أكرر التجربة الفاشلة في حياتي، ولكي أحصل على أفضل الشروط والظروف لحياتي الجديدة.. وبدأتُ أتهيأ لاستقبال عروض الزواج والمفاضلة بينها، فإذا بالذين كانوا يتنافسون على الفوز بي خلال انشغالي بالمعركة الطاحنة، يتعدون عني واحداً بعد الآخر بمجرد حصولي على الطلاق.. وإذا بأحدهم يقولها لي بصراحة: إنه كان يريد «صداقتي» فقط وليس الزواج مني، إذ ماذا يجبره على الزواج من مطلقة ولديها طفلة!

وبعد عشرة شهور فقط من حصولي على الطلاق رحل أبي فجأة عن الحياة، رحمه الله وسامحه فيما جناه عليّ.. إذ لم ينهني يوماً عن شيء مما فعلته ولم يفتح عيني على حقائق الحياة التي أدركها بخبرته، وبدلاً من أن يرشدني للحق والعدل في معركتي مع زوجي، كان يساعدنني عليها بحيل وأفكار شيطانية.

ومضى العام تلو العام.. فضمد زوجي السابق جراحه ورمم حياته التي حطمتها له تحطياً وتزوج من أخرى.. وتحسنت أحواله المادية تدريجياً حتى استطاع شراء شقة جديدة وسيارة جديدة، وقام بأداء فريضة الحج مع زوجته مرتين، وأنجب منها البنين، أما أنا فلقد طردني أخي من شقة أبي لكي يتزوج فيها، وانتهى بي المطاف لأن أحيا وحيدة مع طفلي - التي تبلغ من العمر الآن تسع سنوات - في شقة صغيرة بالإيجار، وقد أصيبت ابنتي بحالة من الاكتئاب والتبول اللاإرادي، كما تعذبني دائماً بتساؤلاتها المريرة: لماذا يكون لكل صديقاتها آباء وهي

وحدها بينهن التي بلا أب؟! . . . وذلك بالرغم من أن أباهما يراها مرتين كل أسبوع ويصطحبها معه إلى المصيف والرحلات القصيرة!

إنى أكتب لك هذه الرسالة لكى أقول لكل إنسانة على وشك الانفصال عن زوجها، إننى - وبكل كبريائى - أقبل الآن أن يعود إلى زوجى ولو ضربنى كل يوم، وأقبل به ولو عرف امرأة مختلفة كل يوم، وأقبل به كذلك ولو رفض حتى أن يكلمنى أو يجالسنى، وذلك لكى أحس فقط «بالأسرة»، وبأننا أب وأم وأطفال. . . وأنشد كل زوجة وكل زوج أن يتفهما معنى شركة الحياة وأن يسعى كل منهما لحل مشكلاته بالصبر والتفاهم والأمل فى المستقبل. . . وأنصح كل زوجة بأن تقرب زوجها منها، وأن تصبر على ما لا يرضيها منه الآن لأنه أفضل لها كثيراً من الوحدة والندم اللذين أتجرع مرارتهما الآن.

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

يشغلنى دائماً - حين أقرأ رسالة مماثلة لرسالتك هذه - سؤال أتأمله طويلاً ولا أصل عادةً إلى جواب شافٍ له، وهو : لماذا يحتاج الإنسان دائماً إلى أن تنزل به النازلات لكى يدرك خطأ مواقفه السابقة التى طالما أصر عليها من قبل واستمسك بها ورأى أنها الحق الذى لا يأتىه الباطل من شماله أو يمينه؟! . . . وكم من السنين يحتاج المرء لكى يكتشف أخطائه ويرى خطل مواقفه السابقة، فينهض لإصلاح الأخطاء وأداء

الحقوق لمن ظلمهم خلال اغتراره بنفسه وقوته واقتناعه المطلق بصحة موقفه؟!!

إن السعداء من البشر هم الذين تهديهم حكمتهم إلى اكتشاف أخطائهم والتسليم بها بلا مكابرة في المدى الزمني القريب الذي يسمح لهم بالاعتذار عنها وإصلاح آثارها بغير أن يخسروا الكثير ، والتعساء منهم هم من لا يرون الحق حقًا إلا بعد أن يتعذر عليهم إصلاح الأخطاء وتدارك المواقف ، فيدفعون الضرائب الباهظة من حياتهم وأمانهم . . . وسعادتهم .

ونحن كثيرًا ما نقول لأنفسنا : إنه لو رجعتُ بنا الأيام إلى الوراء لما فعلنا كذا ، وما استمسكنا بكذا وكذا من مواقفنا السابقة وآرائنا ، ونحن نحن البشر حين استمسكنا بهذه المواقف ودافعنا عنها باستماتة في وجه الآخرين . . . ونحن نحن نفس البشر حين أدركنا الآن كم كنا جهلاء وحمقى وقصار النظر حين صممنا آذاننا عن كل نصيحة ، وتصورتنا أن موقفنا أو اختيارنا هو الحق الذي لا يدانيه حق ، وأن الآخرين هم المخطئون الذين لا شبهة في خطئهم وخطئهم ، فما الذي تغير فينا وغير من مواقفنا وأفكارنا وآرائنا ؟ إنها تجربة الأيام وحكمة السنين التي تضيئ غالبًا بدروسها على من لم يدفع ثمنها الغالي من حياته وتجاربه .

فهل كنتِ تتصورين ذات يوم يا سيدتى - وأنتِ تقودين المعركة الطاحنة ضد زوجك في المحاكم ، وترفضين كل محاولات الصلح أو

التفاهم - أنه سوف يجيء اليوم الذى تعترفين فيه بجنايتك على نفسك
وزوجك وطفلتك، وبخطأ موقفك من شريك الحياة من البداية إلى
النهاية؟

وما دام الحال هكذا - وما كان يبدو لنا أنه الصواب الذى لا يأتيه
الخطأ من فوقه أو تحته، قد يصبح بعد بضع سنوات هو عين الخطأ،
ونشعر بالندم المرير عليه - فلماذا لا يُبدى أحدنا وهو فى عنفوان تمسكه
برأيه وموقفه أى استعداد لمراجعة نفسه وتأمل مواقفه ومواقف الآخرين
ومحاولة تحرى العدل فيها؟! . . . ولماذا نتهلل للخلاف من أول بادرة،
فنقفز على الفور إلى مياه العميقة، ونخوض المعارك الضارية ضد من
اختلفنا معهم بلا أى اعتبار لسابق مودتنا لهم أو مودتهم لنا، أو لما
يربطنا بهم من روابط إنسانية؟!!

لقد كتبت رسالتك هذه يا سيدتى وأنت فى حالة صدق مع النفس،
حَبَّذًا لو استشعرها الإنسان دائماً لكى يعترف بأخطائه ويتعلم دروسها
ويبرأ من حقوق من ظلمهم خلال معاركه الضارية معهم . . .

فلقد أدركت الآن أنك وأنت من أحببت زوجك السابق «بجنون» -
كما تقولين - قد حطمت حياتك معه بغيرتك المفرطة عليه، وشكوكك
الدائمة فيه، واعتيادك - بأثر تنشئتك الخاطئة وتدليلك المفرط - أن تأمرى
فُستجاب لك بلا مناقشة، فلعلك قد تعلمت الآن درس التجربة الذى
يقول : إن الحب وحده لا يكفى لاستمرار الحياة الزوجية ونجاحها، ما لم
يرافقه الفهم وحسن الإدراك والاتزان والإنصاف وحسن المعاشرة واتحاد

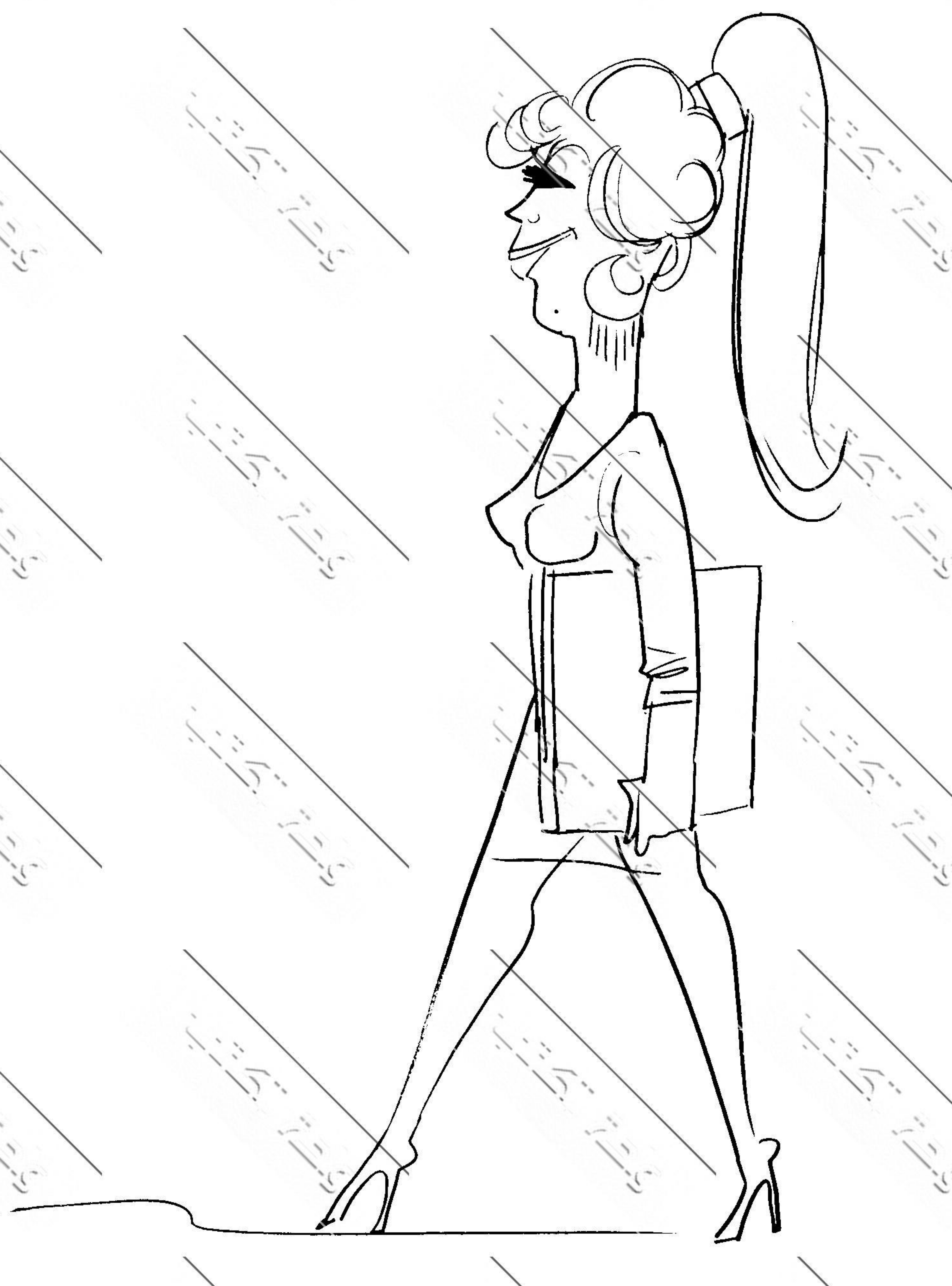
الأهداف . . . ولعلك أدركت الآن أيضًا أن الحياة ديون ، وأنا نحاول دائمًا أن نحتمي من ظلم الأيام لنا بألا نظلم أحدًا أو نفتري على أحد، وبألا تدرکنا نشوة النصر الظالم على من نعرف جيدًا في قرارة أنفسنا حقيقة ظلمنا له ، وأنه لم يكن ليستحق منا بعض ما فعلنا به . . . فلا عجب إذن يا سيدتي أن تعوض الحياة زوجك عن ظلمك له ، وأن تبدله زوجة أخرى ترعى مودته وتحرص عليه ، ويجيا معها آمنًا مستقرًا ، ولا عجب أيضًا أن يبدله الله من حياته - التي تعترفين بأنك قد نجحت في تحطيمها ماديًا ومعنويًا - حياة جديدة أفضل وأنجح وأوفر ثمرة .

كما لعلك أيضًا قد تعلمت أهم دروس هذه التجربة ، وهو الفارق الهائل بين من يحومون حول امرأة متزوجة بهدف الفوز بها «كصديقة» ، ومن يرغبون حقًا وصدقًا في الارتباط بها والزواج منها . . . فلقد فات عليك للأسف إدراك هذا الفارق بين زوجك الذي لم يكن يرغب في فراقك حتى اللحظة الأخيرة ، وبين هؤلاء الذين تخلوا عنك بمجرد أن زال عنك قيد الزوجية .

ولو أنك أمعنت النظر الآن في الأمر كله ، لأدركت أن أحد أسباب نفور هؤلاء الرجال من التفكير فيك كزوجة بمجرد انتصارك «الشامل» في معركتك الضارية ضد زوجك السابق ، هو هذه المعركة نفسها! ولا غرابة في ذلك ، لأن من تخوض مثل هذه المعركة بالحق والباطل ضد من أحبته من قبل بجنون وأنجبت منه طفلة صغيرة ، وتستخدم فيها - كما تقولين - الأفكار والحيل الشيطانية التي يساعدها بها والدها ضده . . . من تفعل

ذلك يا سيدتى ، لا يأمن غالبًا الرجل الارتباط بها إذا اقترب منها خلال «قيادتها» لهذه المعركة ولمس عن قرب ضراوة عدواتها ولدّد خصومتها، حتى ولو كان غارقًا فى حبها.. فلعل ذلك يكون أيضًا أحد دروس تجربتك التى تدعين الأخرى والأخرين إلى الاستفادة بها، فلا يفجّر أحدهم فى الخصومة فينفر منه من يحيطون به خوفًا من أن تطولهم سهامه ذات يوم .

وختامًا ، فإنى أشكر على صدقك مع نفسك وعلى رغبتك المخلصة فى أن تضعى تجربتك أمام الآخرين ليستفيدوا بدروسها ويتفادوا أشواكها، وأرجو لك ولطفلك الصغيرة أن تعوضكما الحياة عما تعانيان وتمسح على جراحكما ، وتبدل من أمركما خيرًا بإذن الله .



الملابس الساخنة

أكتب إليك هذه الرسالة وقد بلغ بي اليأس قمته . .

فأنا طالبة جامعية عمري ٢٢ عامًا وعلى درجة عالية من الجمال ، مما جعل كل من حولي - وأمي بصفة خاصة - يكيلون دائمًا المديح لجمالي حتى أدار الغرور رأسي . . ولم تكتفِ أمي بالإشادة بجمالي في كل مناسبة ، وإنما راحت تدفعني أيضًا إلى إظهار مفاتيحي وتشجعني على ارتداء الملابس الساخنة !

أعلم الآن ما يدور في رأسك عني ، وأعرف أنك لا بد أن تتساءل :
وأين أبي من كل ذلك ؟ . . وأجيبك بأنه منفصل عن أمي ويعمل
بإحدى الدول العربية ، ويرسل إلينا كل شهر مبلغًا يغطي احتياجاتنا .
وعلى الرغم من جمالي وارتدائي للملابس المغربية ، فقد كنت حريصة
على المحافظة على نفسي . .

وأحببتُ إنسانًا يعمل عملاً مرموقًا وأحبني . . ودعاني إلى تغيير

طريقة ملابسى ومكياجى وارتداء الحجاب ، فاستجبتُ له ، وكنتُ على استعداد لأن أغير كل حياتى من أجله فى مقابل ما شعرتُ به معه من حنان الأب الذى افتقدتهُ منذ صغرى . . وبالفعل أصبحتُ أكثر التزامًا .

وحدثنى هو عن رغبته فى التقدم لخطبتى عند عودة أبى من إجازته ، وبعد فترة أبلغنى باعتراض أهله الشديد على ارتباطه بى للفارق الكبير بين العائلتين ، ثم تزوج فتاة من أسرة صديقة لعائلته ، فشعرتُ بصدمة قوية هزت وجدانى . . وأدركتُ أنه لم يكن حبًا وإنما شىء آخر .

ورجعتُ لسابق عهدى فى ارتداء الملابس إياها والماكياج وإظهار مفاتنى ، ولاحظتُ فجأة خلال ذلك إعجاب أستاذى فى الكلية - الذى تعدى الخمسين من عمره - بى . . ولفت نظرى إليه ما قالتهُ بعض زميلاتى أمامى من أنه لا يرفع عينيه عنى طوال المحاضرة ، وكأننى الطالبة الوحيدة فى المدرج . . ثم حدث أن سلمتُ إليه فى مكتبه بحثًا كان قد طلبه من تلاميذه ، فأبدى اهتمامه الشديد بى ورغبته فى مساعدتى ، وألح علىّ فى حضور حفل الكلية السنوى الذى لم أكن أنوى حضوره ، فذهبتُ إليه والتقيتُ به فيه ، وقدّمنى إلى زوجته وأشاد بى أمامها ، ونوّه بحبه الكبير لها !

واقترب الامتحان ، فتوجهتُ إليه فى مكتبه لأسأله عن بعض ما غمّض علىّ فهمه من المنهج ، فرحب بى بحرارة وشرح لى كل ما أردتهُ ،

ثم صمت وراح يتفحصنى باهتمام شديد ، ثم قال لى : إنه كان يتمنى لو
أننى قد ظهرتُ فى طريقه منذ ١٥ عامًا ! وسألنى عن رقم تليفونى
فأعطيتُهُ له ، ولما هَمَمْتُ بالانصراف صافحنى بحرارة واحتوى يدي بين
يديه فى حنان ، وانصرفْتُ وقد شعرتُ بأننى قد استرددتُ بعض كرامتى
التي أُهدرتُ فى حبى الأول .

وبعد انتهاء الامتحانات بدأ أستاذى يتصل بى تليفونيًا بالساعات ،
وفى بعض الأحيان كان يطلبنى فترد عليه أُمى ولا تنزعج من اتصاله بى
باعتباره بمثابة أبى !

وفى الفصل الدراسى الثانى كنتُ قد أصبحتُ صديقة لزوجته بناء
على رغبته وتدبيره . . وأعترف لك بأننى كنتُ أشعر بسعادة خفية وأنا
أتعامل مع زوجته ، وأشعر بأنها مخدوعة فى وفى زوجها . . كما أعترف
لك بأننى أحببتُ هذا الشعور الداخلى بالانتصار عليها ، بل
وبالسخرية الداخلية منها حين كانت تحدثنى عن حب زوجها لها ، وأنا
أعلم تمامًا أنه يحبنى ويتحرَّق شوقًا للارتباط بى .

وجاء اليوم الذى انتظرتهُ منه . . وفاتحنى فى الزواج . . لكننى
صدمتُ بأنه يعرض عَلَى الزواج العرفى ، فرفضتُ ذلك بحدة . . وكنتُ
قد علمتُ من زوجته أن أقل ضغط تمارسه عليه يجعله يستجيب
لطلباتها ، فقررتُ أن أستفيد من هذه الخبرة ، وانقطعتُ عن الذهاب إلى
الكلية والرد على اتصالاته التليفونية . . فجُنَّ جنونه ، وراح يسأل عنى

كل الصديقات ، واكتفيتُ بهذا القدر من الضغط عليه وعدتُ للكلية ، فوجدتهُ ملهوفاً عليّ ، وكان أول ما فعله هو أن طلب الخروج معي ، وفي السيارة التي ركبتهُ معه بعد شيء من التردد انهمرتُ دموعه وطلب مني ألا أتخلى عنه . . . وأعلن استعداداه للزواج الشرعي مني ، ولكن بشكل سري .

وقبلتُ بذلك . . . وتم زواجنا شرعيًا في السر ، واستأجر شقة خارج المدينة التي نقيم فيها ، وبدأتُ أخرج من بيتي في الصباح بدعوى الذهاب إلى الكلية ثم أتوجه إلى هذه الشقة ، ويأتي هو إلى لمارس حياتنا الزوجية في هذا العش البعيد .

وانتهى العام الدراسي وبدأ عام جديد . . . وأنا أتصور أن علاقتنا سرية ، إلا أنني اكتشفتُ أن جميع أساتذة الكلية يعلمون بارتباطه بي ، وأنه يتباهى بينهم بصولاته وجولاته معي ، كما علمتُ كذلك أن زوجي العزيز قد بدأ يكرر نفس اللعبة مع طالبة جميلة أخرى لديه لا ترغب في الزواج منه ، لكنها لا تمنع في التساهل معه مقابل رعايته لها دراسيًا ! . . .

وما دفعني لأن أكتب إليك هذه الرسالة - رغم علمي بما سوف ينالني منك من لوم شديد ، وربما أيضًا الشعور تجاهي بالاحتقار - هو أنني الآن حامل في شهرى الثالث ، وقد فكرتُ بجدية في إجهاض نفسي ووافقني زوجي على ذلك ، لكنني أرجع فأرى ذلك ذنبًا عظيمًا . . . وأتساءل على الناحية الأخرى : لو أنني احتفظتُ بالجنين ، كيف سأواجه زوجة

أستاذى التى أصبحت الآن صديقة لأمى ، وتعتبرنى ابنة لها؟! . . . وكيف سأصرف مع أمى؟! . . . وماذا أقول لها ولكل من حولي؟! . . .

صحيح أننى زوجة شرعية . . . لكن زوجى قد هددنى بأنه إذا أعلنتُ زواجى منه فسوف ينكر أبوته لطفلى . . . فماذا أفعل؟! . . . وفى النهاية فإن لَدَى نصيحة لكل الأمهات ألا يفعلن مع بناتهن ما فعلتهُ أمى معى . . . فلقد دفعتنى بغير قصد إلى الطريق الشائك . . . واطمأنتُ إلى ذئب وضعتنى معه فى غرفة واحدة !

●● ولكاتبة هذه الرسالة «المزعجة» أقول :

أرجو ألا تكونى قد اخترتِ إبلاغ زوجة أستاذك بزواجك الشرعى منه عن طريق نشر رسالتك هذه فى «بريد الجمعة» ، فالحق أننى قد شككتُ فى ذلك لبعض الوقت ، ولهذا فقد تعمدتُ التعمية على ملامح شخصيتك وشخصية أستاذك ونوع دراستك لكيلا تستخدمى «بريد الجمعة» فى تحقيق بعض أغراضك . . . ويبقى بعد ذلك أن أناقش رسالتك ، وأن أرد على تساؤلاتك محاولاً بقدر الإمكان تحييد مشاعرى تجاهك . . .

وأبدأ بأن أقول لك : إنه ليس لديك ما تخشيه كثيراً من أمك إذا علمتِ بما أوقعتِ نفسك فيه من الارتباط برجل متزوج يكبرك بحوالى ٣٥ عاماً فى زواج سرى لا يختلف كثيراً عن علاقة العشق لافتقاده ركن الإشهار ، وهو من أركان الزواج الشرعى الأساسية ، ذلك أن من تحت

ابنتها على إظهار مفاتن جسدها وتحضها على ارتداء ما تسمينه بالملابس الساخنة ، لن يتجاوز غالباً رد فعلها لحمقك وتهورك واندفاعك إلى الارتباط بأستاذك المتزوج بغير علمها حدود اللوم الهادىء لك على عدم إشراكها معك في تدبيرك للارتباط بهذا الرجل ، وربما أبدت - ولها الحق في ذلك - أسفها لتجاهلك لها في هذا الأمر كله من البداية ، مع أنها لو علمت به وشاركت فيه في الوقت المناسب لربما كانت قد استطاعت أن تحصل لك على شروط أفضل للزواج والارتباط بهذا الرجل !! أما خشيتك من مواجهة الآخرين بما فعلت فلا معنى لها أيضاً ، ولا هى هم حقيقى لك ينبغى التوقف عنده ، لأن من تفعل ما فعلت في سنها الصغيرة هذه لا يتعذر عليها مواجهة أحد بما فعلت ، والمضى قُدماً فيه «مرفوعة الرأس» ، وكأنها لم تأت أمراً إذا ولم تفعل ما تستحق اللوم عليه! ..

يبقى بعد ذلك ما يستحق التحسب له بالفعل ، وهو أن تعرف زوجة أستاذك بزواجك منه سرّاً ، وتكتشف خديعتها الكبرى فيمن كانت تعدّها بمثابة الابنة الشابة لها ، وخديعتها الأكبر في زوجها الأستاذ الجامعى الوقور الذى لا يتوانى عن التنويه بحبه لها في كل مناسبة ، كما فعل معك في حفل الكلية ، فهذا هو الهم الحقيقى الوحيد الذى ينبغى أن تتحسبى له في هذه القصة المؤسفة كلها ، والحق أننى لا أقصد بهذا الهم حرجك الإنسانى معها ولا إحساسك تجاهها بالذنب ، أو شعورك الشديد بالخجل منها والإشفاق عليها ، لأنك - والحمد لله - لا تعانين

من مثل هذه المشاعر «التَّرفِيَّة» التي يشقى بها آخرون من البشر ، وإنما أقصد به تحسبك لما سوف يترتب على انكشاف أمر زواجك من زوجها من زوابع وعواصف في حياته العائلية ، وما سوف يتعرض له هو من ضغوط إنسانية شديدة من زوجته وأهله قد تفلح في النهاية في دفعه للتخلص من ارتباطه بك ، وهو ما يستحق أن تستعدى له بالفعل من الآن ، خاصة وقد أثبتت لك التجربة أن زواجه منك لم يكن تتويجاً لحب حقيقى قهّار لا يملك معه إرادته ، وإنما كان - كما أتصور - استجابة متسرعة لرغبة حسية عارمة فيك ، والوسيلة الوحيدة التي أتاحت له لقضاء وطره منك بعد أن تعذر عليه قضاؤها بغير الزواج منك ، بدليل أنه - وقد نال منك مآربه وهدأت رغبته فيك - قد بدأ يكرر نفس اللعبة مع زميلة أخرى لك أكثر تساهلاً معه منك وأقل تدبيراً وتخطيطاً ، فلعله قد ركز عليها نظراته في المحاضرة ، وكأننا قد خلا المدرج إلا منها . . ولعله يبكى الآن بين يديها طالباً الزواج العرفى بها إذا تعذر عليه بلوغ مآربه منها بغير ذلك . والحق أيها السيدة الصغيرة أننى لا أشعر تجاهك بأى تعاطف ، ولا أراك - كما حاولت إقناعى في رسالتك - ضحية لأستاذك ، ولهذا لم أستجب لرغبتك في أن يكون عنوانها هو «ضحية أستاذها» كما رغبت ، وإنما أنتِ ضحية فساد القيم الأخلاقية السائدة في مجتمعك العائلى ، وضحية غياب الدين في حياتك الأسرية وخفوت صوته في دائرتها . . كما أنكِ ضحية غياب الأب عن القيام بدوره الجوهري في توجيهك وحثك على الالتزام بالقيم الدينية والأخلاقية . .

فلا عجب في أن تعدلى عن الحجاب والاحتشام في مظهركِ عقب فشل تجربتك الأولى، لأن حجابكِ لم يكن عن اقتناع داخلى لديك ولا نابعاً من وجدانكِ الدينى، وإنما كان وسيلة لإغراء ذلك الشاب بالتقدم لخطبتكِ، فما إن فشل التدبير والتخطيط حتى رجعت عنه بلا ندم، غير أنك لم تستفيدى للأسف من درس التجربة الأولى، ولم تتعلمى حكمتها، وهى أن الشاب قد يعجب فى بعض الأحيان بالفتاة الجميلة المتحررة فى ملابسها ومظهرها . . لكنه لا يرتبط غالباً إلا بمن يثق فى قيمها الأخلاقية والدينية، ويشعر بأنه يستطيع أن يأمن على شرفه وعرضه معها . . وبدلاً من استيعاب هذا الدرس الثمين والاهتداء بهديه فى حياتكِ بعد ذلك، فلقد شعرت - للعجب - بأن كرامتك قد جُرحت، وأنكِ قد استرددتِ بعضها حين تأكدتِ من سطوة تأثيركِ على أستاذكِ، فلقد سعيتِ أنتِ إليه فى مكتبه بعد أن لاحظتِ افتتانه بكِ، ورحبتِ بإعطائه رقم تليفونكِ، وتهللتِ لاتصالاته التليفونية الطويلة معكِ، وهى الاتصالات التى لم تعترض عليها أملك - للأسف - استمراراً لسياستها الخاطئة المتساهلة فى تربيتكِ، واستفدتِ من خبرة زوجته فى التعامل معه فى الضغط عليه لكى يتزوجكِ، وقبلتِ - وهو الأخطر - الزواج من رجل متزوج وله أبناء، فكيف يمكن اعتباركِ ضحية بريئة من كل إثم لسوء توجيه والدتكِ أو لمثل هذا الرجل . . .

صحيح أنه يتحمل الجانب الأكبر من المسئولية الأخلاقية عما انتهى إليه مصيركِ الآن وأنتِ فى الثانية والعشرين من عمركِ كزوجة سرية

لرجل يكبرها بـ ٣٥ عامًا ، وصحيح أيضًا أنه كان خليقًا به أن يتعفف عن مغازلتك وملاحقتك والتحرش بك ، احترامًا لنفسه وموقعه كأستاذ جامعي ولوضعه العائلي كزوج وأب ، لكن مسئوليتك أنت أيضًا عن هذا المصير المؤسف جسيمة . . فلقد سعيت إليه في مكتبه بذرائع مختلفة لإحكام سيطرتك عليه بعد أن علمت عنه ضعفه معك ، ولم يكن سعيك إليه في مكتبه سوى دعوة ضمنية له لمغازلتك والمضى قُدُمًا في هذا الطريق الشائك . والرجل أو المرأة لا يرمى أحدهما غالبًا سهامه ، ويواصل الرماية بلا كلل إلا إلى من يأنس فيه ترحيبه - ولو كان صامتًا - بهذه السهام الموجهة . . ولولا ذلك لانشى عن غايته إذا وجد أن سهامه لم تُصِبِ الهدف .

ولقد نشرتُ رسالتك على الرغم من استيائي لها عسى أن يستفيد بأخطائها غيرك من الشباب والأمهات والآباء ، لأننا نتعلم من أخطائنا بأكثر ما قد نتعلم أحيانًا من اختياراتنا القويمة في الحياة ، ولقد تأملت طويلاً ما حكيت عنه عما كنت تشعرين به من سعادة شريرة وأنت تمارسين خداع زوجة هذا الرجل التي تعاملت معك بحسن نية ولم تسيء إليك في شيء ، كما توقفتُ أيضًا أمام ما كنت تشعرين به من سخرية داخلية تجاهها حين تحدثك بسلامة طويتها عما يمكنه لها زوجها من حب . . فشكرًا لك لأنك قد أطلعتنا على مثل هذا الجانب السادي المظلم من النفس البشرية ، وأرجو أن تكوني قد تطهرت من بعضه حين علمت بأن هناك الآن من لعلها تشعر بمثل هذه السعادة الشريرة في

باطنها ، وهى ترى زوجك يتودد إليها وتحس بانتصارها القريب عليك . .
وفى النهاية فإنى أقول لك : إنك يجب أن تصارحى أمك على الفور
بما فعلت بحياتك ، وأن تواجهى الأمر الواقع وتتحملى عواقبه بشجاعة ،
وتحاولى تحجيم خسائره . . فالحق أن زوجك بهذا الرجل محكوم عليه
بالفشل والانهيار - طال العهد به أو قصر - لأنه زواج غير متكافئ من
ناحية السن ونواح أخرى ، ولأنه زواج مؤقت كالنزوة العابرة التى ترشح
صاحبها بعد انقضائها للندم بأكثر مما ترشحه للسعادة ودوام التجربة .

أما الجنين الذى أثمرته هذه النزوة الخرقاء فى حياتك ، فإن تهديد
زوجك لك بإنكار أبوته له إذا أعلنت زواجك منه ، ليس سوى محاولة
مكشوفة للضغط عليك لمنعك من إعلان هذا الزواج ، وتخويفك من
عواقب ذلك ، لأن زواجك منه مادام شرعيًا وموثقًا فإن إنكاره لأبوة هذا
الجنين تهديد أجوف لا يُعتدُّ به كثيرًا ، ولن يغير من الواقع شيئًا . . وأما
عن تفكيرك فى مصير هذا الجنين الذى لم يكمل بعد شهره الثالث ،
فإنى أنقل لك هنا ما جاء فى كتاب «بيان للناس» الصادر عن الأزهر
الشريف فى مسألة الإجهاض ، وملخصه : أن الحمل متى استقر فى
الرحم لمدة ١٢٠ أو أربعة أشهر فقد ثبت بالقرآن والسنة نفخ الروح فيه ،
وبذلك يصير إنسانًا له حقوق الإنسان الكاملة ، حتى لتجوز له الوصية
والوقف عليه والميراث بعد موت مورثه ، وبذلك يكون من النفس التى
حرم الله قتلها إلا بالحق . . ويحرم إجهاضه إلا إذا دعت إلى ذلك ضرورة

قهرية ، كأن يكون بقاء الحمل ضارًا بحياة الحامل . . إلخ . أما قبل
نفخ الروح فيه فلفقهاء أربعة أقوال في الحكم عليه :

الأول : الإباحة مطلقًا من غير توقف على وجود عذر ، وهو قول
فقهاء الزيدية ، ويقرب منه قول فريق من فقهاء الحنفية ، وإن قيده
بعضهم بوجود العذر ، وهو أيضًا ما نقل عن بعض فقهاء الشافعية وما
يدل عليه كلام المالكية والحنابلة .

والثاني : الإباحة لعذر ، والكراهة لعدم وجود العذر ، وهو ما
تفيده أقوال فقهاء الأحناف وفريق من الشافعية .

والثالث : الكراهة مطلقًا ، وهو رأى بعض فقهاء المالكية .

والرابع : الحرمة ، وهو الرأى المعتمد عند المالكية .

فحاولى أيتها السيدة الصغيرة أن تتعلمى درس التجربة وتصححى
الأوضاع الخاطئة فى حياتك ، وتبدئى صفحة جديدة خالية من مثل هذه
المغامرات الطائشة والأفكار الخاطئة عن الحياة والحب والزواج .



التجربةُ الجذباء

أنا سيدة على وشك أن أبلغ الثلاثين من عمري . . . لى أخ واحد ، وقد نشأنا يتيمين فلم نرَ أبانا الذى توفى فى طفولتنا المبكرة ، ولم نعرف سوى أمنا التى سرعان ما تزوجت ونحن طفلان صغيران زواجًا عرفيًا ، وكادت تنجب من زوجها لولا أنها أجهضت نفسها فى اللحظة الأخيرة . . . وطلقت منه ، وعاشت بلا زواج . وعلى الرغم مما قد يوحى به ذلك من أمومة وعطاء ، فلقد كان واقع الحال مختلفًا كثيرًا عن هذا الإيجاء ، فلم نشعر ذات يوم بدفء حضنها ، ولا أتذكر أنها أخذتنا ذات مرة فى نزهة أو إلى المصيف ، وإنما كان كل همها هو العمل وكسب النقود . . . ولا اعتراض لنا على ذلك ، لولا أنها فى سبيل ذلك قد قطعت كل علاقاتها بأقاربنا ومعارفنا ، فنشأنا كأننا ورقتان فى شجرة جذباء لا أوراق لها ، وكان عذرها الوحيد فى ذلك هو أنه لا وقت لديها لمثل هذه العلاقات . . . وأيضًا لأنها كانت تستأثر لنفسها بما تكسبه وترى ذلك حقًا مطلقًا لها دوننا ، وكان قولها الدائم لنا : إنها قد أدخلتنا المدارس لكى

يقول عنها الناس إنها - وهي الأرملة الوحيدة - قد عرفت كيف تربي أبناءها بأفضل مما يفعل بعض الرجال .

ومضت الحياة بنا بخيرها وشرها ، وخالَتْ دائماً من حنان الأم ودفء المحبة . . . وحفلت بالمشاكل التي تفتعلها معنا لأتفه الأسباب ، وبالقسوة الشديدة علينا ، إلى أن أنهينا دراستنا وعملنا . . . وبدأ كل منا يتطلع لأن تكون له حياته الخاصة . . . وارتبط أخى بفتاة رغب في الزواج منها ، فكان يوم خطبته مناحة عند أمى لأنه ليس من العدل - كما قالت - أن تنفق على ابنها طوال العمر وتربيته ، ثم تجيء فتاة غريبة لكى تأخذه على الجاهز ! . . . وكانت فترة خطبة أخى فترة معاناة شديدة وجهاد رهيب لاستكمال مشوار الزواج ، أَكْثَرَتْ خلالها من افتعال المشاكل مع خطيبته وأهلها إلى أن نجح بمعجزة في إتمام الزواج والاستقلال بحياته . أما أنا فلقد أذاقتنى الأمرين خلال فترة خطبتي مع أنها هى التى أحضرت لى العريس ووافقت عليه قبل أن ألتقى به ، ثم رأيتُه فوجدتُه إنساناً ممتازاً ، وكان دافعى الأول للارتباط به هو رغبتى فى الخروج من الجحيم الذى أعيش فيه معها . . . وكالعادة ، افتعلت أمى المشاكل الكثيرة مع خطيبى وأهله خلال فترة الخطبة ، وحين اقترب موعد زواجى منه أصرت على فسخ الارتباط من أساسه ، وكان منطقتها العجيب فى ذلك هو كيف تربي وتشقى فى تربية ابنتها ثم يجىء رجل غريب ويستمتع بثمرة شقاء السنين بعيداً عنها؟! وحين فشلت كل محاولاتها لإفشال هذا الزواج ولمست إصرارى على إتمامه ، جمعت كل ملابسى - التى اشتريتها أنا من

مرتبى - وكل أشياء الخاصة حتى الهدايا التي تلقيتها من صديقاتى فى الجامعة وكل جهازى والأشياء التى اشتراها لى أقاربى الذين كانوا يعطفون علىّ وعلى أخى لعلمهم بقسوة أمى علينا ، ثم وضعت كل ذلك فى غرفة وأغلقت عليه الباب بالمفتاح ، وخيرتنى بين فسخ هذا الارتباط أو الخروج إلى زوجى بلا شىء من حاجياتى ، إذ يكفيه ما سوف يستمتع به دونها من مرتبى !

وتزوجتُ على الرغم من ذلك . . . وبدأ بيتى خاليًا من جهاز العروس وأشياءها الخاصة أمام أهل زوجى ، ولم تدعنى - على الرغم من ذلك - لشأنى وإنما راحتُ الغيرة الجنونية تنهشها كلما لمستُ أننى وزوجى على وفاق ، بل وحاولتُ التفريق بيننا أكثر من مرة ، وهى تريدنى الآن أن أرجع للحياة معها فى مسكنها دون زوجى على أن ينفق هو علىّ وعلى أولادى ونحن مقيمون معها ، وقد فعلتُ مثل ذلك وأكثر مع أخى وزوجته ، حتى إنها تضرب زوجته أحيانًا وتسبها بأفظع السباب ، ونحن نتحمل أمنًا فى صبر ونعجز عن فعل شىء معها .

ولقد أعدتُ بعد زواجى علاقتى بالأهل والأقارب التى قطعتها هى ، وأصبحتُ أستقبلهم فى بيتى وأزورهم فى بيوتهم ، كما أزور حماتى وأهل زوجى ، وكل ذلك يقتلها لأنها لا تحب أحدًا على وجه الأرض ، وقد خيرتنى فى النهاية بين أن أعرفها وحدها وأقطع علاقاتى بالآخرين جميعًا أو العكس . . . فاخترتُ العكس ، لأننى لا أستطيع أن أحيأ فى الدنيا وحيدة تمامًا كالفرع المقطوع من الشجرة ، ولا أريد لأبنائى أن ينشأوا

منعزلين عن الناس ومحرومين من العلاقات الأسرية والاجتماعية كما نشأنا نحن . . . والمشكلة الآن هي أن أمتنا تقطع صلة الرحم بيننا وبينها وتحارب أخي في رزقه وعمله على الرغم من وفائه لها وحرصه عليها . . . وإعطائه لها مبلغاً شهرياً من عرقه وكَدِّه وهي التي لا تحتاج إلى أية نقود ، ولديها شقة تمليك على أعلى مستوى . . . وعلى الرغم أيضاً من أنها قد طردته من شقة جدي التمليك هو وزوجته واستأثرت بها لنفسها ، إلى جانب مسكنها لكيلا تستمتع بها «الغريبة» - كما تقول . . . وقد قطعتُ صلتها بي على الرغم من محاولتي استرضاءها ، وذهبتُ إليها للتفاهم معها فأغلقتُ الباب في وجهي أنا وزوجي ، واتصلتُ بها تليفونياً فأغلقتُ السكة أيضاً في وجهي . . . وحاولتُ أن أرسل إليها الوسيطاء فرفض الجميع التوسط بيني وبينها لقسوتها وغلظتها معهم . أما أكثر ما ألمني وجرح قلبي فهو أن لَدَيَّ ابناً معوّقاً عمره ٤ سنوات ، والله سبحانه وتعالى وحده يعلم كم نقاسى من شقاء ومصاريف ومعاناة نفسية في علاجه . . . فهل يرضيك بعد ذلك يا سيدي أن يَبْلُغَنِي عن أمي أنها - سامحها الله - شامته في مصيبتى بهذا الابن المعوّق ، وأنها تقول : إنه جاء إلى الحياة معوّقاً استجابة من الله لدعائها على أيام زواجي حين قررتُ أن أتركها وحدها وأجرى وراء رجل غريب لكي نستمتع بحياتنا بعيداً عنها!! هل يرضيك هذا يا سيدي ؟ . . . وبماذا تنصحني أن أفعل مع أمي وأنا لا أريد منها شيئاً سوى المعاملة الطيبة وعدم قطع صلة الرحم ؟

●● ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

لابد أن نعترف بما يقوله بعض علماء النفس المحدثين - خاصة البروفيسور الأمريكى «كولز» - من أن هناك قلة من الأمهات معظمهن ممن تفرغن لتربية أبنائهن عقب ترمّلهن أو طلاقهن ، ينطبق عليها وصف العالم الأمريكى هن بأنهن «أمهات متوحشات» . يتسمن بالأنانية المفرطة فى علاقتهن بأبنائهن الذين عكفن على تربيتهم وحيدات ، وتملكهن رغبة لا عقلانية فى امتلاكهم للأبد والاستئثار بهم دون الآخرين ، خاصة لو كان هؤلاء «الآخرون» هم شركاء الحياة . . لابد أن نسلم بهذه الحقيقة المفزعة لكى نستطيع التعامل معها وتفادى الأثواك المحيطة بها بقدر الإمكان ، ولو أنكِ راجعتِ يا سيدتى تصرفات والدتكِ معكِ ومع شقيقكِ قبل زواجكما وبعده لأدركتِ أن كثيراً من السمات المميزة لهذه النوعية من الأمهات تنطبق إلى حد كبير على والدتكِ ، وهى :

* قوة الشخصية ونزوعها للهيمنة الكلية على الأبناء ، والاعتماد الكلى على النفس فى مواجهة الحياة دون إعطاء قدر كبير من الاهتمام للعلاقات الإنسانية بصفة عامة .

* الأنانية ، كنتيجة جانبية للإفراط فى الاعتماد الكلى على النفس فى مواجهة الحياة ، حيث يقوى الإحساس بالذات لدى هذه النوعية من البشر وبكل ما يرتبط بها ، فتميل للأخذ دون العطاء ، وتُغالى فى تقدير الأشياء والماديات أكثر من غيرها .

* الاعتقاد الراسخ الخاطيء بأن الأبناء « ملكية » خالصة للأم يحق لها أن تفعل بهم ما تشاء ، ومن حقها أن تنفرد وحدها دون العالمين بعائد «استثمارها» فيهم ، مقابل ما أنفقته عليهم من مال وما بذلته من جهد لم يساعدها فيه أحد في تربيتهم وتنشئتهم .

* النظر بعين الشك والارتياب إلى كل من يحاول اجتذاب هؤلاء الأبناء إليهم ، والميل الخفى لإفساد علاقاتهم بمن يحتمل أن ينجذبوا إليهم دونها ويتعدوا عنها بسببهم .

* الكراهية المتأصلة لمن نجحوا في اجتذاب هؤلاء الأبناء الذين تمتلكهم الأم ملكية مطلقة لها ، واستثمرت فيهم من قبل سنوات عمرها ووحدتها ومالها .

* التراوح بين الرغبة في استمرار التصاق الأبناء بالأم ليستمروا - كعهدهم السابق معها - خاضعين لها ومنصرفين كليًا بمشاعرهم واهتمامهم بها ، وبين ما يشبه «الكراهية» - نعم الكراهية ، ولا حرج في التصريح بذلك - لهؤلاء الأبناء أنفسهم إذا استمروا في «جحودهم» وتمردهم وتفضيلهم لأحضان شركاء الحياة عليها .

هذه هي بعض السمات المشتركة بين هذه القلة من الأمهات . . . قد تتجلى لدى البعض واضحة ، وقد يتخفى بعضها وراء ستار . . . وأحسب أنها كلها تكاد تكون مجتمعة في شخصية والدتك التي حاولت أكثر من مرة إفساد خطبة ابنها وزواج ابنتها ، وما زالت تحلم بعودة الابنة للحياة معها دون زوجها . . .

فأما شهاتها - سامحها الله - في رزئكِ بابن معوّق - أعانه الله على
أقداره وأعانكم معه - فليست سوى إفزاز سييء لكل هذه المركبات
النفسية المعقدة والمتداخلة في أعماقها ، ذلك أنها لم تغفر لك بعد
«جريمة» ترككِ لها بعد أن أنفقتُ العمر - كما تتصور - في تنشئتكِ ، فما
أن ظهر رجل غريب في أفق حياتكِ حتى ركلتُ - في تقديرها - كل
«عطائها» السابق لك وهرولتُ وراءه ، وسعدت - للأسف - بحياتكِ
بعيدًا عنها . . غير أنها لا تعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما يمتحن مَنْ
يشاء بما يشاء من اختبارات الحياة لحكمة تخفى على الأفهام ، وأنه لا
شأن لدعائها عليك بمجىء ولدكِ للحياة محكومًا بأقداره ، ذلك أنه :
﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١) كما يقول لنا سبحانه وتعالى ،
وليس من القساة وغلاظ القلوب وقاطعي الرحم والبعيدين كل البعد عن
ربهم وتعاليم دينهم . أو لعلها تعلم ذلك لكنها تغالى في كيدها لك بهذا
الزعم المفضوح . . وعلى أية حال فليس أمامكِ سوى أن تتحملي أقداركِ
معها وتواصلى الحرص على حياتكِ الزوجية وأبنائكِ وصلة رحمكِ بالأهل
والأقارب ، وألا تياسى - على الرغم من ذلك - من محاولة وصل رحمكِ
بأملكِ ، وتتحملي صابرة فظاظتها وقسوتها وجفاء طبعها ، عسى أن ترقق
الأيام من قسوة قلبها ذات يوم قريب أو بعيد ، أو يأتيها برهان ربها في
حينه فتدركُ كم كانت قاسية وظالمة لابنيها ، فتسعى لتصحيح علاقتها
بها في الأجل القريب . . أو لعلها تتقبل حقائق الحياة ذات يوم غير

(١) سورة المائدة ، من الآية ٢٧ .

بعيد ، فتسلّم بما يسلم به العقلاء والرحماء في كل مكان وزمان ، من أنه لا
تناقض هناك بين وفاء الأبناء لأهمهم وبين استقلالهم بحياتهم وسعادتهم
مع شركاء الحياة . . وهذا على الأقل هو الأمل الذي لا تملكين أنتِ
وشقيقكِ سوى التعلّق به إلى النهاية .

العقادة الخفية

أنا سيدة في أوائل الخمسينيات من عمري . . تزوجتُ وأنا صغيرة، وأنجبتُ أربعة أبناء ذكور سعدتُ بهم كثيراً . . لكن روحى كانت تهفو دائماً إلى أن تكون لى بنت تشاركنى الاهتمامات النسائية اللذيذة، وتحنو علىّ وأحنو عليها ، فحملتُ من جديد . . واستجاب الله لدعائى فجاء مولودى الخامس بنتاً طرثُ بها فرحاً وسعد بها أبوها وإخوتها الذكور كثيراً، وأصبحتُ هذه البنت هى «مصباح البيت» الذى يضيئه بابتسامتها ورقتها وظرفها . . فنالت منا كل الحب والتدليل اللذين لم ينلها أحد من إخوتها بهذا القدر من قبل .

وكبر الأبناء وتقدموا فى مراحل التعليم . . وكبرتُ ابنتى وتقدمتُ فى مدارج الحياة، فأصبحتُ صديقتى الأولى ، ورفيقة كل أوقاتى ، فالأبناء يخرجون إلى أصدقائهم وحياتهم ومشاغلهم . أما ابنتى فهى معى دائماً، وما أن ترجع من المدرسة - ثم الكلية فيما بعد - حتى نجلس معاً ونقوم بالواجبات المنزلية ، أو نشاهد مسلسلات التلفزيون . . أو نتحدث فى

كل الأشياء . . . أو نرتب جدول أعمال البيت معاً . . . ونحدد متى نقوم «بتنفيذ» البيت . . . ومتى نضع ملابس الشتاء في الدواليب ، ونُخرج ملابس الصيف ، ونفعل كل ذلك يدًا بيد مهما استعنا بمن تساعدنا فيه . . . وفي مواسم الامتحانات تسهر «حبيبتي» للمذاكرة . . . وأسهر إلى جوارها أعد لها سندوتشات الطعام وأكواب الشاي ، وأنتظر عودتها من امتحان كل مادة بلهفة وخوف ، فأطمئن حين أراها مبتهجة ومتفائلة ، وأشعر بالقلق حين أراها ساهمة ومكتئبة . . . وحين تظهر النتيجة وتنجح تكون سعادتي طاغية . أما في الصيف فإن الأوقات تطول بنا . . . فندخل المطبخ معاً لإعداد طعام الغداء ، ونجلس أمام التلفزيون بالساعات ، ويطول بنا السهر كل ليلة ، ونخرج معاً لشراء ما تحتاج إليه من فساتين وأحذية . . . إلخ .

ومضت بنا رحلة الحياة وتخرَّج الجميع في كلياتهم ، وبمجرد تخرج ابنتي في كليتها تقدم إليها مهندس شاب من جيراننا يشهد له الجميع بالأدب والاحترام . . . وتم عقد القران سريعاً ، وسعدتُ به ابنتي ورحبتُ به أنا واعتبرتهُ ابني الخامس ، وأصبح يناديني بـ «ماما» . . . فأحسستُ أن قلبي قد انقسم نصفين : نصف لابنتي الحبيبة ، والآخر لخطيبها الشاب . . . ولا مكان بعد ذلك في قلبي لحب آخر ! وشُغلتُ مع ابنتي بإعداد جهازها . . . وخرجنا معاً عشرات المرات إلى المحلات التجارية لشراء مستلزمات حياتها الجديدة ، وكانت فترة شراء الجهاز من أكثر فترات الاقتراب والتلازم بيننا . . . وحرصتُ على تلبية كل طلباتها وشراء

أحسن ما تسمح إمكانياتنا المادية به . . وانتهى كل شيء وتحدد موعد الزفاف . . وكانت ليلة سعيدة من ليالى العمر تألقت فيها ابنتى بجهاها وسعادتها . . وانتقلت إلى بيتها الجديد .

وتَلَفْتُ أنا حولى بعد أيام من زواجها فلم أجد نصف قلبى فى ضلوعى . . وأصابنى الجنون . . وبدأتُ أتمنى استعادة ابنتى التى فقدتها بالزواج . . وأرجو ألا تتصور أنى أردتُ حرمانها من زوجها . . فليس الأمر على هذا النحو أبداً . . لكننى فقط قد استوحشتُ حياتى بعد انتقال ابنتى الحبيبة إلى بيت زوجها . . وبدأتُ أتمنى أن ترجع للإقامة معى فترات طويلة وليس فى زيارات قصيرة تنتهى بأن يدعوها زوجها للخروج فتستجيب له «صاغرة» وتمضى معه !

وشياً فشيئاً بدأ يحدث بينها وبين زوجها ما يحدث بين أى زوجين شابين لم يتعود كل منهما بعدُ على طباع الآخر وشخصيته ، من خلافات بسيطة ومشاجرات صغيرة، ووجدتُنى - وأعترف لك بذلك - أسعد سعادة خفية لا يدرى بها أحد بما يقع بينهما من هذه المشاجرات لكى يحضرا إلى للفصل فيها، وفى كل مرة يأتیان إلى فى أمر مماثل أطيل بقاءها معى لأطول فترة ممكنة . . وأطلب من زوج ابنتى أن يتركها معى لفترة حتى تهدأ أعصابها . . وكانت ابنتى متعاطفة معى على طول الخط . أما زوجها فكان يتجاوز عن إهاناتى له ، ويفهم ما أفعل ولا يوافقنى فيه . . لكنه لا يعترض عليه كذلك . . ثم بدأتُ ألح على ابنتى وزوجها فى أن يكثرا من زيارتهما لى . . وكانت أسعد أوقاتي هى وقت بداية الزيارة،

وأعسها عندي هي نهايتها حين يهَّان بالانصراف، فأشعر بأن روحي تنسحب مني، وأن هذا الشاب يخطف ابنتي ويبتعد بها عني .

وبعد فترة أخرى طلبتُ منه أن تزورني ابنتي يوماً بعد يوم، فاعتذر عن عدم الاستجابة لرغبتى هذه بحجة مشاغل العمل وضيق الوقت، واستأثرتُ لذلك في أعماقي وترصدتُ أول مشكلة وقعتُ بينها بعد ذلك، فأصررتُ على بقاء ابنتي معي لفترة طويلة حتى تهدأ أعصابها، ويتعلم هو كيف يعامل زوجته باحترام.. . ورفضتُ عودتها إلى بيته بإصرار بالرغم من اعتذاراته وتوسلاته.. . وتبعثني ابنتي في موقفى من زوجها، فتجراتُ عليه بإهانتته كما كنتُ أفعل معه، وبقيتُ ابنتي معي.. .

وطالت فترات وجودنا معاً وأحاديثنا وسهرنا أمام التليفزيون كما كنا نفعل في أيامنا الجميلة.. . وكلما سعى زوجها لاستعادتها تصديتُ له وأهنتُهُ وطالبتُهُ بما لا يستطيع القيام به، حتى يئس مني ومنها تماماً وابتعد، ولم يعد يكرر هذه المحاولات، أو يتصل بى أو بابنتى.. . إلى أن علمنا فجأة أنه سافر للعمل في دولة عربية بدون أن يُخطرنا بذلك أو يسعى لاستعادة ابنتى.. . ومضتُ الشهور بلا أى اتصال من جانبه.. . وبدأتُ أشعر بابنتى، وأراجع نفسى فيما حدث.. .

ثم هاجمنى المرض منذ أسابيع فشعرتُ بأننى قد ظلمتُ هذا الشاب كثيراً وحرمتُهُ من ابنتى وحرمتُها منه، وزاد من شعورى بالذنب ما بدأتُ ألاحظه على ابنتى من وجوم واكتئاب.. . ولهذا فإنى أريد أن أخاطب هذا

الشاب من خلال بابك الذى يحرص على قراءته ، وأرجوه أن يصفح عما فعلتُ به ويعيد علاقته بابنتى قبل أن أقابل وجه رب كريم - سبحانه وتعالى - يسألنى عما وقع منى . . ومع استعدادى الكامل لفعل أى شىء يُرضى هذا الشاب ويعوضه عما فات . . فهل يقبل هذا النداء ؟

●● ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

الفرق بين الحب السوى والحب المريض ، هو أن الأول لا يتجاوز صاحبه القصد فى سعيه إلى الإشباع العاطفى من المحبوب ، ولا يغفل خلال ذلك عن صالحه وسعادته . . فإذا تعارض هذا السعى مع ما فيه صالح المحبوب ؛ ردَّ نفسه عنه وتَصَبَّرَ على بعض الحرمان منه . أما الحب الأنانى المدمر فإنه لا يراعى فى هذا السعى مصلحة المحبوب ولا سعادته ولا حقوق الآخرين عليه ، فيضر به ضرراً بالغاً من حيث لا يرجو ولا يريد ، ويكون وبالاً عليه بدلاً من أن يكون زاداً له وواحة يهجع إليها .

وحب الأمهات لأبنائهن - كما فطرهن الله سبحانه وتعالى عليه - هو بالضرورة من ذلك النوع السوى النبيل الذى يقوم على العطاء لهم والتضحية من أجلهم والتصبر على شىء من الحرمان العاطفى منهم ، حين يشبّون عن الطوق وتتفتح قلوبهم ومشاعرهم لشركاء الحياة ، وتصبح لهم حياة مستقلة عن حياتهم السابقة فى كنف أمهاتهم وآبائهم .

وأنتِ يا سيدتى قد غاليتِ فى الالتصاق النفسى بابنتك المحبوبة ، حتى كأنها قد نسيَّت القابلية أن تقطع الحبل السرى الذى يربط بينكما

عند ولادتها . . وجاوزت حد القصد والاعتدال في رغبتك في الاستمتاع بقربها منك والاستئثار بها دون زوجها . . وبدلاً من أن تحاولي تعويض افتقادك العاطفي لها بعد زواجها بتدريب النفس على القبول بحقائق الحياة التي لا مفر من القبول بحقائق الحياة التي لا مفر من القبول بحقائق الحياة التي لا مفر من القبول بها . . وترشيد مشاعرك تجاهها، واستبدال وجودها الفعلي في حياتك «بحضورها» العاطفي في قلبك ومشاعرك، وسعادتك بسعادتها مع زوجها واستقرار حياتها . . سعيت بوعي - أو بغير وعي - إلى استردادها إلى حضانتك العاطفية من جديد، وتعاملت مع زوجها الشاب كما تتعامل الأم مع خاطف ابنتها وليس مع شريك الحياة الذي زفَّتها إليه الأم وتمنَّت لها السعادة معه، وشعرت بالسعادة الخفية لأول بادرة خلاف وقعتُ بينها وبينه، وانسقت وراء رغبتك الأنانية في الاستئثار بابنتك دون زوجها، فنفخت في نار الخلافات الصغيرة بينها بدلاً من إخمادها والتعامل معها بحكمة الأم الراغبة في استقرار حياة ابنتها ونجاح زواجها.

وكل ذلك ليس من الحب الحقيقي لابنتك في شيء، وإنما هي الرغبة القهرية لديك في الاستمرار في امتلاك ابنتك والسيطرة على حياتها والتحكم فيها .

ولأن الحق والباطل قد ينبعان - أحياناً - من نبع واحد في النفس البشرية كما يقول لنا شاعر الألمان الأعظم «جوته»، فإن القلب الذي ينبع منه هذا الحب الطاغى لابنتك هو أيضاً الذي نبعت منه تلك الرغبة غير

الرشيدة في الاستئثار بها دون زوجها لأطول وقت ممكن ، ولو أدى ذلك -
كما حدث - إلى تدمير حياتها الزوجية .

فلا عجب إذن في أن يضيق زوج ابنتك باغتصابك لها منه وحرمانه
منها . . ورفضك لقبول اعتذاراته وتوسلاته لإعادتها إليه ، فيبتعد عنكما
تاركًا للأيام أن تعلمكما معًا ما لا تعلمان . . فإذا كانت ابنتك قد
تعاطفت معك دائمًا على حساب زوجها ، وجارتك في التجرؤ على إهانته
كما كنتِ تفعلين معه ، فلا عجب في ذلك أيضًا . . لأنها بدلاً من أن تجد
الأم التي تردّها عن غيِّها وترشدّها إلى حُسن معاملة زوجها وما فيه خيرها
وسعادتها ، قد وجدت من تسعد بتجرئها على زوجها وخلافاتها معه
وهجرها له واستقرارها في بيت أسرتها بدلاً من عش الزوجية .

وقديماً استشهد الإمام «أبو حامد الغزالي» في مقدمة كتابه «إحياء علوم
الدين» ، وهو يتحدث عن فساد الأحوال في زمنه ومسئولية رجال الدين
والعلماء عن ذلك ، بيت من الشعر يقول :

يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ يَا مِلْحَ الْبَلَدِ

مَا يُصْلِحُ الْمِلْحَ إِذَا الْمِلْحُ فَسَدُ ؟

وعلى غرار ذلك أستطيع أن أقول لك أيضاً : ما يصلح البنت إذا الأم
قدمت لها المثل السيء في معاملة زوجها بدلاً من المثل الصحيح . .
خاصة إذا هي استسلمت لأهوائها ورغبتها في امتلاك ابنتها دون

شريكتها، بدلاً من أن تنبها إلى واجباتها تجاهه وتعينها على الاستقلال
النفسي والعاطفي عنها؟!!

إن مسئوليتك يا سيدتي عن تدمير علاقة ابنتك بزوجها كبيرة، وهي
مسئولية قد بدأت منذ زمن طويل حين أسرفت في تدليلها منذ صغرها
وغمرتها بحبك وعطفك، واعتبرتها «مصباح البيت» الوحيد بالرغم من
وجود أربعة مصابيح أخرى فيه.. وغاليت في تعويدها على الاعتماد
النفسي عليك في كل شيء إلى حد أن عجزت عن التواؤم مع حياتها
المستقلة عنك مع زوجها.. غير أنني أرى في النهاية أن أخطاءك وأخطاء
ابنتك لم تذهب كلها سدى بالرغم من كل شيء.. وأنت قد بدأت
تدركين فداحة جناية حبك الأناني لابنتك على زواجها وسعادتها، كما
أرى أن ابنتك قد بدأت هي الأخرى في إدراك ذلك والتنبه له، ولهذا
فإنى أنشر رسالتك طالباً من زوج ابنتك أن يقرأها جيداً ويمعن التفكير
فيها جاء على لسانك فيها.. وأن يتصرف وفقاً لما يستشعره منها من
صدق ندمك وندم ابنتك على أخطائكما في حقه.. راجياً ألا يكون
الوقت قد فات لإصلاح الأخطاء والتجاوز عنها.

القصة العاشر

أنا سيدة أبلغ من العمر ٣٨ عامًا أعمل موظفة بإحدى الجهات الحكومية . . ولقد تزوجتُ عقب تخرجي من الجامعة، لكن زواجي لم يطل أكثر من عام واحد . . وبسبب كثرة الخلافات بيننا أرسل لي زوجي ورقة الطلاق، وانتهت صفحة زواجي به دون إنجاب .

وبعد فترة من طلاقى تزوجتُ بإنسان آخر ، واكتشفتُ بعد زواجي منه أنه قد خدعني وأخفى عني أنه كان متزوجًا وله أبناء من زوجة أخرى، فشعرتُ بالكراهة الشديدة تجاهه، وبعد ثمانية شهور من الزواج طلقني زوجي الثاني، ولم أكن قد أنجبتُ منه، وعشتُ حياتي وحيدة في بيت أسرتي . . ثم بعد عدة سنوات تقدم إليّ رجل أرمل يشغل مركزًا مرموقًا ويتمتع بسمعة طيبة، رحلتُ زوجته عن الحياة، وتركتُ وراءها ثلاثة أبناء في مراحل التعليم . . فتزوجتُ هذا الرجل الثالث وانتقلتُ إلى بيته، لكنني لم أشعر بالراحة مع أبنائه .

وبعد شهرين من الزواج حملتُ منه ، وعلى إثر خلاف بسيط مع أحد هؤلاء الأبناء عملتُ بمشورة أمي ورجعتُ إلى بيت الأسرة ، وراحتُ أمي ترعاني خلال فترة الحمل ، وراح زوجي يتردد عليّ في بيت العائلة ويحاول إعادتي إلى بيت الزوجية بلا طائل . . ثم طلبتُ منه أن يدعني في بيتها إلى أن أضع مولودي ، فقبل ذلك ، ورزقتُ بطفل جميل شديد الشبه بوالده .

وعاد زوجي مرة أخرى يطلب رجوعي إلى بيته . . لكن أمي قالت لي :
إنني لن أتحمل عناء رعاية طفلي وخدمة أبنائه في الوقت نفسه ، وبالتالي فإن عليه أن يدبر هو أمور بيته بنفسه فيُحضر لأبنائه شغالة أو طبّاخًا ، ويدعني مع طفلي في بيت أسرتي ويتردد عليّ من حين لآخر .

واقترنتُ بهذا الرأي ، وطالبتُهُ بتنفيذه . . فرفضه رفضًا قاطعًا ، وظلّ عامًا كاملًا يطالبني بالعودة إلى بيته بلا يأس ، ويرسل إليّ مبلغًا شهريًا للإنفاق عليّ وعلى الطفل ، وأنا أرفض العودة إلى بيته . . وأخيرًا ضاق بهذا الوضع فهددني بالامتناع عن الإنفاق عليّ وعلى الطفل إذا لم أرجع إلى بيت الزوجية مع طفلي ، لكنني لم أعبأ بتهديده ، فنفذ وعيده بالفعل وامتنع عن إرسال المبلغ الشهري إليّ ، ونصحتنى أمي برفع قضية نفقة ضده ، ففعلتُ . . وما إن تسلم هو إعلان القضية حتى أرسل إليّ ورقة الطلاق الثالثة . . ولك أن تتصور ما شعرتُ به من غُصّة في حلقى وألم يعتصر قلبي لهذا «الحظ العاثر» !

وعندما أفقتُ من شدة الصدمة، رحْتُ أتودد إليه لكي يردني إلى عصمته ووافقتُ على كل شروطه - ومنها شرط العودة إلى منزله . . لكنه رفض ذلك بإصرار . . ثم فوجئتُ به - بمجرد انتهاء عدتي - يتزوج من أخرى، فأصابني خبر زواجه في مقتل . . وتدهورتُ حالتي الصحية والنفسية، ويعلم الله وحده ما أنا فيه الآن من عذاب وألم وحيرة وندم، فقد مضى الآن عام طويل على زواجه لم يرَ خلاله طفله مرة واحدة . . ومازالت القضايا قائمة بيني وبينه في المحاكم، وإني أعترف لك بأنني أخطأتُ . . لكن انتقام والد طفلي مني كان قاسياً وشديداً . . فانصحني بما أفعل يا سيدى، حيث لم تعد نصائح أمى تُجدى شيئاً بعد أن فقدتُ الزوج والأب لطفلي والأمان !

●● ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

أى «حظ عاثر» تتحدثين عنه يا سيدتى ؟ . . لقد تزوجتِ عقب تخرجك فلم يطل زواجك الأول أكثر من عام واحد، ثم تلقيتِ ورقة الطلاق بسبب كثرة الخلافات كما تقولين . . ومعنى أنكِ قد «تلقىتِ» ورقة الطلاق هو أنكِ قد هجرتِ بيت الزوجية ورجعتِ إلى بيت أسرتكِ قبل أن تتسلمي هذا الإشعار ببضعة شهور على الأقل، وبالتالي فإن زواجك الأول لم يَدُم عملياً سوى أربعة أو خمسة أشهر على الأكثر .

ثم تزوجتِ مرة ثانية فلم يطل زواجكِ هذه المرة سوى ثمانية شهور . . ثم «تلقىتِ» ورقة الطلاق من جديد، مما يفيد أن عشرتكِ لزواجكِ الثانى

لم تدم كذلك سوى ثلاثة أشهر أو أربعة على أقصى تقدير . . ثم تزوجت من رجل ثالث لم يُخَفِ عنك من أمره شيئاً، ولم يكن هناك من جانبك أى سوء إدراك لحاجته إلى زوجة تعنى بأمره وتدير شئون بيته وتعوض أبنائه عن حرمانهم من أمهم . . فلم يَدُم زواجك منه عملياً أكثر من شهرين اثنين هما مجموع ما أمضيته في بيت الزوجية . . ثم هجرت البيت لخلاف بسيط مع أحد أبنائه، ورجعت إلى بيت أسرتك واعتصمت به عاماً وسبعة شهور، رافضة العودة إلى زوجك، ومطالبة إياه بالخضوع لإرادتك في الإبقاء على هذه الصيغة المبتكرة من العلاقة الزوجية، وهى صيغة «الزواج عن بعد» . . حيث تبقى في بيت والدتك لترعاك وتحمل عنك عناء تربية طفلك . . ويتردد هو عليك من حين لآخر مع تحمله لجميع مسؤولياته المادية والاجتماعية عنك بغير أن تتجشمى عناء أى شىء من رعاية لبيته وأبنائه، أو اهتمام بأمره وبحياته كما ينبغى للزوجة الحقيقية أن تفعل مع زوجها .

وحين ينفذ صبره عليك بعد عام طويل من الرجاء ومحاولات إقناعك بالعودة لبيت الزوجية، يهددك بالامتناع عن الإنفاق عليك وعلى طفلك، فلا تأبهين - وبثقة غير مفهومة في النفس - بهذا التهديد، وتواصلين الإصرار على الهجر ورفض العودة، والرغبة في إملاء الشروط . . فلا يملك الرجل في النهاية إلا أن ينفذ وعيده ويتوقف عن الإنفاق عليك، فلا تترددين أنت لحظة واحدة في المبادرة بفحش الخصومة وإقامة دعوى قضائية ضده بدلاً من أن يعيدك ما فعل إلى

رشدك ويقنعك بجدية إصراره على عودتك إلى بيت الزوجية، فتكون العاقبة الطبيعية لهذا الحُمق والطيش والاندفاع هو «تلقى» ورقة الطلاق الثالثة.. وشكوى الزمان واتهام الحظ العاثر!.. فأى شكوى تحق لك.. وأى حظ عاثر تلومين!؟

أو لم تتعلمي يا سيدتي شيئاً.. أى شىء من تجربة فشلك مرتين قبل هذا الزواج، فتحاولين التعامل بأى قدر من الحكمة مع الزوج الثالث الذى سَخَتْ به عليك الأقدار!؟.. ألم تحاولي تجربة أية حيلة جديدة لإنجاح الحياة الزوجية عدا الفرار من عش الزوجية بعد شهرين أو ثلاثة كل مرة، والعودة إلى كنف والدتك والعمل بنصائحها «الحكيمة»!؟ وماذا كنتِ تنتظرين من زوجك أن يفعل حين يتلقى إعلان قضية النفقة المقامة منك ضده وقد صبر عليكِ عاماً وسبعة شهور طويلة بغير أن يستقر جنبه بك سوى شهرين فقط طوال هذه الزيجة التعيسة؟.. هل كنتِ تتوقعين أن يعتبر هذا الإعلام دليلاً جديداً على أصالتك ونبل صفاتك وكريم تسامحكِ معه و«صبرك» عليه؟.. لقد قدمتِ له يا سيدتي - وبمشورة والدتك المجربّة - أسوأ مثل على الجحود والعدوانية والحُمق وفحش الخصومة عند أول بادرة.. فأى عجب فى أن يرد هو على ذلك بطلاقكِ ورفض إعادتكِ إلى عصمته؟.. إنكِ تقولين: إنكِ قد رحّت بعد «تلقيكِ» ورقة الطلاق الثالثة فى حياتكِ تتوددين إليه وتقبلين كل شروطه، ومنها شرط العودة إلى المنزل.. فكيف فات عليكِ أنكِ كنتِ تتحدثين عن قبولكِ لشرط العودة إلى المنزل وكأنه «تنازل» أو

«تضحية» كبرى تقدمينها إليه مقابل إعادتك إلى عصمته ، وليس كحق شرعى بديهى له أن تشاركه حياته وتقيمى معه حيث يقيم ؟ . .

لقد فاض به الكيل وأدرك أنك لم تتعلمى شيئاً ولم تستفيدى من تجاربك الثلاث السالفة ، فيئس منك وانصرف إلى غيرك ممن لا يعتبرن الحياة مع الزوج فى بيت واحد «تنازلاً» ولا تضحية، ولا يعتبرن مشاركة الزوج حياته ومسئولياته وهمومه شيئاً قابلاً للمناقشة لأنه من بديهيات الحياة الزوجية . . ولقد كان الفيلسوف الألمانى «شوبنهاور» يقول : إن الزواج هو اتحاد إرادتين من أجل إرادة أعلى .

وكانت «الإرادة الأعلى» التى يقصدها هى الطفل أو الأبناء الذين ينجبهما الزوجان ، فتتحد إرادتهما من أجلهم ومن أجل إسعادهم . . وأنت - فيما يبدو - لم تعرفى من الزواج سوى محاولة فرض إرادتك وحدها على من يرتبط بك من الأزواج . . ولم يعلمك الفشل مرتين تصحيح مفاهيمك الخاطئة للزواج فتعرفى أنه أخذ وعطاء، وحقوق وواجبات، وصبر ووفاق ، وأشياء أخرى كثيرة . . وأضعت من بين يديك هذا الرجل الثالث لأنك لم تدركى أبسط حقائق الحياة، وهى أنه لم يكن يبحث عن مغامرة عاطفية يزور فيها شريكته فى بيتها، حين يفيض به الشوق إليها . . أو يغنى تحت شباكها كما كان العشاق فى إسبانيا القديمة يفعلون . . أو يستأجرون الفرق الغنائية المحترفة لتغنى لها بدلاً منهم إذا كانوا لا يحسنون الغناء، وإنما يحتاج إلى شريكة لحياته وربة لبيته وأم بديلة لأبنائه، تشاركه أتراح الحياة وأفراحها . ولهذا فلقد رفض أن يقبل بصيغة

الزواج عن بُعد التي أردتِ فرضها عليه . . لأنها صيغة للأخذ فقط دون
أى عطاء من جانبك . . ولأنها لا تحل له مشكلة حياته ووحدته مع
أبنائه . .

ولستُ أُلومه في الحقيقة على إصراره على رفضه لها ولا على إصراره على
عدم إعادتكِ إلى عصمته، على الرغم من أن هناك ضحية بريئة لهذا
الإصرار . . وإنما أُلومه فقط على توقفه عن الإنفاق على هذه الضحية
البريئة وهي طفلكِ منه . . ولو كان لي أن أشير عليه وعلى عليكِ بشيء
لأشرتُ عليكِ أنتِ أولاً بالتنازل عن جميع القضايا التي رفعتها ضده،
وأشير عليه بالتفاهم وديًا معكِ على أداء بقية حقوقكِ الشرعية إليكِ،
وبالاستمرار في الإنفاق على طفله منكِ دون منازعات قضائية ولا تبادل
للقضايا .

وَلِيَطُورِ كُلُّ مِنْكُمَا بَعْدَ ذَلِكَ هَذِهِ الصَّفْحَةَ مِنْ حَيَاتِهِ، وَيَأْمَلُ فِي أَنْ
تَعْوِضَهُ الْأَقْدَارُ عَنْهَا . . وَلْتَحَاوِلِي أَنْتِ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الْأَهْوَالِ أَنْ تَتَعَامَلِي
مَعَ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ - إِذَا قُدِّرَ لَكَ الزَّوْاجُ لِمَرَّةٍ رَابِعَةً - بِفَهْمٍ أَنْضَجِ وَاسْتِعْدَادِ
أَقْلٍ لِلْعَمَلِ بِنِصَائِحِ وَالِدَتِكَ الْمَدْمَرَةِ !



بَيْتُ الْفَاضِلَاتِ

أنا سيدة في الرابعة والعشرين من عمري . . عُقد قرانى وأنا فى عامى الجامعى الثالث على شاب متدين ، واتفقنا على أن يتم الزواج بعد انتهائى من دراستى . . وانتظرنى زوجى عامًا ونصف عام حتى تخرجتُ وأنهىت استعداداتى للزواج ، ثم تزوجنا . . وبدأتُ حياتى الزوجية . . فوجدتُ نفسى تائهة وسط مسئوليات البيت الجديد، ولا أعرف الكثير من الشؤون المنزلية . . فلجأتُ إلى أمى . . فكانت تخدمنى لكنها لم تعلمنى . . وتحمل زوجى تقصيرى فى كل أعمال البيت ، ولم يَشْكُ من ذلك ، كما لم يَشْكُ أيضًا من خلافاتنا التى ظهرت فى الشهور الأولى من حياتنا بسبب اختلاف الطباع . . وتحمل حدثى عليه . . بل وإهاناتى له فى بعض الأوقات !

ثم شعرتُ بالجنين يتحرك فى أحشائى ، فأحسستُ أنه سيكون نقطة قوة لى على زوجى ، فزادتُ حدثى معه . . إلى أن هجرتُ بيت الزوجية لأسباب تافهة ، وذهبتُ إلى بيت أمى حيث وجدتُ الحياة الناعمة بلا

مسئوليات ولا متاعب . . . فازداد إصرارى على عدم العودة إلى بيت زوجى
وطلبتُ الطلاق منه ! . . .

وحاول زوجى إصلاح الأمر بيننا فلم يَلْقَ منا إلا التعنت والجحود،
وكرر المحاولة مرة أخرى قائلاً: إنه يتمسك بحياتى معه وبأن ينشأ ابننا
بيننا، فلم يلق سوى الإهانة منى ومن أمى وإخوتى . . . وتملكنى
الشيطان تماماً حتى إننى تحمستُ لفكرة قرأتها فى كتاب قديم هى إنشاء
بيت للغاضبات تلجأ إليه كل من تغضب من زوجها . . . ورحتُ أتحدث
عن هذه الفكرة كثيراً وأدعو لها . ومضتُ خمسة أشهر وأنا مقيمة فى بيت
أمى دون أن يطلقنى زوجى .

وذات يوم كنتُ أستقل سيارة أجرة، وكان السائق يدير شريطاً لأحد
رجال الدين يتحدث فيه عن هجر الزوجة لزوجها بلا سبب، وعقاب
الله لمن تطلب الطلاق من زوجها من غير سبب، ولمن لا تحسن عشرة
زوجها وتتعامل معه بعيداً عن الرحمة والمودة . . . فدار رأسى، واستغرقتنى
التفكير فى أمرى عدة أيام، وأدركتُ أن كل ما حدث بيننا هو من فعل
الشيطان الرجيم الذى تلاعب بى لأهدم بيتى . . . فعزمتُ على أن أرجع
لزوجى، وأرسلتُ إليه وسيطاً - ليس من أهلى - ليجسّ نبضه ويحاول فتح
الأبواب المغلقة بيننا من جديد . . . ففوجئتُ بزوجى يقول له: إنه لن
يسامحنى على ما فعلتُ به وعلى هجرى له خمسة أشهر كاملة دون ذنب
جناه . . .

لقد أخطأتُ يا سيدى فى حق زوجى وكنتُ أرى أن طاعة أهلى هى

الواجبة عليّ وليست طاعته . . كما كنتُ أوّمن أنهم الأبقى لي وليس هو . . والآن أدرك أن طاعتي لزوجي لا تتعارض مع حق أهلي عليّ ، وأن اعتزالي بهم ينبغي له ألا ينقص من اعتزالي بزوجي . . وأرجو أن تكتب له أنني قد كرهتُ الآن فكرة بيت الغاضبات ولم أعد أشيد بها ، وأنتى مستعدة لأن أقبل يده وقدمه كل يوم حتى يرضى عني . . وأنتى أرجو أن ترجع الحياة الزوجية بيننا كما كانت بحلوها وبمشاكلها «الجميلة» التي سأحملها الآن ، ولن أضيّق بها كما كنتُ أفعل من قبل . . وشكراً لك . .

●● ولكتابة هذه الرسالة أقول :

يخيل إليّ في بعض الأحيان أننا نغالي في تحميل «الشیطان» مسئولية أخطائنا وحمقاتنا ونقص إدراكنا لحقائق الحياة، فنفعل ما تمليه علينا نوازعنا دون تبصّر ولا مراجعة . . ونستجيب لأهوائنا بلا تعقل ولا إنصاف، ثم نبرر لأنفسنا كل ما فعلناه وما ارتكبناه من حماقات بأنه «الشیطان» لعنة الله عليه . . ونعفى أنفسنا بذلك من كل لوم ونستريح!

وهذا هو ما تفعلينه الآن في رسالتك هذه حين تبررين كل ما ارتكبت من أخطاء في حق زوجك بأنه «الشیطان» وحده ولا شيء سواه ! ولستُ أعترض كثيراً على هذا التبرير إذا اعتبرنا شیطان كل إنسان نفسه وتذكرنا قول الشاعر :

عَدُو كُلِّ لَبِيبٍ نَفْسُهُ فَإِذَا مَا

اسْتَحْكَمْتَ مِنْهُ لَا تُبْقَى وَلَا تَذُرُّ !

كما أنى لا أراكِ وحدكِ المسئولة عن تدمير علاقتكِ بزواجكِ، وفراركِ من بيت الزوجية بعد شهر قليلة من الزواج، ولا عن سوء فهمكِ لطبيعة الحياة الزوجية، ولا عن تصوركِ لها كعلاقة صراع بين طرفين يحتاج كل منهما إلى عناصر «للقوة» لكى ترجح كفته فيه على حساب الآخر. . فالحق أن أسرتكِ - وعلى وجه التحديد والدتكِ - تتحمل النصيب الأوفى من مسئولية سوء إعدادكِ لتحمل مسئوليات الحياة الزوجية، ومسئولية نقص إدراككِ لحقائقها الصحيحة !

فلقد بدأتِ حياتكِ الزوجية وأنتِ - كما تقولين - لا تعرفين الشئ الكثير عن الشؤون المنزلية ومسئوليات الحياة الزوجية. . وحين شعرتِ بالضياع والحيرة أمام هذه المسئوليات، فإن والدتكِ قد اكتفت بالقيام عنكِ ببعضها ولم تقم بتعليمكِ كيفية أدائها وتحمل مسئولياتها، ولم تستهدِ فى ذلك بالحكمة الصينية القديمة التى تقول «إنه خير من أن تعطى محتاجاً سمكة، أن تعلمه كيف يصيد السمك» . . كما أنكِ من ناحية أخرى لم تبدلى أى جهد يذكر من ناحيتكِ لتعلمها، ربما لميل لديكِ للدعة والراحة والنفور من المسئولية، ويرجح هذا الظن لدى أن من يرغب فى أداء واجباته ومسئولياته. . فإنه قد يتعلم ما لا يعرفه بالمشاهدة وطلب المشورة. . وبالرغبة القوية فى تعلمه والإرادة. . وليس بالاستعانة بغيره على أدائه. . والرغبة والإرادة لم يتوافرا لديكِ - فيما أتصور - لتحمل مسئوليات الحياة الزوجية. . ولهذا أثرت الاعتماد على غيركِ. . وتغطية قصوركِ وعجزكِ بالحدة على زوجكِ، والتماس أسباب «القوة»

الموهومة لديك في جنينك الذي تحرك في أحشائك. ثم حين ضقت بتبعات هذه المسؤولية فررت من تحملها بافتعال أسباب الخلاف مع زوجك، وفضلت الاستنامة للحياة الخالية من الأعباء والمسئوليات في بيت أسرتك.

ومن عجب أن أسرتك التي كان ينبغي لها أن تعيدك إلى الرشد وتنبهك إلى أخطائك وقصورك، قد وافقتك على طلبك للطلاق من زوجك وأغلقت في وجهه أبواب الرجاء وأساءت إليه. فأى شيطان هذا الذي «تفرغ» تمامًا للوسوسة لك ولأفراد أسرتك بكل هذه الأخطاء والحماقات؟.. لقد أدركت متأخرة بعض حقائق الحياة.. واعترفت لنفسك بخطئك في حق زوجك ورغبتك في استئناف الحياة معه.. فأية وسيلة اخترتها إذن لتحقيق هذا الهدف؟

لقد أوفدت إليه رسولا من غير أهلك لكيلا يعرف زوجك أنه يتحدث إليه باسمك.. وأنت ترغبين حقا في العودة إليه، ولم يعتذر عنك الرسول فيما ارتكبت في حق زوجك من أخطاء، وإنما راح - بناءً على رغبتك - يتحسس مدى استعداده هو لأن يستأنف من جديد محاولاته للصلح معك واستجداء عودتك إليه التي توقف عنها عندما استشعر المهانة والرفض.. فكأنها - حتى حين أدركت خطئك في حق زوجك - قد أبيت الاعتراف له بالخطأ والاعتذار عنه.. وأردت أن ترسلي إليه فقط الإشارة المبهمة بأنه إذا تجرع غصته واستأنف محاولاته لاستعادتك.. فقد تنجح المحاولات هذه المرة..

وليس هكذا يفعل مَنْ يشعر حقًا بفداحة خطئه في حق شريكه ويرغب في أن يقنعه بأنه قد تعلم درس التجربة واستفاد من أخطائه، وأصبح أكثر استعدادًا لتحمل مسؤوليات الحياة الزوجية وتفادي العثرات والخلافات السابقة. . . ولأنك لم تبلغى زوجك بهذه الرسالة الصريحة، فإنه قد أجاب رسولك بأنه لم يَعْفُ عنك ولم يغفر .

إننى أنصحك بالألا تمارى فى الاعتراف الصريح المباشر له بخطئك فى حقه ، والاعتذار له عن هجرِك له بلا مبرر طوال الشهور الماضية . . كما أنصحك أيضًا بالألا تتجملى فى مصارحته برغبتك فى العودة إليه وبدء صفحة جديدة معه على أسس صحيحة ومختلفة للحياة الزوجية ، فهذا وحده هو ما سوف يقنعه بأنك قد تعلمتِ حقًا درس التجربة واكتسبتِ فهمًا جديدًا لحقائق الحياة . . فاتصلى بزوجه يا سيدتى وأبلغيه بهذه الرسالة المباشرة ، وتحملى عتبهُ عليكِ ومرارته منك حتى تصفو نفسه . .

الضمر الضائع

بدأت قصتي حين تعرفتُ على زوجتي وعشنا معاً قصة حب طاهرة توجناها بالزواج منذ عشرين عاماً . . . وبدأنا حياتنا المشتركة معاً من نقطة الصفر، بل مما هو تحتها . . . وضحتُ زوجتي من أجل حبنا برغد العيش الذي كانت تتمتع به في بيت أسرتها قبل زواجنا، وبالسهر والملابس الغالية والمصروف المفتوح في كنف أسرتها، وانتقلتُ معي من القاهرة إلى المدينة الساحلية الصغيرة التي أعمل بها .

وأنجبنا ابنتنا الأولى، وأسهمتُ معي زوجتي بثمن شبكتها في بناء عش الزوجية . . . ومضتُ سنواتنا جميلة وسعيدة، واكمل بيتنا تدريجياً حتى أصبحتُ به كل الكماليات، وامتلكنا السيارة، ورزقنا بابنة ثانية، فأصبحتُ مع أختها هما الحب الكبير في حياتنا .

وانصرفتُ أنا إلى عملي وشُغلتُ به كلية، وتركتُ لزوجتي مسؤولية كل شيء في حياتنا المشتركة من البيت إلى البنيتين إلى كل شيء . . . ووجدتها تحب ذلك وشخصيتها مناسبة له، لأنها - بصراحة - «بهائة رجل» . . .

فتركتُ لها المسئولية، وأصبح بيتها وابنتاها هم كل شيء في حياتها، وعاشت معي في حرية كاملة، ووثقتُ بها أكثر مما أثق في نفسي، وزاد اهتمامي بعملِي، فكنْتُ أرجع إلى البيت فلا أفكر إلا في راحتي وما سوف أقوم به في اليوم التالي من مهام، فإذا رغبتُ زوجتي في أن نخرج معًا للنزهة رفضتُ وتركتُها تخرج وحدها. . . وإذا رغبتُ هي في ممارسة الرياضة تركتُها لما تريد وفضلت النوم والراحة ومشاهدة التلفزيون. . . وإذا رغبتُ هي في مشاهدة فيلم السهرة في التلفزيون تركتُها تشاهده ودخلتُ غرفة النوم ونمتُ. . . وهكذا. . .

إلى أن تنبهتُ منذ فترة إلى أن الصمت قد حل بيننا وأصبح هو اللغة المشتركة في علاقتنا، وأنا أصبحنا لا نكاد نلتقي داخل البيت حتى ولو أمضيتُ النهار كله فيه إلا للنوم. . . ونتيجة لتفرغي الكامل لعملِي فقد حققتُ فيه مركزاً مرموقاً، وتحسنتُ أوضاعنا المادية كثيراً وبدأنا نجني ثمار كفاحنا، لكن الحياة في بيتنا استمرت على نفس الوتيرة: لا نزور أحداً ولا يزورنا أحد، ولا يدق بابنا غالباً سوى بائع اللبن. . . وأنا في عملي، وزوجتي في البيت، والبنتان مع صديقاتهما في النادي.

وفجأة - وبعد عشرين عاماً من الزواج - بكت زوجتي بكاءً مريراً وهي في زيارة لشقيقتها في القاهرة - وكانت قد اعتادت زيارتها في الفترة الأخيرة كثيراً - وطلبتُ الطلاق!

لماذا؟! ماذا حدث؟! . . . لا جواب سوى أنها لم يعد لديها ما تعطيه لنا ولا تستطيع العطاء أكثر من ذلك. . . وأن «ابنتيها» لم تعودا في حاجة

إليها لأنها تستطيعان الآن الاعتماد على نفسيهما ، وأنها تشعر بأن سنوات عمرها قد ضاعت منها وتريد أن تحيا ما بقى من عمرها !

وحاولتُ المستحيل معها لإثنائها عن رغبتها بلا جدوى ، واستسلمتُ في النهاية لما أرادت . . . وتم الطلاق بيننا في هدوء . . . وفي تقديري أنها مجرد فترة من الإرهاق النفسى ترجع زوجتى بعدها إلى نفسها لتعود الحياة إلى مجاريها بيننا ، وغادرتُ هى البيت والمدينة الصغيرة وتوجهتُ إلى القاهرة للإقامة لدى أشقائها . . .

ومنذ ذلك الحين أصبحتُ زوجتى «السابقة» وأم ابنتى بلا عنوان بالنسبة إلينا ، وكلما حاولنا الاتصال بها لدى أحد أشقائها بالقاهرة - وهم كثيرون - كان الجواب أنها ليست موجودة ، أو سافرتُ إلى حيث لا يعلمون . . . وأصبحتُ هى فقط التى تتصل بنا للاطمئنان على البنتين من حين لآخر ، وإذا اتصلتُ لم تترك مجالاً لأى حوار . . . واستمر الحال هكذا طوال شهور العِدَّة التى أوشكتُ الآن على الانتهاء . . .

إننى يا سيدى لا أدرى ماذا حدث؟! . . . ولا أعرف لماذا ضاقت زوجتى بحياتها معنا فجأة؟! . . . هل اشتاقت لأضواء المدينة وإلى السهر والفسحة والخروج والمصيف التى انتقلت منها للزواج؟ أم أن هناك أسباباً أخرى؟ . . .

لقد كانت حياتنا تمضى هادئة ، وكانت تحدث بيننا المشاكل العادية التى تقع فى أية أسرة . . . لكن الحياة كانت ماضية فى طريقها ، فإذا كان

ثمة خطأ قد وقع فإني أستطيع أن أحده وأعترف به ، وهو أنني الآن أعرف - وبالثلثن الغالى - أن الحياة ليست عملاً فقط ، وأن كل طرف ينبغي له أن يشعر بأهميته الخاصة وكيانه فى العلاقة الزوجية . . وأسأل نفسى متعجباً : ترى لو أننى قد تزوجتُ إنسانة أخرى الآن ، ألن أعاملها برقة وأعطيها من وقتى ما يُشعرها بأهميتها لَدَى ، وأخرج بصحبتها وأجلس معها وقتاً طويلاً نتسامر ونتحدث؟! . . وألم تكن زوجتى التى عاشرتنى ٢٠ عاماً إذن هى الأحق بمثل هذه الرقة وهذا الاهتمام؟!!

إننى أحب زوجتى هذه وبتتهاها تحبانها بجنون ، لكن المشكلة هى أننا لا نعرف لها عنوانا الآن . . فهل نستطيع أن نجده عن طريقك ؟ وهل تكتب إليها كلمة تناشدها فيها الاستماع إلى نداء الحب والعقل ، فترجع إلى بيتها وزوجها لكى أعوضها عما فاتها معى بعد أن أدركتُ خطئى ، وإلى بنتيها اللتين تفتقدانها لأنها الوحيدة القادرة على إعادة هذا البيت الذى تحطم . . ؟

إننى أرجوك أن تقول لها : إن كل المظاهر التى تسعى وراءها الآن زائفة وزائلة ، وسرعان ما سوف تصدمها الحقيقة حين تفقد كل شىء فى لحظة خاطفة . . وقل لها : إن هناك فرقاً بين الحب الحقيقى والحب الزائف ، وإن الحب الحقيقى عطاء وسعادة وراحة نفسية ، والحب الزائف أقراص مهدئة ومنومة ومضادات للألم سرعان ما يزول أثرها .

وقل لها أيضًا: إننا نسامحها على كل هذا الألم الذي سببته لنا خلال الفترة الماضية، وسوف نغفر لها هذه «الفترة» العابرة من حياتها، وسيكون باب بيتي مفتوحًا لها دائمًا لتعيد إعمارها مرة أخرى، فهل تجفف دموع ابنتيها اللتين تبكيان ألمًا وحرزًا على فراقها؟ وهل تستجيب لنداء العقل والحب الحقيقي؟

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول:

المراة لا تُقدِّمُ على هذه الخطوة المدمرة فتتهجر ابنتين في سن الشباب وزوجًا عاشرته عشرين عامًا وحياة عائلية بأكملها، لمجرد الاشتياق إلى نمط حياتها السابق في بيت أهلها من سهر ونزهات وخروج. . إلخ، وإنما تفعل ذلك فقط حين يتزلزل كيانها كله بمؤثر خارجي غلاب يحسم داخلها الصراع الطويل بين نداء الواجب العائلي ونداء السعادة الشخصية خارج إطار الأسرة الصغيرة.

ولهذا فلستُ أظن أن انشغالك بعملك وحلول الصمت بينكما في الفترة الأخيرة هما السبب الحقيقي لهذا الانهيار المفاجيء لأسرتك، وإنما كانا فقط «الظرف الداخلي» الذي مهد أرض زوجتك لهذا الزلزال المدمر، فجاء الحديث المكرر في مثل هذه الحالة عن سنوات العمر الضائعة والرغبة في الحياة ما بقى للإنسان من عمر. . وهو حديث مألوف لدى مَنْ يحسم الصراع داخله - بين نداء الواجب العائلي والإنساني، ونداء السعادة الشخصية كما يتصورها لنفسه - لمصلحة اعتباراته الشخصية، وعلى حساب سعادة أبنائه وواجباته العائلية والإنسانية.

والبعض يشبهون الروابط الزوجية بجديلة الشعر المتينة التي تحتاج من الطرفين إلى العناية المستمرة بها ، وإلا تقصفت شعيراتها واحدة وراء الأخرى على مدى السنين ، إلى أن يجيء اليوم الذي يصبح فيه ما بقى منها أوهى من خيط العنكبوت . . فإذا تعرضت الأرض المشتركة بين الزوجين إلى رجفة قوية ، تقطعت آخر هذه الخيوط ، ووقع الانفصام تماماً كما تنفصم القشرة الأرضية فجأة بتأثير الزلزال الذي تحرك في باطنها .

والرجفة الشديدة التي قطعت الشعرة الأخيرة بينك وبين زوجتك هي ما تعبر عنه أنت في رسالتك هذه «بالفترة العابرة» في حياتها الآن ، وبالحدِيث المؤلم عن الفرق بين الحب الحقيقي والزائف ، ودعوتك لها للاستماع لنداء العقل والتمييز الواعي بينهما ، وهو حدِيث مؤلم لنفس الرجل ومشاعره ولا أريد الاستطراد فيه .

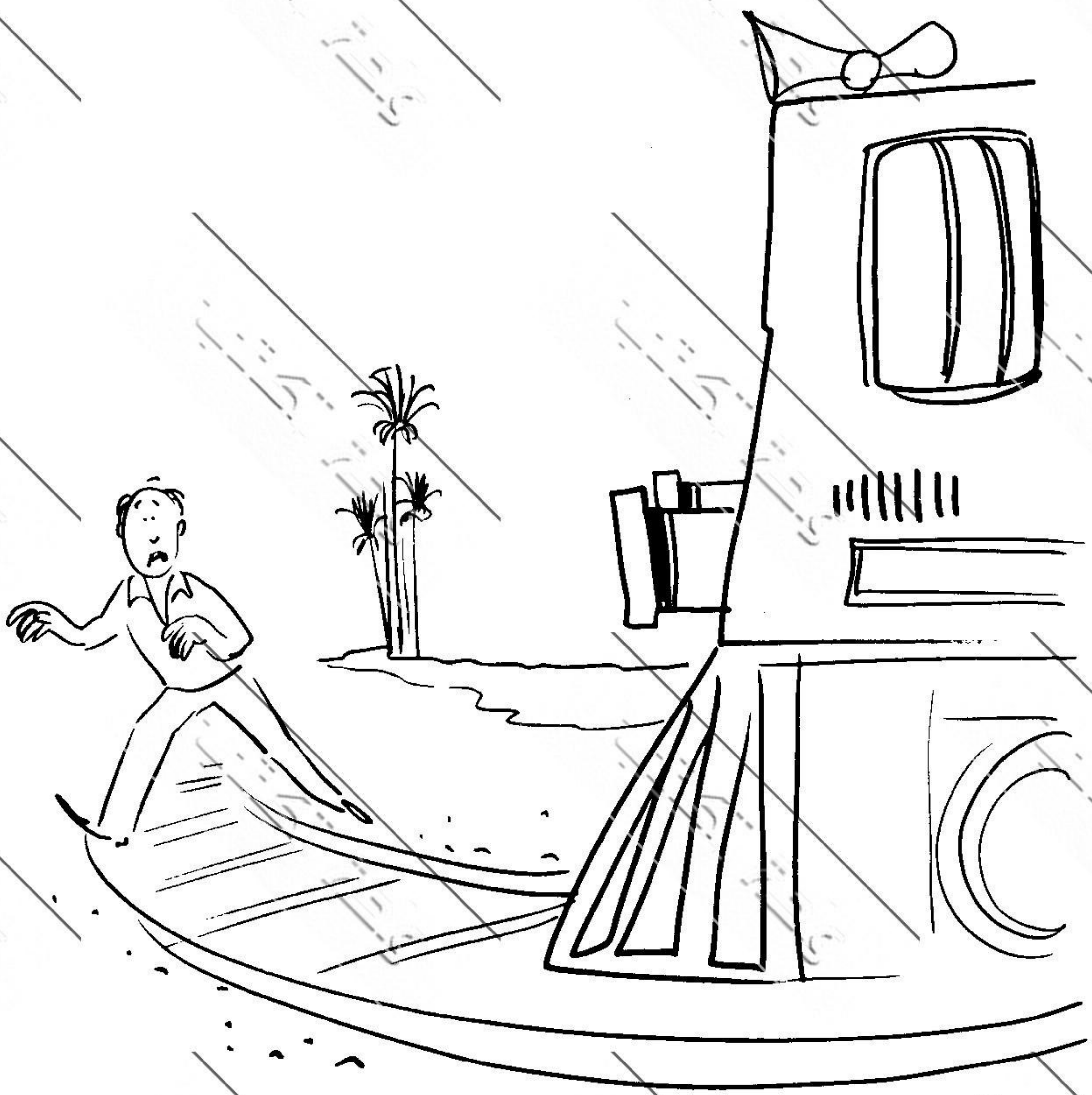
ولهذا فلن أقول لزوجتك السابقة سوى : إن من الزوجات من لا يضحين بسعادة أبنائهن - خاصة إذا كنَّ من البنات - بمغريات الدنيا كلها ، وإن منهن مَنْ لا تصفو هن السعادة مها بلغ شأوها إذا كان ثمنها هو تعاسة أبنائهن وحيرتهم وحرجهن الإنساني أمام الآخرين .

وإن الحدِيث عن سنوات العمر الضائع - إذا كان مقبولاً ومفهوماً لدى من لا ينشغلون إلا بطلب سعادتهم الشخصية على حساب سعادة الأعراء واعتباراتهم - هو حدِيث مرفوض لدى من لا تنهأ لهم الحياة إلا إذا ارتبطت بسعادة أبنائهم وأمانهم واستقرارهم . . ولكل إنسان في النهاية

أن يختار لنفسه ما يراها جديرة به ، فيكون من الباحثين عن أنفسهم بغير
مبالاة بواجباته العائلية والإنسانية ، أو يكون من أهل التضحية والواجب
الإنساني وترجيح سعادة الأبناء على كل الاعتبارات .

ولنفسك في النهاية ما تختارين ، وعليها عاقبته وضريبته ، فإن
قدمت العطاء لأبنائك وأسرتك إلى النهاية فلك من خلال سعادة أبنائك
ووفائهم لك عائد ما أعطيت . . وإن قدمت الخذلان والأثرة وتفضيل
الذات على الجميع ، فعليك أيضاً عاقبة ما قدمت وما سوف تدفعين
ثمنه الغالى من علاقتك بأبنائك . . وقديماً شاهد «الحسن البصرى» أميراً
يضرب رجلاً بالسوط ، فقال له : «والله ما تضرب سوى نفسك ، فإن
شئت فأكثر وإن شئت فقلل» . .





لمحة القُبُور

أنا سيدة من قارئات بابك منذ عام ١٩٨٥ حتى الآن . . ولم أتصور أن يجيء اليوم الذي أصبح فيه صاحبة إحدى مشكلاته . . فلقد تزوجتُ من موظف بإحدى الوزارات وأنجبنا ثلاثة أبناء ، وسافرنا جميعًا في منتصف السبعينيات إلى إحدى الدول العربية ، حيث عمل زوجي في وظيفة بإحدى الهيئات وعملتُ أنا أيضًا في تخصصي . . ورجعنا إلى بلدنا بعد رحلة غربة طويلة ، والتهمتُ شركات توظيف الأموال جزءًا كبيرًا من حصيلة شقاء الغربة ، ووضعنا الجزء الباقي في البنك ليدر علينا دخلًا شهريًا يعيننا على مواجهة الحياة ونفقات الأبناء . .

ومضت بنا الأيام بحلوها ومرّها، وتركتُ عملي وتفرغتُ لزوجي وأبنائي . . وأمنتُ دائمًا بأنه لا فرق بين الزوجة وزوجها من الناحية المادية ، وشجعني على ذلك أن زوجي رجل عطوف وحنون ويحبني حبًا عظيمًا . . كما أنني لاحظتُ عليه بعد عودتنا واستقرارنا في مدينتنا بالأقاليم اهتمامه البالغ فيه بزميلة له في العمل متزوجة ولها أبناء . . لكنني

استبعدتُ أن يكون معجبًا بها، ولم أمانع في التعرف عليها استجابة
للحاح زوجي على ذلك . . وتم التعارف بيننا، فأصبحتُ هذه السيدة
بعد ذلك جزءًا من حياتنا . تزورنا هي وزوجها وأبناؤها كل يوم تقريبًا،
ويحرص زوجي على وجودها لأطول وقت ممكن . . وبعد فترة أخرى
وجدتُ زوجي متحمسًا لإنشاء مشروع تجارى صغير، يموله زوجي
ويشارك فيه زوج هذه السيدة بالعمل والمجهود . . وبدأ المشروع
بالفعل، وتحسنت أحوال «الشركاء» المادية، ووجدتُ هذه السيدة أثاث
بيتها، واشترت الذهب والملابس لنفسها ولأولادها . . وكل هذا وأنا أنبه
زوجي إلى أن هذه النفقات الجديدة من رأس مال المشروع أو أرباحه،
وزوجي يرفض تصديق ذلك ويكذب ظنوني ويتهمنى بالتجنى على
هذه السيدة وزوجها بدوافع الغيرة .

وثارت مشاكل عديدة بينى وبين زوجي بسبب هذا الأمر، وطلبتُ
منه الطلاق بعد أن أصبح الوضع بينه وبين هذه السيدة المتزوجة مُخرجًا
أمام الأبناء، كما طلبتُ أيضًا أن يجعل جزءًا من المال الذى شقيتُ فى
جمعه خلال سنوات الغربة باسمى . . ولم يستجب زوجي لهذا الطلب أو
لذاك . . ومن شدة غيظى وحنقى وضيقى بما أراه دعوتُ عليه بالموت
مرارًا وتمنيتهُ له بالفعل لأنه لا يستجيب لى، وإنما يستجيب لرغبات هذه
السيدة الملعونة . . لا لشيء إلا لأنها بيضاء البشرة وأنا سمراء !

وتعجبتُ غاية العجب كيف لرجل مثل زوج هذه السيدة أن يرضى
لنفسه أن يلمس اهتمام رجل آخر بزوجته وغمره لأسرته بالهدايا والأطعمة

الفاخرة ، ولا يتشكك في نية هذا الرجل الغريب تجاه زوجته ، ولا يعترض على ذلك ، بل يتقبل ذلك بسعادة ورضا؟! . . . وكل ذلك وأنا المخلصة الوفية لزوجي لا ألقى منه سوى التجاهل لرغباتي وتحذيراتي!!

لقد سلمتُ أمرى إلى الله . . . وغلبني حبي لأولادى الذين منحتهم زهرة عمرى على إحساسى بكرامتى كزوجة ، وتركتُ لمن لا يفغل ولا ينام أن يحل هذه المشكلة التى أَعْيَنِي الحيلة فى حلها . . .

و ذات يوم ركبْتُ السيارة مع زوجى إلى المدينة المجاورة لمدينتنا - حيث لا يفصل بينهما سوى الكوبرى - لكى يدفع زوجى مبلغاً من المال لأحد الأشخاص هناك . . . وتوقف زوجى بالسيارة قرب محطة السكة الحديد وترك لى مفاتيحها ، واستأذن فى أن يغيب عشر دقائق فقط يعبر خلالها شريط القطار ويدفع المبلغ المطلوب ثم يرجع إلى . . . وراقبتهُ فى صمت وهو يتجه إلى شريط القطار لكى يعبره . . . وقبل أن يصل إليه أذن لصلاة العشاء فى مسجد المحطة الصغير ، فاتجه إليه زوجى بدلاً من عبور القضبان ، وأدى الصلاة ، وغاب بعد ذلك عن نظرى فلم ألاحظه وهو يتجه إلى غايته أو يرجع منها . . . ومضى الوقت وطال بغير أن يرجع . . . وبعد نصف الساعة مرت من جوارى سيارة إسعاف تدوى صفارتها المزعجة ، فانقبض صدرى . . . وبعد ساعتين أخريين غادرتُ السيارة لأبحث عن زوجى ، فإذا بى أعرف أن قطاراً قد دَهَمَ رجلاً لحظة عبوره لشريط القطار عند المحطة ، وأنه نقل بسيارة الإسعاف وهو فى حالة سيئة إلى المستشفى . . . وبطريق المصادفة البحتة اكتشفتُ من أحاديث

من حولي أن هذا الرجل هو زوجي ، فمادت بي الأرض وسقطت مغشيًا
على . . . وتعاون الناس على حملي للسيارة وإعادتي للبيت حيث تأكدت
من رحيل زوجي عن الحياة - يرحمه الله . . .

وتحملت الصدمة المؤلمة وحدي ، وصبرتُ على أقداري ومصيبتى في
أعز إنسان لَدَيَّ في الوجود . . . والآن - وبعد عشرة أشهر على وفاته - لا
أستطيع أن أصف لك عمق حزني عليه وهو من كان زوجي وحببي
وأخي وكل من لي في الحياة . . . ولقد مرضتُ بالسكر وساءت حالتي
الصحية والنفسية ، وأصبح السؤال الذي يؤرقني ويضاعف من همومي
وأحزاني هو : هل دعائي على زوجي بالموت هو الذي عَجَّلَ بوفاته ؟
وهل استجاب الله سبحانه وتعالى لدعائي المذموم هذا عليه ؟ أم أنه قدر
مكتوب من قبل أن يأتي إلى الحياة ؟

إنني مؤمنة بقضاء الله وقدره وصابرة على أقداري ، لكن ضميري
يعذبني وأعاني من الاكتئاب والإحساس المؤلم بأنني السبب في وفاة
زوجي ، وأدعو له الله بالمغفرة والرحمة ، وأتعلق بالأمل في أن يكون موته
عقب خروجه من المسجد مباشرة - كما علمتُ - إشارة إلى أن الله -
سبحانه وتعالى - قد غفر له كل ذنوبه ، لكن عقلي يكاد ينفجر كلما
تذكرت الطريقة الفظيعة التي لقي بها زوجي مصرعه . . . رحمه الله .

وأرجو من قرائك جميعًا أن يقرأوا له الفاتحة ترحمًا عليه . . . وأخيرًا فإنني
أتساءل : ألا يحق لي أن أقاضى هيئة السكك الحديدية لمسئوليتها عن

مصرع زوجي حيث كانت محطة القطار عند عبوره لها مظلمة تمامًا فلم يرَ القطار الذي دهمه ، وبعد الحادث تم إصلاح الإنارة فيها ؟ . . وهل أجد من قرائك من المحامين من يتبنى هذه الدعوى القضائية ، ولدى كل الأوراق والمستندات المؤيدة لها ؟

●● ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

هونى على نفسك يا سيدتى ، فإن الآجال لا شىء من دعاء البشر يُعجلُ بها أو يؤخرها ، وإنما هى - كما جاء فى الأثر - كالرزق والسعادة ، تُقدر على الإنسان وهو فى رحم أمه ، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١) صدق الله العظيم .

غير أنه ليس من المستحب أن يرجو الإنسان موت أحد مها كان حانقاً عليه أو مكلوماً منه . . خاصة إذا كان هذا الإنسان شريكاً له فى حياته أو قريباً منه ، لكنه ينقم عليه فقط بعض أفعاله . . ومن الأفضل دائماً أن يعتصم المرء بالحلم والصبر على من آذوه ، وأن يدع أمرهم لخالقهم راجياً أن ينصفه - سبحانه وتعالى - منهم بعدله ورحمته . فإذا ما نزلت بهم النوازل لم يشمت فى مصيبتهم ولم يفرح لها ، وإنما اكتفى بالاعتبار والصمت ، والتفكر فى عدالة الخالق وعبرة الأحداث .

ومن الأفضل كذلك إذا اشتد ضيق المرء بجناية البعض عليه وظلمهم له ، أن يدعو بدعاء الرسول - صلوات الله وسلامه عليه -

(١) سورة النحل ، من الآية ٦١ .

المأثور عنه : (رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ ، وَاَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ ، وَاْمَكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ ، وَاَهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهَدْيَ لِي ، وَاَنْصُرْنِي عَلَيَّ مَنْ بَغَى عَلَيَّ) .

وفي ذلك ما يغنى المرء عن تمنى الأذى للآخرين انتصافاً لنفسه أو ثأراً لها منهم ، وما يطهر الصدور من سخائمها ، ويعفى الإنسان من الإحساس المرير بالذنب إذا تصادف أن أصابت الأقدار مَنْ اشتد به حنقه عليهم فرجا لهم الأذى . . . ومن دعاء الرسول الكريم كذلك - صلوات الله وسلامه عليه : (رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي ، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي ، وَأَجِبْ دَعْوَتِي ، وَثَبِّتْ حُجَّتِي ، وَسَدِّدْ لِسَانِي ، وَاَهْدِ قَلْبِي ، وَاَسْأَلُ سَخِيمَةَ صَدْرِي) .

ومن سداد اللسان وهداية القلب وُخْلُوَ الصدر من سخيمته ألا يستجيب الإنسان لنوازع الغضب والحنق ، فينطق لسانه بما يندم عليه ، أو ينطوى قلبه وصدوره للآخرين على ما يكرهه لنفسه من الأحاسيس والمشاعر . غير أن الإنسان خُلِقَ عَجُولاً ، فما أن يضيق صدره بشيء حتى يطلق العنان للسانه وتمنياته ، التي لا تعدو أن تكون في أغلب الأحيان مجرد إطلاقٍ للبخار المكتوم في صدره ، ولا تعبر في حقيقة الأمر عن رغباته وتمنياته الحقيقية . . . وما أسرع ما يندم عليها المرء لو تحققت في أرض الواقع .

وحالكِ خير مثال على ذلك يا سيدتى . . . فلقد ضقتِ باهتمام زوجكِ بتلك السيدة ورفضه الاستجابة لك ، فما إن أصابتهُ الأقدار في موعدها المقدور حتى عضكِ الندم ، وعانيتِ الوحدة والوحشة وفقدان

الرفيق ، واستشعرتِ جسامة الخسارة الإنسانية التي أصابتك ، ورجوتِ
لو كانت الحياة قد امتدتْ به ولو كان في العمر ما فيه من الحسرات . .
فأما مصرعه وقد خرج لتوه من المسجد ذاكر القلب واللسان ، ومنتظراً ،
فلعله من علامات القبول والإجابة ، بإذن الله . . وأما عن مقاضاتكِ
لهيئة السكك الحديدية لمسئوليتها عن مصرع زوجكِ الراحل - يرحمه الله -
فهى من حَقِّكِ ، بل من واجبكِ أيضاً تجاه نفسكِ وزوجكِ الراحل
وأبنائكِ ، ذلك أن سكوت صاحب الحق المنهوب عن حقه قد يجعل
المعتدى صاحب حق في الاعتداء ، أو يغريه بمواصلة عدوانه على
الآخرين بلا رادع ولا عقاب!





الشُّعَاعُ الْوَحِيدُ

قرأتُ رسالة « لحظة العبور » للسيدة التي فقدت زوجها تحت عجلات القطار - عقب خلافها معه - وتشعر بالندم على سابق دعائها عليه بالموت، فأثارت الرسالة شجونى، وذكَّرتني بما أحاول نسيانه خلال البقية الباقية من عمرى . .

فأنا سيدة تزوجتُ عقب دراستى الثانوية منذ ٣٨ عامًا من رجل فاضل يكبرنى بـ ٣ سنوات ، ورزقنى الله بولد لم يعيش أكثر من ساعات، وفسَّرَ الأطباء ذلك بالمشكلات الوراثية، نظرًا لصلة القرابة بينى وبين زوجى، فانطويتُ على نفسى وتفرغتُ لرعاية زوجى ، ثم شاءت إرادة الله أن يرزقنى بابنة نجت من مصير شقيقها ، ودرَّجتُ فى العمر حتى بلغت ثلاث سنوات، ثم بابنة أخرى تعلقْتُ بالأمل فى أن تنجو هى الأخرى من هذا المصير، لكنَّ الأجل المحتوم حل عليها بعد أسابيع، فقررتُ أنا وزوجى ألا ننجب مرة أخرى، وشكرنا الله على ابنتنا التى حفظها لنا ، وركزتُ كل حبى ورعايتى فيها، واعتبرتها ملاكى الصغير الذى يضىء سماء حياتى .

والتصقتُ بها . . . ولازمتُها في كل خطواتها . . . ورأيتها وهي تتفتح أمامي كالزهرة النضرة الجميلة ، وما إن بلغت سن الخامسة عشرة حتى وجدنا من شباب العائلة مَنْ يطلب الارتباط بها ، لكنني وزوجي أصررنا على أن تستكمل تعليمها ، وزادني إصرارًا على ذلك أنني لم أكمل تعليمي العالي . . . والتحقتُ ابنتي بالجامعة ، وراحتُ تروى لي عن صديقاتها بالكلية وارتباطهم بشباب من زملاء الجامعة وعدم رضائها عن ذلك ، فازددتُ حبًا لها وإعجابًا بكمالها وعقلها وأخلاقياتها ، ومضتُ بنا الحياة وادعةً سعيدةً حتى أوشكتُ على التخرج ، فإذا بوالدها يرحل عن الحياة ، فيصبح كلُّ منا هو السند الوحيد للآخر في الحياة .

وتخرجتُ ابنتي الغالية في كليتها وبدأتُ رحلة العمل ، وازددنا تلاصقًا واقترابًا ، وأصبحتُ أعتمد في حياتي على معاش زوجي الراحل ومرتب ابنتي التي تضعه في يدي أول كل شهر ، وتترك لي حرية التصرف فيه . . . ثم بدأتُ بعد فترة ألاحظ عليها الشرود وعدم التركيز وبعدها النفسى عنى ، وحاولت أن أتحرى عن طريق صديقاتها سر ما طرأ عليها من تغير ، ففوجئتُ بأنها قد تعرفت على شاب يكبرها بـ ١٢ عامًا ، ويعمل معها في المكان نفسه ، فواجهتها بما عرفتُ عنها فلم تنكره ، وإنما أخبرتني بأنها وافقتُ على الزواج منه ، وأنها كانت تحاول منذ فترة تهيئتي لهذا الأمر ، لكن الحزن الذي سيطر علىّ بعد وفاة أبيها لم يمكنني من ملاحظة ذلك .

وطلبتُ منها مقابلة هذا الشاب لكي أستطيع أن أصدر حكمي عليه ، فلما التقيتُ به لم يترك لَدَيَّ أى انطباع بالارتياح إليه ، خاصة أن إمكاناته المادية عادية ، غير أنني لا أنكر في الوقت نفسه أنني قد رأيتُ الحب في عينيه لابنتي . وعقب انصرافه من البيت ثُرْتُ على ابنتي لأول مرة في حياتي ، وأبلغتها برفضى القاطع لهذا الشاب لأنه دون المستوى الاجتماعى المناسب لعائلتنا ، وأيضاً بسبب فارق السن بينهما .

وبكت ابنتي . . لكنها لم تياس ولم تكف عن محاولة إقناعى به ، وراحت تقنع كل من حولى بالتوسط لها عندى وأنا مازلتُ على موقفى منها ، ولم تياس قط من الأمل فى نيل موافقتى ، حتى حل الصمت والجفاء بيننا ، وأصبحنا غريبتين تعيشان تحت سقف واحد .

واستمر الحال بيننا على هذا النحو خمسة أشهر ، ثم حدث أن رددتُ على التليفون ذات مرة فكان هذا الشاب ، ولتشابه صوتى مع صوتها فقد ظن أنني ابنتى وتحدث معى على هذا الأساس ، فطلبتُ منه الابتعاد عنها لأننى لن أوافق عليه نهائياً ، ولأن هناك من سوف يتزوجها - وهو ابن خالتها . . ثم أغلقتُ الساعة فى وجهه .

ولم أكتفِ بذلك ، وإنما شكوته لمديره فى العمل وافتريتُ عليه بالكثير والكثير ، وحاول الرجل تهدئتى ووعدنى بأن يتدخل لديه لمنعه من تكرار الاتصال بابنتى ، ولم تمض أيام حتى كانت ابنتى قد علمتُ بكل ما جرى . . ولا أنسى نظرتها اللائمة لى . . ولا عبارتها المؤلمة لى بعد أن

ظلتُ للحظات تنظر إليّ في صمت مؤلم : حرام عليك ما تفعلينه بي !
وازداد حاجز الصمت والجفاء الصامت بيني وبينها رسوخاً ،
واستمرت الحياة بيننا على هذا النحو وأنا آمل كل يوم في أن ترجع إلى
طبيعتها معي وتنسى هذا الشاب . .

إلى أن كان يوم انصرفت فيه إلى عملها باكية وهي تكرر لي نفس تلك
العبرة المؤلمة : «حرام والله ما تفعلينه بي» ، فلم أجبها سوى بالدعاء
عليها . . لخصامها وجفائها لي بعد أن كرّست كل حياتي لها ، فغادرت
البيت والدموع في عينيها ، فكانت المرة الأخيرة التي رأيته فيها وهي على
قيد الحياة . . يا حسرة قلبي المكلوم عليها ويا مصيبتى الهائلة فيها !
فلقد تعرضت لحادث تصادم بشع أودى بحياتها القصيرة وشبابها
الغض ، وانطفأ الشعاع الأخير الذي كان يضيء حياتي .

ومضت الأيام بي بعدها وأنا كالميتة . . ما بين مرض ، وعلاج ،
وبكاء لا ينقطع عليها . . حتى استطعتُ بعد أكثر من عام أن أتمالك
بعض نفسي ، وأكرمني الله بأداء العمرة مرتين : مرة لي ، ومرة لابنتي
الحبيبة التي أتمنى أن يعوضها الله في جنته عما حرمتها منه في الأرض . .
وإنني الآن أسترجع ما كان من أمرها معي وأمرى معها وأعجب لنفسي :
لماذا حرمتها مما رأت فيه سعادتها . . وهي التي لم تغضبني قبل هذا
الموضوع ذات مرة ، وكانت دائماً نبعاً للحب والحنان معي ؟!

ويشدد على الألم حين أتساءل : تُرى لو كنتُ قد وافقتُها على ما

أرادتهُ أكان يمكن أن تودع الحياة دامعة باكية قانطة كما رأيتها آخر مرة ؟
أوليس من المحتمل أن يكون حزنها وانشغالها بالها بموقفى منها قد عَجَّلَا
لها بالقضاء ، فلم تَرَ السيارة القاتلة وهى تقترب منها ؟

إننى أرجوك أن تنصح السيدة كاتبة رسالة «لحظة العبور» بألا تكرر
خطأ الدعاء على أحد أعزائها مرة أخرى ، وكل الآباء والأمهات ألا
يفعلوا ذلك أيضاً ، وبألا يتحجروا فى مواقفهم من أبنائهم إذا كانوا لا
يطلبون منهم شيئاً مخالفاً للشرع والدين ، كما فعلتُ أنا مع ابنتى وزهرة
عمرى الوحيدة . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

●● ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

من المؤكد يا سيدتى أن العمر لو كان قد طال قليلاً بهذه الابنة الغالية
فإنك كنتِ ستتوصلين معها إلى حلٍّ مُرضٍ لهذه المشكلة التى عَكَرَتْ
صفوكما فى الفترة الأخيرة من حياتها القصيرة ، وقد كان الأغلب الأعم أن
تتنازلى أنتِ عن معارضتكِ لزواجها وتقبلى بارتباطها بهذا الشاب
وتسعدى بسعادتها ، غير أن عجلة الأيام سريعة الدوران للأسف ، وكثيراً
ما تسبق خطواتنا ورغباتنا ، فنرجو لو كنا قد أسرعنا قليلاً بما تدبرناه فى
أعماقنا ولم نستبعد الإقدام عليه ذات يوم قريب أو بعيد . . لكننا آثرنا -
كما نفعل أحياناً لثقتنا غير المبررة فى الأيام - أن ننتظر بعض الوقت عسى
أن يجيء التنازل والاقتراب من الجانب الآخر . . أو عسى أن نفوز نحن فى
سباق التحمل والمعاناة إلى أن تضعف مقاومة الآخرين ويسلموا لنا

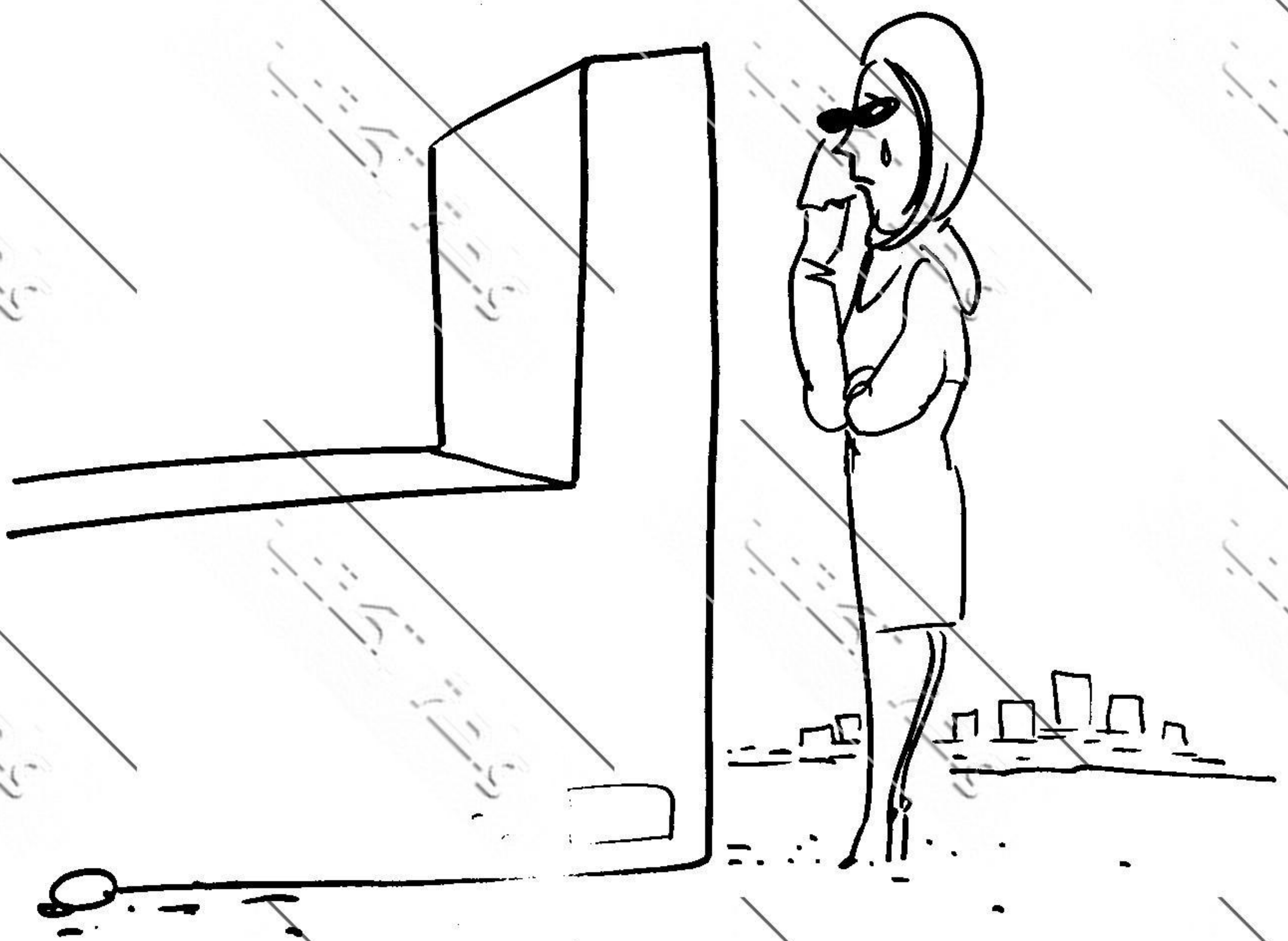
برغباتنا . . وقد نكافئهم في هذه الحالة نحن أيضاً بالاستجابة لبعض رغباتهم .

فإذا حق لأحد أن يحزن فليحزن على أيام العمر الثمينة التي تبددت في الجمود والعناد والكبرياء ، ولنحزن أيضاً على تعجلنا لأسباب الشقاق والجفاء والصدام مع الأعداء . . وقد كان في مقدورنا لو أوتينا الحكمة وبُعد النظر أن نتفادى كل ذلك ، وألا نحرمهم مما رغبوا فيه ورأوا فيه جماع سعادتهم وغاية أمانهم ، وَلَكِنَّا قد أسعدنا أيامهم بالتأييد والمساندة ، وتركنا لتجربة الأيام أن تمتحن صدق اختياراتهم .

فهذا هو واجبنا تجاههم يا سيدتى : أن نخلص لهم النصيح دائماً فيما نراه محققاً لخيرهم وصلاح أمرهم ، ونبذل أقصى ما نملك من جهد لإقناعهم به . . وتبصيرهم بما هم مقدمون عليه ، فإذا تمسكوا بعد كل ذلك باختياراتهم الشخصية وأبوا الاقتناع بما في وجهة نظرنا - بشأنهم - من حكمة وبُعد نظر ، لم نحرمهم بالرغم من ذلك من ثمار حكمة الأيام التي اكتسبناها بالتجربة والخطأ خلال رحلة العمر ، ولم ندعهم لطريقهم يواجهون فيه المجهول وحدهم ، وإنما واصلنا حذبنا عليهم حتى وهم يسرون إلى الطريق الذي عارضناه من قبل . . وأكدنا لهم في كل حين أننا سنكون إلى جوارهم دائماً وفي كل الأحوال ، وكلما احتاجوا إلى دعمنا ومساندتنا . . لأن ما بيننا وبينهم لا ينفصم بخلاف في الرأي أو التوجهات ، وإنما دائم ومستمر إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وأحسب أن هذا نفسه هو ما كانت ستؤول إليه علاقتك بابنتك

الغالية على الرغم مما حدث بينكما في الأيام الأخيرة ، وما تساؤلاتك المريرة عما إذا كان من الممكن أن يتأخر عنها الأجل المحتوم لو لم تكن قد غادرت البيت دامعة مشغولة الخاطر بهمّها ، سوى صدّي آخر لما تعانينه الآن من حسرة عليها وإحساس مؤلم بالذنب تجاهها لأنك قد عارضت اختيارها لشريك حياتها . . ولا لوم على أحد في القضاء الذي لا راد له ولا يقدم أو يؤخر منه شيء ، وإنما هي حسرات القلب المكلم على وحيدته الراحلة . . رحمها الله وأعانك أنتِ على أحزانك عليها . . فاعفى نفسك من مرارة الندم بعد فوات الأوان يا سيدتى . . وتذكريها دائماً بدعائك الصالح لها ، وتأكدي أنها لم تحمل لك في أعماق قلبها سوى الحب والحنان اللذين كانا خلال عمرها القصير نبغاً دائماً يفيض بمائه العذب عليك ، فإن كان قد حل بعض الجفاء بينكما في شهورها الأخيرة ، فلقد كانت تعرف في أعماقها أنك ما عارضت في زواجها إلا بدافع الحب لها والخوف عليها ، والأمل من أجلها في أفضل الأشياء . . وبالصبر والصلاة والإيمان نستطيع دائماً أن نروّض الأحزان ، ونأمل في عون السماء لنا على احتماها ومواصلة الحياة بالرغم منها . . وقديماً قال الشاعر الإنجليزي « وودورث » : « إن العاقل هو من يحزن على ما بقى له من العمر وقد حاصرته الأحزان والآلام أكثر مما يحزن على ما مضى من هذا العمر . . ولو كان فيه ما فيه من الأخطاء والأشواك ! »



النظرة العميقة

أنا سيدة في العشرينيات من العمر . . على قدر كبير من الجمال ،
ومن أسرة فاضلة حظيتُ في أحضانها بطفولة سعيدة ، وحياة هادئة بين
أبي وأمي وإخوتي الثلاثة الذين يكبرونني . . وقد تخرجت في كلية
العلوم بإحدى جامعات الأقاليم ، وتقدم لي خُطاب كثيرون لم أشعر تجاه
أحدهم بالقبول النفسى . . إلى أن تقدم لي شاب ما إن رأيته لأول مرة
حتى شعرتُ بأنه الرجل الذى انتظرتهُ طوال سنوات عمرى ، وشعرتُ
نحوه بميل شديد ، ورأيتُ فيه كل السمات والميزات التى ترجحه على
غيره من الشباب . . فهو ضابط شاب على خلق كريم ، ووسيم
للغاية ، وقوامه فارع ، ويتمتع بخفة ظل وجاذبية لا تقاومان . . كما أنه
- وهو الأهم - حنون وعطوف ورقيق المشاعر ، ويحظى بحب الجميع .

وتمت الخطبة ، وتعمقت الروابط بينى وبين خطيبى إلى حد أن
شعرتُ بالتطابق التام بينى وبينه فى الأفكار والآراء والرغبات . . وبعد

عام وسبعة أشهر من الخطبة تم الزواج في حفل كبير كُنّا فيه معًا أجمل عروسين . . ولما بدأنا حياتنا الزوجية اكتشفتُ أن هناك أنهارًا أخرى من السعادة لم تكن في الحسبان ، وشعرنا بأننا نمسك بالسعادة بأيدينا . . وتوالت أيامنا الجميلة معًا وزوجى الحبيب يغمرنى بحبه وعطفه وحنانه ، ويغدق عليّ كلماته الرقيقة عن هيامه بى وسعادته معى إلى حد أن تتلألأ عيونه بدموع الحب وهو يقول لى ذلك . .

منه تعلمتُ كيف يكون التفانى فى إسعاد الحبيب وكيف يكون العطاء الغامر له دون انتظار المقابل . . وأفردت زوجى معى فى كل شىء جميل ، فأفردت فى حبه الذى جعلنى أشعر بأن الحب قد خُلق خصيصًا من أجلى . . وفى اهتمامه بى الذى يفوق اهتمام الأم بوليدها . . وفى تدليله لى الذى أشعرنى بأننى طفلة الوحيدة ، حتى أصبح بالنسبة لى العمود الفقرى لحياتى وشخصيتى .

ومع كل هذه السعادة فقد كنا نشفق من أن يكون لها ثمن غال ، لكننا كنا نرجع إلى الطمأنينة حين نقول لأنفسنا: إننا ندفع هذا الثمن بالفعل من خوف كل منّا على الآخر إلى حد الجنون ، وفى ذلك الكفاية كل الكفاية . . إلى أن جاء يوم واستعد فيه زوجى للسفر إلى عمله كالعادة ، وودعنى بحنانه الغامر . . ثم نظر إليّ نظرة عميقة طويلة لم ألفها منه من قبل ، وقبّلنى وحمل حقيبه الصغيرة وخرج . . وجلستُ أنا فى البيت أنتظر مكالمته المعتادة لى بعد وصوله لمقر عمله ليطمئننى عليه ويخبرنى - كعادته - بأنه يفتقدنى ويشعر بوحشة شديدة فى بُعد عني ،

لكن الانتظار طال هذه المرة بغير أن يرن جرس التليفون . . . وحين رن في النهاية كان النذير اللعين الذي نقلني في لحظة من السعادة إلى الجحيم ، فلقد تعرض زوجي لحادث تصادم مشثوم خلال سفره إلى عمله ونُقل إلى المستشفى في حالة خطيرة ، فهرولتُ إليه هناك لأفجع بآثار الحادث اللعين في وجهه الجميل وساقه المكسورة . . .

وتعلقتُ بالأمل في أن ينجو من المحنة ونرجع معاً لاستئناف أيامنا الجميلة التي لم نرتو منها بعد ، لكن الأيام توالى ووجوه الأطباء لا تحمل لى أى بشير . . . وبعد أسبوع قضاه في المستشفى سعدتُ روحه الطاهرة إلى بارئها قبل أن يختم عامه الثامن والعشرين . . . وبدلاً من أن نحتفل بعيد زواجنا الأول في الفندق الذى شهد حفل زفافنا السعيد - كما كنا نخطط لذلك قبل أيام قليلة - احتفلتُ وحدى بهذه الذكرى الحسيرة أمام قبره وأنا أرتدى السواد ، وقد نضبتُ دموعى من كثرة ما بكيتُهُ خلال الأيام السابقة . . . لقد كنتُ أخشى وأنا في قمة سعادتى أن تكون لهذه السعادة ضريبة فادحة ، لكنى لم أتصور أن تكون هذه الضريبة هى وأد السعادة نفسها ، والحسرة عليها للأبد .

ومشكلتى التى أكتب لك عنها الآن هى اشتياقى الشديد إلى زوجي الحبيب ، الذى مازال عقلى الباطن يرفض أن يصدق رحيله عنى إلى الأبد ، ومعاشتى له فى كل لحظة من صحوى ونومى ، لقد فقدتُ الرغبة نهائياً فى الكلام . . . فإذا اضطرتنى ضروريات الحياة إلى النطق ببضع كلمات ، فإنى أشعر باختناق شديد بعدها وبرغبة عارمة فى

الصراخ . . كما أننى أستجدى النوم كل ليلة بلا طائل ، فلا يزورنى
شبحه إلا كل بضع ليال . . وإذا استسلمتُ له رأيتُ زوجى واستأنفتُ
معه أيامنا الجميلة المنقضية ، وصحوتُ من غشيتى وأنا مجهدة كأنها كنتُ
أصعد جبلاً عالياً .

لقد قررتُ أن أحيا ما بقى لى من عمر على وفائى له . . ولو أن ذلك
وحده لن يفى بحقه على ، لكنى أريد أن أستعيد قدرتى على الكلام
والنوم وتقبل الحياة لكى أستطيع مواصلة المشوار . . وقد نصحنى أهلى
باللجوء إلى الطبيب النفسى ، لكنى تذكرتُ أننى وزوجى كنا فى أيامنا
الجميلة نقرأ بابك ونتبادل الرأى فيما تنشره فيه ، وأنه كان يقول لى عنك :
إنك كالطبيب النفسى الذى يعالج مريضه فى جلسة واحدة ، فشعرتُ
وكأنه ينصحنى بأن أجا إليك أنتَ لكى تقول لى كلمة تعيننى بها على
الحياة . . فأرجو ألا تبخل علىّ بها . . والسلام عليكم ورحمة الله .

●● ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

توقفت فى رسالتك الحزينة هذه أمام أشياء كثيرة ، لكنى أطلتُ
الوقوف فيها أمام هذه النظرة العميقة التى وجهها إليك زوجك الراحل
قبيل خروجه إلى قدره المحتوم ، وكأنها كان يملأ بها عينيه منك قبل أن
يغيب عنك إلى الأبد!

وتجددتُ تأملاتى الحائرة لما يقال عن هذا الشعور الغامض الذى
يراود بعض ذوى الشفافية بقرب النهاية ، وكأنهم يتسمعون دون غيرهم

أنغام الرحيل ، فهل يكون زوجك الشاب قد تسمع هذا النداء الغامض وهو يودعك قبيل خروجه إلى قدره المقدور؟! .. أم ترى أننا نفسر أحياناً بعض إشارات الأعمى الراحلين عنا بما يتوافق مع أقدارهم الحزينة فيما بعد ، وحننا الشديد عليهم؟!!

لقد روى الشاعر الألماني «جوته» في إحدى قصائده أن طفلاً كان يسير إلى جوار أبيه ، فانتابه الفزع فجأة وتعلق بصدر أبيه ليحميه من صوت خفى يغريه بأجمل الهدايا والألعاب لكي يذهب إليه ويمضى معه ، فظن الأب حديث ابنه هزلاً ولم يأخذه مأخذ الجد ، لكنه أراد أن يطمئنه ، فحمله على صدره وراح يهدىء روعه طوال الطريق ، فما إن بلغ به باب البيت حتى كان الطفل قد فارق الحياة!

غير أنى - على أية حال - لا أريد أن أستسلم لخواطرى وتأملاتى بعيداً عن رسالتك المحزنة ، وأقول لك فقط : إن بعض البشر قد تعوضهم السوء عن قصر رحلتهم في الحياة بأن تجعل سعادتهم فيها حقيقية ومكثفة ، فكأنما قد عاشوا بقدر سعادتهم هذه حياة عريضة وممتدة ، وكثيرون من البشر يتفقون مع الرسام الإيطالى الشهير «موديليانى» حين قال : أتمنى أن أحيا حياة قصيرة ، ولكن حافلة وسعيدة!

غير أننا لا نختار لأنفسنا أقدارنا ، وإنما نحيا حياتنا كما أرادت لنا السماء ، ونمضى عنها حين تؤذن شمس العمر بالمغيب .

وفى كل الأحوال فمن واجبنا أن نتقبل حياتنا ونتواءم معها ، ونعين

أنفسنا على اجتياز المحن والفترات العصبية التي تعترضها بأقل الخسائر النفسية والصحية الممكنة .

وليس كالإيمان بالله - سبحانه وتعالى - والتسليم المطلق بقضائه وقدره من معين للإنسان على اجتياز الأوقات العصبية والتطلع لما بعدها من جوائز السماء للصابرين والمبتلين ، والإيمان الصحيح - كما يقول الأستاذ «مصطفى صادق الرافعي» : هو بشاشة الروح ، وإعطاء الله الرضا من القلب ثقة بوعدده ورجاء لما عنده ، ومن هذين يكون الاطمئنان .

وإذا كنا لا نستطيع أن نقتلع الأحزان من نفوسنا بمجرد الرغبة في ذلك ، فإننا نستطيع على الجانب الآخر مراوغتها وتضييق الحصار عليها ، بالتشاغل عنها والاندماج في النشاطات المختلفة التي تصرف الذهن إلى غيرها من شئون الحياة بعض الوقت .

وأفضل ما يشغل العقل عن أحزانه هو العمل والانغماس في النشاطات الاجتماعية والعائلية ، والوجود بين الآخرين ، ومراودة النفس على مشاركتهم اهتماماتهم والاستجابة لمحاولاتهم الطيبة لشغل المحزون عن أحزانه ، وتجنب الوحدة لفترات طويلة ، وتفادى الفراغ من كل عمل أو نشاط . . لأن الطبيعة ضد الفراغ - كما تقول لنا مبادئ علم الطبيعة . . وكما أن المصابيح الكهربائية المفرغة إذا نُقبت تسلك الهواء إليها على الفور وشغل فراغها . . فإن العقل البشري إذا خلا تمامًا مما يشغله تسلك الهم والفكر إليه وشغلا كل فراغه .

أما الحياة فلسوف تمضى فى طريقها المقدور لها ، سواء تقبلنا أقدارنا فيها وتواءمنا معها أم لم نفعل . . غير أنه من واجبنا تجاه أنفسنا دائماً أن نركب قطار الحياة مهما تكن العثرات ، وألا نتجمد عند أحزاننا إلى مالا نهاية .

ففكرى فى كل ذلك واجعلى من ذكرى السعادة الغالية مع زوجك الراحل دافعاً جديداً لك للحياة ، فنحن نستعين كذلك بذكرى السعادة على تحمل الأحزان ، وقد نغبط أنفسنا فى بعض الأحيان على أنه كانت لنا فى سابق الأيام ذكريات سعيدة وجميلة ، ولم تكن حياتنا خالية تماماً من كل عزاء . . كما أن الأعرى الراحلين لا يسعدهم أبداً أن نهلك بعدهم حزناً عليهم ، وإنما تطمئن أرواحهم فى ملكوت السماء حين نواصل الحياة من بعدهم فى شجاعة ، ونصمد لآلامها فى صبر .



الأسئلة الصارخة

أنا شاب على أبواب الأربعين من عمري . . نشأتُ في أسرة طيبة بين أب كريم - يرحمه الله - وأم فاضلة - أطال الله عمرها - وعدد من الإخوة والأخوات . . وقد رحل أبى عن الحياة وأنا في السادسة عشرة من عمري . . وحصلتُ على شهادتى العليا . . فلما أنهيتُ خدمتى العسكرية سافرتُ للعمل بإحدى الدول العربية ، وخلال عملى بها أعلنتُ خطبتى لابنة خالتى ، وهى فتاة كريمة الأخلاق ، وعقدتُ قرانى عليها . . وبعد ٣ شهور تم الزفاف . . وقضيتُ مع عروسى فى مصر شهرين ، ثم سافرتُ إلى مقر عملى . . وبعد ٨ شهور أخرى رجعتُ إليها وقضيتُ معها ٧٥ يومًا . . وبعد شهور أخرى لحقتُ هى بى فى مقر عملى وسعدتُ بها . . ومضت الأيام بنا هادئة ، غير أننى لم ألمس بشائر الحمل بعد كل هذه الفترة ، فتوجهتُ إلى أحد المعامل لإجراء تحليل للخصوبة ، وقرأتُ النتيجة فى وجه طبيب المعمل قبل أن يصارحنى بها . . وتقبلتها هادئًا ، ثم أعدتُ إجراء التحليل فى معمل آخر . . ثم ثالث . . وجاءت النتيجة مماثلة . . وإلى هذه اللحظة لم أكن قد أخبرتُ أحدًا على

ظهر الأرض أنه لا أمل لي البتة في الإنجاب لانعدام الحيوانات المنوية لديّ نهائياً، ولم أكن أيضاً قد فقدتُ هدوئي وتماسكي ، لكن نتيجة التحليل الثالث كانت قد قضتُ على آخر أملٍ تعلقْتُ به . . فشعرتُ بحزنٍ شديدٍ أذهلني حتى عن رؤية صاحب العمل حين صادفني عند عودتي للعمل . . وبعد قليل من رجوعي للعمل سألتني مديري عن سبب تجاهلي لصاحب العمل حين التقيتُ به منذ قليل . . فأجبتُهُ صادقاً بأنني لم ألتقي به ، فقال لي : بل التقيتُ به ، واستغرب عدم مصافحتك له . . فوجدتُني أبوح له بما أهمني وشغل خاطري . . وبعد قليل طلبني صاحب العمل في مكتبه وأسمعني من الكلام الطيب ما خفف عني بعض أحزاني ، وطلب مني التمسك بالصبر والأمل في رحمة الله رب العالمين . .

وجاء إلى المدينة بعد شهر جراح مصري كبير ، فعرضتُ نفسي عليه ، واستقر الرأي على إجراء فحص جراحی وأخذ عينة لتحليلها . . ووافقتُ على ذلك بشرط : عودتي لبيتي في نفس اليوم لكيلا تشعر زوجتي بالقلق . . وتم إجراء الجراحة . . وانتظرتُ نتائج تحليل العينة لمدة أسبوعين وقلبي يخفق بالأمل والخوف . . وحين توجهتُ إلى الطبيب الجراح لمعرفة النتيجة تكرر ما حدث في أول تحليل ، وقرأتُ النتيجة في وجه الطبيب قبل أن يصارحني بها ، ولم أقل له سوى : إنه سبحانه وتعالى قد قدر لي هذا وما شاء فعل ، ووجدتُ عبارة لأحد الصوفية الكبار تتردد بقوة في أعماقي هي : ربما منع فأعطي ، وربما أعطى فمنع! . .

ورجعتُ إلى البيت هادئًا ، فكان أول ما فعلتهُ هو أن جلستُ مع زوجتي وشرحتُ لها كل شيء بصراحة تامة ، وطلبتُ منها أن تفكر جيدًا في أمرها ، فأسمعتني ، أكرمها الله ، من الكلمات الحانية ما أثلج صدرى وخفف عني بعض الألم ، وصارحتُ شقيقى الأكبر الذى يعمل معى في نفس المدينة بأمرى . . ووجدتُنى بعد قليل أخفف عنه ألمه وهَمَّهُ ، وألوم نفسى أنى أثقلتُ عليه بما صارحتُهُ به .

ومضتُ حياتى مع زوجتى في سلام ، إلى أن رجعنا لمصر بعد عامين ووجدتُنى مُحاصرًا بالأسئلة الصامتة في عيون الأهل والإخوة والأخوات والأصهار عن سبب عدم حمل زوجتى وإنجابها حتى الآن . . ولم أستطع بالطبع مصارحة أحد من أهلى بالحقيقة . . ليس خجلًا منها ، وإنما إشفاقًا من وقعها عليهم بعد أن جربتُ ذلك من قبل مع شقيقى الأكبر . . ورجعنا بعد انتهاء الإجازة إلى مقر عملنا . . وأمضينا عامين آخرين ، ثم رجعنا إلى بلدنا مرة أخرى في إجازة - وكان قد مضى على زواجنا حوالى سبع سنوات دون إنجاب . . فوجدتُنى في وضع لا أُحسدُ عليه . . ووجدتُ التساؤلات التى كانت صامتة في الزيارة السابقة قد أصبحت صريحة ، ووجدتُنى مُلزمًا بأن أشرح لكل فرد من الأهل والأصهار ما حدث بالضبط . . وما فعلتُ وما قاله الأطباء . . وكيف كانت نتائج التحاليل الأولية . . والنهائية . . إلخ . . وهو حديث ثقيل على النفس ومؤلم لصاحبه . . وحدث ما كنت أخشاه من ردود الأفعال التى تباينت بين الحزن والتعاطف . . والشهامة من البعض . . لا أدرى لماذا . . غير

أن هذه الردود لم تترك والحمد لله أى أثر على علاقة زوجتى بى . . وإن كانت قد شرختُ علاقتى أنا بالأهل كلهم للأسف الشديد . . ورجعتُ إلى غربتى وفى النفس مرارة وفى الحلق غُصَّة .

فإذا سألتنى : ما هى المشكلة الآن . . أجبتُك : إنها تتمثل فى أننى قد أصبحتُ إنساناً آخر مع كل من اضطرنى عن قصد أو سوء نية أن أعلن على الملأ شيئاً شديداً الخصوصية بالنسبة لى ، وهو عدم قدرتى على الإنجاب لأسباب لا حيلة لى فيها ، وذلك بإلحاحه علىّ بالسؤال أو بإحراجى بالتساؤلات التى لا مفر من تقديم الإجابات عنها . . وأتمنى أن أرجع كما كنتُ مع الجميع . . لكننى لا أملك ذلك للأسف حتى الآن . . ولهذا فقد كتبتُ لك هذه الرسالة لكى أرجو من كل الأهل - أهلى وأهل الجميع - أن يرحموا كل زوجين يريدان أن يحتفظا لنفسيهما بما يخصهما من أسرار لا ينعكس أثرها سوى عليها وحدهما ، وأن يترفقوا بهما فى السؤال سواء بأسئلة العيون أو بالأسئلة الصريحة ، لأن السؤال غير اللائق أو الجارح لا ينمحي أثره أبداً من نفس من يُوجَّه إليه ، على عكس ما يتصورون . . وفى النهاية فإنى أطمئنك أننى وزوجتى على أحسن حال ، ونرعى الله فى عشرتنا معاً . . وقد أصبح بيتنا واحة للمحبة وراحة البال والاحترام . . وأكرمنا الله بالحج والعمرة عدة مرات .

وشكراً لك أن أتحت لى هذه الفرصة لإخراج هذا البخار المكتوم من صدرى . .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

من أشق الأمور على الإنسان المهموم بأمره أن يجد نفسه مضطراً إلى التصريح بما يتحرج أن يعرفه عنه الآخرون ، أو بما كان يرجو أن يعفوه من الحديث عنه أو الإشارة إليه . . تلطفاً منهم وإدراكاً لحساسية الأمر وخصوصيته بالنسبة له .

ولكن ماذا نفعل يا صديقى مع مَنْ قد يدفعهم حرصهم علينا أو حبهم لنا في بعض الأحيان إلى عدم الاكتفاء بملاحظة الحال بغير سؤال ، والإلحاح علينا بالتساؤلات الصامتة أو الصريحة عما لا تكون إجابته إلا كشف أستارنا والحديث عما لا يسعدنا البوح به ؟

وماذا نفعل مع غيرهم من البشر الذين لا يدركون أين تقع أسئلتهم المؤلمة من القلوب الحزينة ؟!

لقد قال بعض الحكماء : إن من أدب السؤال ألا يسأل المرء صاحبه عما يعلم أنه يتحرج من التصريح به ، أو تؤلمه مجرد الإشارة إليه ، وأن مَنْ لا يلتزم بمثل هذا الأدب في التعامل مع الآخرين إنما يضطرهم لمكابدة عناء الكذب لإخفاء مالا يفضلون أن يكون موضوعاً للنقاش مع الغير ، أو يضطرهم لمكابدة عناء البوح بما لا يريدون أن يطلع عليه غيرهم . . ولهذا فلقد نهانا الله - سبحانه وتعالى - عن الفضول الذي يقتحم خصوصيات الآخرين ويهتك أستارهم ، وعن كثرة السؤال التي تفتح الأبواب لنكأ الجراح وإيلام المشاعر وإثارة المتاعب .

ولقد نزلت الآية الكريمة التي تقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّلَكُمْ تَسْوِئَةً ﴾ (١) فيمن كانوا يلحون

بالسؤال على رسول الله ﷺ عن أشياء لم يتنزل فيها أمر ونهى ، أو يلحون في طلب تفصيل أمور أجمالها القرآن وجعل في إجمالها سعة للناس . . أو بالاستفسار عن أشياء لا ضرورة لكشفها ، لأن كشفها قد يؤذى السائل أو غيره من البشر . غير أن المفسرين يجعلون منها منهاجاً أخلاقياً للتعامل بين البشر في أمور الحياة الأخرى ، ويرون في هذا المنهج درءاً لشُرور الفضول والتطفل على خصوصيات الآخرين وأسرارهم .

والمثل الإنجليزي القديم يقول : « لا تسألني فأكذبك » . . أى لا تسألني عما لا أحب البوح به لك أو لغيرك فتضطرني للكذب !

وليس السؤال المحرج هو وحده السؤال الذي ينطق به اللسان ، لأن من أسئلة العيون الصامته أيضاً ما لا يقل إحراجاً للمسئول عن السؤال الناطق . . لهذا فقد كان من حسن الكياسة دائماً أن يكبح المرء لسانه عما لا يجوز له السؤال عنه . . وعينه أيضاً عما لا يجوز لها الإلماح إليه .

والأمر معقود في النهاية لحسن الإدراك والفهم اللذين ينبغي أن يتوافرا لدى المحيطين بالمرء من أهله وأصدقائه . . إذ ماذا يعنى سؤال زوجين مضى على زواجهما سبع سنوات دون حمل ولا إنجاب عن « أسباب » عدم إنجابهما سوى إتلام المسئول ، ونكأ جراحه ، ووضعته في موضع

(١) سورة المائدة ، من الآية ١٠١ .

المطالب بتقديم تفسير لما لاحيلة له فيه ولاجريرة ؟ . . وماذا يغير مثل هذا السؤال الجارح من واقع الحال ؟ . . وأى عائد جدى له سوى جرح مشاعر المقصود به وتذكيره بحرمانه الذى لاحيلة له فيه ولم يختره لنفسه بإرادته ؟ إننى معك يا صديقى تمامًا فى أن من واجب الجميع عدم الإلحاح بالسؤال على أى زوجين يرغبان فى أن يحتفظا لنفسيهما بمساحة من الخصوصية لايجوز حتى لأقرب الناس إليهما اقتحامها أو التطفل عليها ، ومعك أيضًا فى أن من جراحات اللسان مالا التئام له فى بعض الأحيان . . على عكس جراحات «السنان» - أى السيوف - على حد تعبير الشاعر العربى . . لكنى أدعوك من ناحية أخرى إلى التخفف من بعض حساسيتك الزائدة تجاه هذا الأمر ، لأن مالا حيلة للمرء معه لا ذنب له عنه . . ولاعيب فيه .

ومادمت تحيا حياتك فى وئام ووفاق مع زوجتك ويرعى كل منكما الله سبحانه وتعالى فى عشرته للآخر . . فلتتجاوز عن مثل هذا الفضول الذى كدَّرَ صَفُوكَ فى بعض الأوقات ، ولتلتمس لأصحابه بعض العذر فيه باهتمامهم بأمرك وحبهم لك وحرصهم عليك . . حتى وإن أساء مثل هذا الاهتمام التعبير عن نفسه بالإلحاح عليك بالتساؤلات المخرجة . . فمثل هذا الفضول لن يستمر ولن يتواصل ، ولسوف يعرف أصحابه الآن أنه لا عائد له سوى تكدير القلوب المحرومة ، فيتعلمون درس التجربة . . ويتجنبون العودة إليه مرة أخرى .

ولقد أشرت إلى الكلمة الحكيمة التى ترددت فى أعماقك بقوة حين

علمت بنتيجة الفحص الجراحي : « ربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك » ، وهى من الحكم المعروفة لابن عطاء الله السكندرى . . تاج الدين . . وترجمان العارفين . . الجذامى نسباً . . المالكى مذهباً . . السكندرى داراً . . القاهرى مزاراً . . الصوفى حقيقة . . الشاذلى طريقة . . أعجوبة زمانه . . ونخبة عصره وأوانه . . المتوفى سنة تسع وسبعمائة هجرية كما وصفه «ابن عجيبة» . . وقد قال «النَّفَرِيُّ الرندى» فى شرحه لهذه الحكمة التى تحمل رقم ٨٣ فى سلسلة الحكم العطائية : ربما أعطاك الله سبحانه وتعالى ما تميل إليه نفسك ، فمنعك التوفيق والطاعة والإقبال عليه . . وربما منعك منه أو من بعضه فأعطاك التوفيق والرضا والقبول . . وهكذا فقد يكون المنع فى حقيقته عطاء ، والعطاء فى جوهره منعاً .

فاسعد بحياتك الهائلة وزوجتك الفاضلة الوفية ، واشكر للخالق الكريم عطاءه . . وتجاوز عن أساء إليك بغير قصد . . والسلام .



وَطَيْسُ الْمَرْكَةِ

أنا رجل في الخامسة والأربعين من عمري . . أشغل وظيفة مرموقة
أدبياً ومادياً . . ومتزوج منذ عشرين عاماً ولى بنت وولد فى سن
الشباب . . وزوجتى تصغرنى بأربع سنوات ، وهى متدينة إلى أقصى
الحدود ، وطيبة الخلق ، وجامعية لا تعمل ، وعلى قدر من الجمال والرقّة
تحسدها عليه الكثيرات . كما أنها ربة بيت من الطراز الأول من حيث
النظام والنظافة والدقة فى تناول جميع الأمور حتى البسيط منها . . وهى
روتينية إلى أقصى الحدود أيضاً ، وتخفى مشاعرها السعيدة والحزينة على
السواء ولا تعبر عنها . . وقد تزوجنا بعد قصة حب كبيرة ، ونعيش
والحمد لله حياة طبيعية سعيدة لا مشاكل فيها فى الظاهر . . لكنى
داخلياً أعيش فى صراع نفسى عنيف ، ذلك أن زوجتى مشغولة عنى
دائماً وليس لى مكان فى جدول أعمالها اليومى الذى ينحصر دائماً فى
الاهتمام بالبيت والأولاد . . وأنا رجل رومانسى أعشق الحب والحنان ،
وأحب أن أشعر بأننى موضع الاهتمام والرغبة من الطرف الآخر لأننى

وحتى لا تسيء الظن بي وبالمرحلة من العمر التي أمر بها الآن
وتتصور أنها مراهقة متأخرة أو أزمة منتصف العمر ، فإنى أقول لك :
إننى - والحمد لله - أدير مؤسسة عالمية كبيرة ، وسافرتُ إلى جميع دول
العالم ، ولدىّ من الخبرات ما يعيننى على التمييز بين الأشياء . . لكنى
فقط قد تعبتُ من العطاء دون مقابل من الطرف الآخر حتى فى حقوقى
الزوجية المشروعة . كما أننى رجل يبغض الحرام ويأباه لنفسه ، ولهذا فإنى
أفكر جدّيًا فى الارتباط بزوجة ثانية لأجد لديها ما ينقصنى من المشاعر
والحنان الذى أفقدته منذ سنوات طويلة ، ومعنى فى العمل زميلات
يُظهرن لى الحب والحنان والاهتمام والرقّة فى التعامل معى . . فما رأى
الدين فى هذه المشكلة ؟ . . وهل ما أفقدته الآن مع زوجتى يجيز لى الزواج
من غيرها؟ . .

لقد حاولتُ مرارًا لفتَ نظر زوجتى لهذه المشكلة التى لا تبدى أى
اهتمام بها ، وأبلغتُها صراحة إنها بطريقتها هذه فى التعامل معى سوف
تدفعنى للزواج من أخرى لكى أحصل على الحنان والحب اللذين أحتاج
إليهما ، فكانت تعدنى بأنها ستكون كما أريد منها . . ثم لا تفى بوعدّها
أبدًا . . فهل إذا أراد الرجل أن يعصم نفسه من السقوط فى هاوية الحرام
وتزوج بأخرى لتلبية احتياجاته العاطفية والنفسية يكون ظالمًا لزوجته
الأولى؟ . .

إننى أرجو أن تلفت نظر زوجتى - وهى من قارئتك المستدييات - إلى
أن تتقى الله فى زوجها لكيلا يقع مالا تحمد عقباه . . وتندم حين لا ينفع

الندم . . كما أرجو أن تلفت نظر الزوجات إلى أهمية أن يضعن أزواجهن في جدول أعمالهن اليومي ، ويجعلن لهم نصيبًا من أوقاتهم واهتمامهن حتى لا يشعر الأزواج بالإحباط والرغبة في الاقتران بالأخريات أو التطلع إليهن .

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

مشكلة بعض الزوجات هي أنهن قد يبدأن - بعد أن يكبر الأبناء وتزداد مشاكلهم وصعوبة رعايتهم - في التعامل مع أزواجهن «كآباء» لهؤلاء الأبناء و«أرباب» للأسر التي تجمع بينهم ، أكثر من تعاملهن معهم «كأزواج» لهؤلاء الزوجات . . ويتصورون أن ما يُخُضُّنُهُ بالفعل من معركة يومية لأداء الواجبات المنزلية وإدارة شئون الأسرة ورعاية الأبناء يكفي في نظر أزواجهن لالتماس العذر لهن في نضوب مَعِينِ العطاء النفسى والعاطفى للأزواج عند عودتهم من الخارج إلى أرض المعركة! . وهذا خطأ كبير في التقدير لا يضارعه إلا خطأ بعض الأزواج الذين يتوقعون من زوجاتهم أن تكون لهن أذرع الأخطبوط الثمانى ، التى تلبى كل المطالب والاحتياجات فى كل الاتجاهات بغير كلل ولا ملل . . آناء الليل وأطراف النهار .

والحقيقة التى تغيب عن بعض الزوجات هو أن الزوج مهما تقدم به العمر وكثر الأبناء وازدادت متاعبهم ، فإنه يطلب من شريكة حياته أن تكون «زوجته» فى المقام الأول قبل أن تكون أمًّا لأبنائه وربة ناجحة لبيته

وأسرته . وأنه مهما بلغ به الرضا عن اجتهادها وإخلاصها وتفانيها في خدمة بيته وأسرته وأبنائه ، فإن ذلك لا يعوضه عما يستشعره من تراجع أهميته لدى زوجته كزوج لها ، ولا عما يستشعره من نقص من جانبها في تلبية احتياجاته النفسية والعاطفية لديها . . . ولهذا فهو قد يشعر بالرضا عن جهدها مع أبنائها وفي بيتها . . . بل وربما بالفخر أيضا بذلك . . . لكن ذلك كله لا يشفع لها عنده في تراجع ترتيبه في قائمة أولوياتها لحساب هؤلاء الأبناء الأعزاء الذين لا مرء في حبه لهم وتفانيه في إسعادهم ، ولا في تغافلها عن مشاركته اهتماماته الشخصية والعاطفية ، وهذه المعادلة الصعبة التي تحتاج إلى فهم حكيم لنفسية الرجل ، وقَدْرٍ عالٍ من ذكاء المرأة . فأنجح الزوجات وأكثرهن إسعادًا لأزواجهن ولأنفسهن هن اللاتي يُؤمّنن بأن دور الزوجة لا يتوقف في حياة الرجل مهما بلغ بها وبه العمر ، ومَن لا ينسين أبدًا في غمرة انشغالهن بمعركة البيت والأبناء اليومية أنهن «زوجات» لأزواجهن ، وأن أزواجهن لا يسعدهن أبدًا أن يشعروا بأن ترتيبهم قد تأخر في قائمة أولوياتهن ولو كان من يتقدمهم فيها هم فلذات الأكباد أنفسهم .

والحق أن هذه المعادلة ليست مستحيلة . . . وإنما هي شبيهة بالمعادلة الأخرى التي يواجهها الرجال لإشعار زوجاتهم بأنهن على رأس أولوياتهم في الحياة قبل العمل والطموح وحتى الأبناء أيضًا . . . وإنما يتطلب الأمر فقط بعض الفهم والإدراك والحرص على عدم تجاهل اللفتات الصغيرة ، وبذل الجهد لإرضاء الطرف الآخر ووضع اعتباراته موضع الاهتمام . . .

وأن يسلم الزوج بأن انشغاله بطموحه وعمله - وإن كان لمصلحة زوجته وأبنائه في النهاية - إلا أنه لا يشفع لدى هذه الزوجة نفسها في إهماله لها وانصرافه عنها ، وأن تسلم الزوجة بأن عذرهما في إهمال الجانب الشخصى فى التعامل مع زوجها بسبب استغراقها فى رعاية أبنائه وبيتها وإدارة شئون حياتها ، لا محل له من الإعراب عنده . . مهما يكن تقديره لعنائها وحربها اليومية فى بيتها .

فأما تساؤلك : هل يجوز لك انصراف زوجتك عنك إلى حربها اليومية الزواج من أخرى ؟ . . فالجواب عليه معروف ، وهو أن حرمان أحد الطرفين من تلبية احتياجاته إذا طال واستمر وفشلت كل محاولات الإصلاح إلى حد يشعره بالخوف على نفسه من الفتنة ، فإنه يبيح له أن يعصم نفسه بالزواج ، فيجوز للزوجة أن تطلب الطلاق وتتزوج من غير زوجها ، ويجوز للزوج أن يتزوج على زوجته إذا قبلت بذلك ، أو يسرحها بإحسان ويتزوج غيرها . لكن الأمر لم يصل - والحمد لله - إلى هذا الحد ولن يصل إليه إن شاء الله . . وما أحسب إلا أن زوجتك الطيبة المتدينة المتفانية فى خدمة أبنائها وبيتها ، لم تستوعب فقط خطورة المشكلة وجديتها بالنسبة لك . . وكل رجائي لها هو ألا تتعامل مع «إنذارك» لها بالزواج من أخرى كما تتعامل بعض الزوجات مع الإنذارات المماثلة بالاطمئنان الغافل إلى عدم جديتها ، إلى أن يَفُقْنَ ذات يوم عليها وقد تحولت إلى أمر واقع . . كما أرجو منها ومن غيرها ألا يتعاملن مع مثل هذه الإنذارات بالاستخفاف أو الإيثار باستحالة تنفيذها أو بالتحدى

للطرف الآخر أن يقدم على تنفيذها إن كان حقًا من الصادقين ، لأن معظم النار من مستصغر الشرر. . ولا داعى لتكرار قصة أهل إقليم لاقونيا مع «فيليب المقدونى» حين أرسل إلى أعدائه فى الإقليم رسالة يقول لهم فيها : «إذا استوليتُ على لاقونيا فسوف أسحق أهلها» . . وبدلاً من أن يتعاملوا مع إنذاره بجدية أو يتجنبوا على الأقل استفزازه، أجابوه برسالة تتضمن كلمة واحدة هى : إذا !

فكان هذا الرد سبباً أساسياً فى تصميم فيليب على الاستيلاء على لاقونيا وتشريد أهلها !!

وإذا كان الأمر كذلك ، فليُشعرِ إذن كل زوج زوجته بتقديره لجهداتها فى رعايته ورعاية أبنائه وبيته ، ويشاركها بعض «الأنين» من باب التعاطف والتقدير من هذا العناء اليومى . . ثم يتلطف بعد ذلك فى التماس المشاركة والحنان لديها . . ولتُشعرِ كل زوجة زوجها بأنه كان وما زال وسوف يظل إلى نهاية العمر أول الأولويات وأهم الاهتمامات لديها على الرغم من كفاحها «البطولى» فى إدارة حياته وشئون بيته وأبنائه . . وكفى الله المؤمنين شر القتال . . والإنذارات المقدونية !!



المقارنة العادلة

قرأتُ رسالة « وطيس المعركة » للرجل الفاضل الذى يشكو من انشغال زوجته عنه بأبنائها ، ويفكر فى الارتباط بزوجة أخرى لهذا السبب وحده بالرغم من حبه لزوجته واعترافه لها بفضائلها ومزاياها الأخرى . . . ولقد نكأتُ هذه الرسالة جرحاً شخصياً غائراً عندى ، فرأيتُ أن أحكى له قصتى لعله يستفيد بها فى اتخاذ القرار السليم . . .

فأنا رجل فى مثل عمره . . . وأعمل عملاً مرموقاً مثله ، ولى زوجة فاضلة - كزوجته - كانت لى دائماً الزوجة والأم والحبيبة والصديقة . . . وقد وهبنى الله منها زهرتين جميلتين هما ولد وبنت فى سن أبنائه . . . ومنذ فترة من الزمن بدأتُ أشعر بما يشعر به هذا القارىء الفاضل الآن من افتقار لمسات الحب والحنان والدفء العاطفى من جانب زوجتى بسبب استغراقها فى رعاية الأبناء والاهتمام بأمرهم ، فأحسستُ بمثل ما أحس به كاتب رسالة « وطيس المعركة » ، وجال بخاطرى ما يجول بخاطره الآن .

وقررتُ الارتباط بأخرى في لحظة من لحظات الضعف التي نشعر بها كرجال في هذه المرحلة من العمر . . . وارتبطتُ بإحدى زميلاتي في العمل كانت تُظهر لي الحب والحنان والاهتمام وتتعامل معي برفقة ، فرحتُ أقارن بين اهتمام هذه الزميلة بي ، وانشغال زوجتي عني بأولادنا . . . بين رقة الأخرى واهتمامها باللفتات العاطفية الصغيرة في التعامل معي ، وتجاهل زوجتي لي لإرهاقها في شؤون الأبناء . . . بين حديث الأخرى الحنون الرقيق معي ، وحديث زوجتي « العملي » المقتضب الذي لا يتجاوز غالبًا مطالب البيت والأبناء ومشاكل الأسرة . . . حتى اقتنعتُ تمامًا بأنني «مظلوم» مع زوجتي ، ومن حقي أن أتزوج بزوجة لا يشغلها عني شيء ، ولا تنسى لغة العاطفة في التعامل معي .

وتزوجت زميلتي . . . واتفقت معها على أن تحتفظ بسرية زواجنا لفترة في البداية خاصة في مجال العمل . . . لكن زوجتي الجديدة لم تتوانَ عن إظهار هذه العلاقة للآخرين في كل مناسبة تجمعنا مع زملاء العمل ، حتى ثارت حولنا الأقاويل . . . ومع ذلك فلقد شعرتُ بأنني قد حصلتُ على السعادة الصافية التي كنتُ في حاجة إليها ، وبسبب استغراقى في هذه السعادة تضاعف نصيب زوجتي وأولادى من وقتى ومالى . . . لكن هذه السعادة الصافية الخالية من كل الشوائب لم تدم أكثر من أيام لمستُ بعدها مدى حقد وكراهية زوجتي الثانية ليس فقط لأسرتى الأولى ، بل ولكل أسرة أخرى مستقرة وتنعم بسعادتها علنًا وليس في السر . . . وتبدل الحب والاهتمام والحنان الذي اجتذبنى إليها ورجح كفتها عند المقارنة إلى

طموحات شخصية ومطالب زائدة عن الحد على حساب الزوجة الأولى وأبنائها ، وبدأت الخلافات - تنشب بيننا على أتفه الأسباب . . . وتبدلت السعادة الصافية - التي خُيِّلَ إليّ أنني فزتُ بها - إلى شقاء وعذاب ضمير من ناحيتي لإحساسي بالتفريط في حقوق زوجتي وأبنائي . . . وخلال هذه المعاناة صدر القرار بنقلي في عملي إلى دولة خارجية في مركز أكبر يتطلب انتقال أسرتي معي ، وكان الطبيعي أن تكون زوجتي الأولى وأبنائي هم الأسرة التي تصاحبني إلى مقر عملي الجديد . . . لكن زوجتي الثانية فعلت كل شيء لإقناعي بترك أسرتي في مصر كما هي واصطحابي معها بدلاً منها ، وتحت ضغط إلحاحها وافقتُ على ذلك ، وشجعني عليه خوفي على أولادي من أن يتعرضوا للانحراف في الدولة الأجنبية التي انتقلتُ إليها .

ونفذتُ النقل . . . وفوجيء زملائي في العمل ، بل وحتى رؤسائي فيه ، بأن هذه الزميلة سوف تصاحبني إلى مقر عملي الجديد . . . وانكشف بذلك أمر زواجنا للجميع ، وسافرنا معاً ، وبدأنا حياتنا في هذه الدولة . . . فإذا بزواجتي الثانية الرقيقة الحنون تتغير تغيراً كاملاً هناك وتحاول أن تستغل قوانين ذلك البلد الأجنبي بطريق مباشر - وغير مباشر - لإرغامى على التخلص من زوجتي الأولى وأولادي الموجودين في بلدنا الأم . . . ولم تمض أسابيع على سفرنا حتى أصبحتُ تمثل ضغطاً نفسياً وعصبياً على لأقصى درجة ، أضيف إلى إحساسي بالغربة وافتقادي أولادي ، حتى رحّتْ ألفتُ نظرها إلى ما أشعر به من هموم الغربة لكى

ترأف بحالى وتُظهر لى بعض ما كانت تُظهره نحوى من حنان واهتمام فى أوقات الشدة . . لكن ذلك كان يزيد من نار الحقد والغيرة داخلها إلى مالا نهاية فشعرت بفداحة خطئى فى حق زوجتى الأولى وأبنائى فى الارتباط بزوجة أخرى على حسابهم . . وفى اصطحابها معى إلى مقر عملى الجديد دونهم .

وإننى أروى قصتى هذه لكاتب رسالة « وطييس المعركة » لكى أناشده ألا يكرر خطئى الذى أندم عليه الآن أشد الندم ، ولأقول له : إن السعادة التى سينالها مع أخرى لن تطول ولن تساوى شيئاً أمام بعده عن زوجته التى يحبها وأولاده الذين يحتاجون إليه . . وأحذره من أن يخذعه لمعان الماء على سطح البئر اللعينة التى سقطتُ فيها ، لأن تحت هذا اللمعان - الذى يوحى كذباً بالصفاء - أكدار وشوائب كثيرة . . كثيرة !

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

نحن لا نتعلم الحكمة بغير ثمن يا صديقى ، وإنما لابد أن ندفع دائماً ثمن أخطائنا من حياتنا وصحتنا وصفاء أوقاتنا . . وإذا كان العقلاء من البشر هم الذين يستفيدون من تجارب الآخرين فى تجنب الشقاء وعدم تكرار الأخطاء التى وقع فيها غيرهم - كما تريد صادقاً ومشكوراً لكاتب رسالة « وطييس المعركة » أن يفعل - فإنه يبقى هناك دائماً مَنْ لا يرون الخطر الذى يسعون إليه حثيثاً إلا إذا سقطوا فى بئره ، ومَنْ لا يصدقون تحذيرات المخلصين لهم من جمر النار الذى تقترب أيديهم منه

إلا إذا مَبَّسوه بأصابعهم واكتووا به ، وهذا هو حالنا نحن البشر منذ قديم الأزل .

ولقد أثارت رسالتك هذه تأملات عديدة لدى ، لكنى توقفتُ خلالها أمام هذا الخطأ القديم في التفكير الذى طالما أورد الإنسان موارد الشقاء فى مثل هذه الظروف الشخصية . . وهو خطأ عقد المقارنة غير العادلة فى ذهنه بين اثنين غير متماثلين ، واستخلاص النتائج الخاطئة بالضرورة منها .

ولقد نبهنا المفكر الفرنسى الكبير « رجاى جارودى » إلى أن المقارنة العادلة إنما تكون بين « مثال » و « مثال » ، أو بين « حقيقة » و « حقيقة » ، وليست بين « مثال » « وحقيقة » أو « واقع » ، كما فعلت أنت حين عقدت تلك المقارنة الظالمة فى ذهنك بين « رقة » فتاتك وزميلتك فى العمل وحنانها بك واهتمامها بأمرك ، وبين انشغال زوجتك الأولى عنك بأبنائها وشئون بيتك وأسرتك . . واهتمام فتاتك خلال مرحلة الارتباط الرومانسى الخالية من مسئوليات الحياة بلغة العاطفة واللفتات الصغيرة فى تعاملها معك وبين لغة الحياة العملية التى تستخدمها معك زوجتك فى الحديث عن شئون الأبناء ومشكلات الحياة . . إلخ . . ومع أن المطلوب دائماً هو ألا تغفل الزوجة لغة العاطفة فى تعاملها مع زوجها مهما يبلغ من استغراقها فى شئون الحياة العملية وهموم الأبناء ، إلا أن المقارنة تبقى فى النهاية غير عادلة ، لأنها مقارنة بين « مثال » عاطفى خلال فترة الحب الخالية من الهموم العملية ، وبين « واقع » عملى تختلط فيه

العاطفة بهموم الحياة والأبناء ومشكلاتهم وعناء رعايتهم ، ولهذا فلا بد أن تكون نتيجة هذه المقارنه الظالمة لمصلحة « المثال » على حساب « الحقيقة » أو « الواقع » . .

ولو أردتَ الإنصاف لعقدت الآن هذه المقارنة نفسها ، ولكن بين متماثلين هما « واقع » زوجتك الأولى ، و « واقع » زوجتك الثانية ، التي تقول أنت في رسالتك : إنها قد تكشفت لك الآن عن حقد وكره عميقين - ليس فقط لأسرتك ، ولكن لكل أسرة تنعم بالاستقرار والسعادة في حياتها - وطموحات شخصية زائدة ومطالب مادية لا نهاية لها ، على حساب زوجتك الأولى وأبنائك ، حتى أصبحت تمثل بالنسبة لك ضغطاً نفسياً وعصبياً شديداً لا يترفق بك ، وإنما يضاعف من عناء حياتك في الغربة ، وافتقارك لأسرتك وأبنائك .

فلمن تكون المقارنة الصحيحة - لا الظالمة - هذه المرة ؟ . . وماذا تنتظر لكي تصحح خطأك في حق زوجتك الأولى وأبنائك الذي تندم عليه الآن أشد الندم ؟

إننى أخشى أن يكون ندمك الحالى من نوع ندم « الرشيد » على حنثه بقسمه لصديقه ووزيره « جعفر البرمكى » ، ألا يناله منه سوء مهما يحدث بينهما فى المستقبل . . فلما وقعت نكبة البرامكة وسجن الرشيد صديقه السابق وصادر أمواله وأموال أسرته ، تذكر ذات يوم هذا القسم . . فندم على حنثه به أشد الندم . . وقرر أن يكفر عن ذلك بالحج ماشياً إلى بيت الله الحرام . . وقام بهذه الرحلة الشاقة بالفعل وتكبد خلالها مشقات

كثيرة ، وتكبدت الدولة نفقات أكبر ، حيث أقيمت له على طول الطريق من بغداد إلى مكة الاستراحات الوثيرة . . وبالرغم من كل ذلك فإنه لم يفكر لحظة واحدة في أن يكون تكفيره عن حنثه بهذا القسم بالإفراج عن وزيره وصديقه السابق وردّ بعض أمواله إليه . . فبقى في سجنه حتى مات في سن السبعين . . وهكذا ، فقد يندم الإنسان بالفعل على أخطائه ويكفر عنها ، ولكن في الاتجاه الآخر الذي لا يعيد لضحاياه حقوقهم لديه أو يداوى جراحهم منه .

فهل ندمك من هذا النوع يا سيدى ؟ . . وهل تتصور أن هناك خطأ وقع فيه الإنسان ويمكن أن يصححه بغير خسائر مادية أو معنوية يتكبدها ويقبل بها العقلاء كثر من عادل لتصحيح الأخطاء والعودة إلى الطريق الصحيح ؟ !



الشخصية الباهتة

أنا سيدة في السابعة والعشرين من عمري . . نشأت في أسرة تفضل الذكور على البنات ، فشاءت إرادة الله لها أن تكون كل ذريتها منهن وكنتُ الابنة الوسطى بين ثلاث بنات ومنذ طفولتي شعرتُ بالتفرقة في معاملة أبي وأمي لي بالمقارنة بمعاملتها لشقيقتي الكبرى والصغرى ، فكل منهما أكثر جمالاً مني وعلى مدى سنوات الطفولة وجدتُني الكَمَّ المهمل الذي لا يميزه شيء بالنسبة للأختين ، فالكبرى هي الجميلة والعاقلة ، وموضع سر أمها ، وموضع فخر أبيها الذي يداعبها في كل لحظة ويتنبا لها أمام الضيوف بالمستقبل السعيد وينوّه بعبقريتها المبكرة والصغرى هي « اللذيذة » الشقية التي تحظى بتدليل الأبوين وحبهما الزائد ، والتي يضحكان من قلبيهما على كل تصرفاتها وأفعالها ، وينوّهان بموهبتها في الغناء بصوت جميل في المناسبات العائلية أما أنا فشخصية باهتة بلا لون ولا طعم ولا موهبة في شيء ، وليست لي رجاحة عقل أختي الكبرى ولا خفة دم الصغرى ، ولهذا فلا يتوقف أبي وأمي طويلاً أمامي ولا يجدان فيّ ما ينوّهان به أمام الأهل والأقارب .

ولقد حاولتُ التغلب على ما استشعرتُهُ من إهمال وتجاهل من جانب أبي وأمي بالتفوق في الدراسة ، لكن آثار التفرقة في المعاملة قد انعكست علىّ في شيء آخر خطير أرجو ألا تحتقرنى حين تعرفه ، وهو أنني أصبحتُ أتمنى دائماً الحصول على ما في يد الغير ، وخاصة أختي الكبرى والصغرى . . فأنا أريد الحصول على ما في حوزتها ولو كان عندي مثله ، وإذا اشترتُ أمي لنا أحذية من محل واحد وبسعر واحد شعرتُ بأن حذاء أختي الكبرى أفضل من حذائي ، وأظل وراءها حتى تبادله بحذائي أو تتنازل عنه لي ضيقاً بالحاحي عليها . . وهكذا أيضاً بالنسبة للفساتين والحقائب وكل شيء . . ولقد ظننتُ أن هذه الآفة سوف تذهب إلى حال سبيلها مع التقدم في العمر ، لكنني وجدتُ الأمر يزداد سوءاً مع بلوغى سن الشباب ، فلقد خطبتُ أختي الكبرى إلى شاب تحبه ويحبها ، ووجدتُ نفسي بغير وعي أبذل كل جهدي لاجتذاب اهتمامه إليّ وأفعل كل شيء لكي أبدو ظريفة أكثر من العادة معه مما أثار غيرة أختي وغضبها ، وواجهتني بذلك وعنفتنى ، وتضامنت معها أمي وأسمعتني كلاماً قاسياً . . فتعمدتُ بعد ذلك تجاهله ومعاملته بتحفظ .

وبعد زواج أختي توقفتُ عن استشارة غيرها ونسيت هذا الأمر ، لكنني وجدتُني أكرره مع زميلة لي بالكلية التي التحقتُ بها . . ففي السنة النهائية من دراستي وقع اختياري على زميل لي وسيم وعلى خُلُقٍ فركزتُ عليه اهتمامي لغير سبب سوى أنه مرتبط عاطفياً بزميلة من معارفي ، فتعاملتُ معه برقة مفتعلة ، وأظهرتُ له إعجابي به حتى لَفَتُ نظره إليّ

. . وأثرتُ غيرُة زميلتنا وواصلتُ الاهتمام بهذا الزميل ، وانتهزتُ فرصة خلاف عابر وقع بينه وبينها فاستحوذتُ عليه . . ووضعتُ نصب عيني أن أتزوجه بدلاً من زميلتي . . وواصلتُ السعى إلى هدى حتى سقط بالفعل في شباكي واعترف لي بحبه ، وطلب مني الزواج .

وبعد عامين من تخرجنا تزوجنا ، وأنجبنا طفلاً . . وخلال ذلك خُطبتُ أختي الصغرى لشاب وسيم يعمل عملاً مرموقاً ويحبها بصدق وتحبه ، فإذا بالشیطان القديم يستيقظ في أعماقي . . وإذا بي أجدني أتعامل معه برقة زائدة ومفتعلة ، وأظهر له اهتمامي الكبير به حتى أثار ذلك انتباه زوجي وطلب مني التحفظ في تعاملي معه ، فافتعلتُ الغضب الشديد عليه لشكّه في أخلاقي ، وتصادمنا تصادمًا عنيفًا تخاصمنا على إثره لأكثر من شهر . . وحاولتُ أمي التدخل بيننا فلم أستطع أن أصارحها بالسبب الحقيقي للخلاف ، ولم يستطع هو كذلك أن يفعل . . وراح كل منا يتحدث عن أسباب واهية للخلاف ، وانتهى الأمر بالصلح فوق السطح ، أما في الأعماق فما زالت الرواسب قائمة .

لقد امتنعتُ عن الوجود في بيت العائلة خلال زيارات خطيب أختي الصغرى له ، وأعرف جيدًا أنني مخطئة ، وألوم نفسي حين أكون وحيدة . . لكنني أخفف عن نفسي بقولي : إني ضحية لتفرقة أبي وأمي في المعاملة بيني وبين أختي الصغرى والكبرى . . وأريد أن أتخلص من هذه الآفة لكي تنهأ لي الحياة مع زوجي ومع أسرتي ، فبماذا تنصحنى أن

أفعل ؟ . . مع رجائي لك أن تترفق بي لأنى معترفة بخطئى وأريد أن أصلح من نفسى .

●● ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

من أسهل الأشياء أن يُرجع الإنسان أسباب تصرفاته اللاأخلاقية إلى عوامل وظروف تأثر بها فى طفولته ، فيعتبر نفسه بذلك ضحية للآخرين وليس جانباً على أحد ، ويعفى ذاته من كل لوم مكتفياً بلوم الآخرين ، ويواصل أخطاءه « المبررة » - من وجهة نظره - إلى ما لا نهاية .

غير أن الأمر يختلف عن ذلك كثيراً يا سيدتى . . فعوامل النشأة والظروف العائلية قد تصلح لتفسير بعض تصرفاتنا واختيارتنا فى الحياة ، لكنها لا تكفى وحدها أبداً لأن تكون مبرراً منطقياً لارتكاب الأخطاء كما لو كانت سلوكاً قهرياً لاحيلة لنا فى مقاومته أو الرجوع عنه ، بل إن الوعى بالدوافع النفسية القديمة لتصرفاتنا غير السوية هو فى حد ذاته دليل كاف على أننا نرتكب ما نفعله من سلوك وأفعال ونحن ندرك جيداً خطأ ما نفعله ولا أخلاقيته . . وهذا هو الفارق بين الفعل الإرادى الذى نفعله بإرادتنا وندرك جيداً أسبابه ، والفعل القهرى الذى نرتكبه بغير أن ندرك دوافعه لأنها كامنة فى أعماق العقل الباطن لدينا ولا ننجح غالباً فى إدراكها ، إلا من خلال التحليل النفسى المنتظم أو الاستبصار الذاتى المجهد الذى يحاول المرء فيه اعتصار ذهنه لمحاولة استبصار أو اكتشاف دوافع فعل قهرى يفعله لا إرادياً ولا يجد له تفسيراً منطقياً ، ويؤدى ظهور

هذه الدوافع على سطح العقل الواعى إلى أن تفقد قدرتها على دفعنا قهريًا لارتكاب ما ننكره على أنفسنا من أفعال .

ولهذا فإن أسباب آفتك الحقيقية ليست فيما تعتبرينه تفرقة في المعاملة بينك وبين أختيك من جانب أبيك وأمك ، وإنما في إحساسك الذاتى بالنقص تجاههما لتصورك الخاطيء أنك لا تتمتعين بما تتمتعان به من سمات شخصية ومزايا . . كما أن آفتك الحقيقية أيضًا هى رغبتك الداخلية فى إشعارهما وإشعار الآخرين بأنك لست أقل منهما جاذبية وقدرة على التأثير فى الغير ، إن لم تتفوقى عليهما فى ذلك .

وحالتك - على أية حال - ليست نادرة الوجود ، وإنما تعرفها بعض الأسر كثيرة الأبناء ، حيث يشعر أحيانًا الابن الأوسط بافتقاره لما يتمتع به الابن الأكبر من احترام الأبوين باعتباره أكبر الأبناء وأكثرهم جدية غالبًا ، ولما يتمتع به الابن الأصغر من تدليل وحنان باعتباره آخر العنقود، فيدفع هذا الاحساس الابن الأوسط أحيانًا إلى محاولة إشعار الآخرين بوجوده ، وأنه لا يقل فى مزاياه عن الأخوين الآخرين . . وقد يتخذ التعبير عن هذه الرغبة لديه أشكالاً سوية كإثبات الذات عن طريق التفوق الدراسى مثلاً . . وقد يتخذ أشكالاً أخرى غير سوية كارتكاب الأخطاء التى تنقله من هامش الدائرة إلى بؤرتها ، ولو كان ذلك بإحساس بالسخط عليه وليس الإعجاب به .

ومن الواضح أنك قد اخترت محاولة انتزاع ما فى أيدى أختيك سبيلًا لإشعار نفسك بالجدارة والاستحقاق مثلها ، وأن هذه الآفة قد تطورت

لديك في سن الشباب إلى ما يشبه الرغبة في الانتقام المعنوي منها
بمحاولة اجتذاب خطيب كل منهما إليك لإشعارهما أنك لا تقلين عنها
جمالاً وجاذبية . . ثم بلغت هذه الآفة ذروتها لديك في تطلعك للفتى
الذى ارتبطت به زميلتك بالكلية ، وانتزاعه منها لنفسك . .

فما الذى تريد أن تثبته لنفسك يا سيدتى بعد كل ذلك ؟ !

هل تريد اعترافاً متأخراً من أبويك بأنك كنت تستحقين الفخر
والاعتزاز بك مثل أختيك ؟ ! وهل ترين نفسك جديدة بذلك الآن بعد
هذه الأخطاء المدمرة ؟ !

أم هل تريد اعترافاً آخر من أختيك بأنك لا تقلين عنها جمالاً
وجاذبية وقدرة على التأثير في الرجال ؟ !

إن مجرد فهمك لدوافع ما تفعلين يكفى وحده لأن تمتنعى عن التطلع
لما فى أيدي شقيقتك وأيدي الغير .

ولئن لم تبادرى بالندم على ما فعلت والاقتناع بأنك لست فى حاجة
إلى أى إثبات آخر لمميزاتك وسمااتك الشخصية ، فسوف تعرضين
حياتك الزوجية للقلق والاضطرابات ، وسوف تحكمين على نفسك
بالجحيم الأبدى . . وهو جحيم التطلع الدائم لما فى يد الغير ومحاولة
الحصول عليه بلا طائل . . ذلك أنه إذا كان الزهد كما يقول أقطاب
الصوفية - هو خلو القلب مما خلت منه اليد ، فإن الرضا والسعادة
الداخلية والتعفف هى فى خلو القلب مما فى أيدي الآخرين .

العاطفة الحارة

كتبتُ إليك أكثر من مرة بغير أن أتلقى ردًا . . ولهذا فلسوف أخص لك مشكلتي راجيًا المساعدة في حلها . . فأنا رجل في الخامسة والخمسين من عمري ، لكنني أبدو للآخرين أصغر من سني الحقيقية بكثير . . وأعمل عملاً مرموقاً ، وقد تزوجتُ منذ ثلاثين سنة زواجاً عائلياً ، وأنجبت أبناء بلغوا الآن سن الشباب ، وتخرج أكثرهم في كلياتهم . . ولقد عشتُ مع زوجتي حياة عادية بلا مشاكل حادة ولا عاطفة حارة في نفس الوقت ، وإنما كان زواجنا - بصفة عامة - تقليدياً وخالياً من الإثارة العاطفية الملتهبة .

ومنذ سنوات تعرفت بامرأة مطلقة بدون أبناء استرحت إليها كثيراً . وشعرت بدبيب العاطفة الحارة التي أفقدتها في حياتي الزوجية . . واستمرت علاقتي معها عامًا كاملاً تقاربنا خلاله كثيراً ، ثم تزوجنا في السر وبغير إبلاغ زوجتي بهذا الزواج أو إعلانه في مجتمع العمل الذي نعمل فيه معاً . ولأن لها مسكنها المستقل ، فقد رحّت أتردد عليها في

مواعيد منتظمة ، وأنجبت منها طفلين . . ولم تشعر زوجتى بأى تغير فى حياتى معها . . ثم واتفقتى الفرصة للعمل فى الخارج لمدة سنة ، فسعدت بها لتحسين أحوالى المادية . . ولما حان وقت السفر ودعتنى زوجتى الأولى والأبناء بالدموع ، وكذلك فعلت الزوجة الثانية ، وكانت دموعها أكثر غزارة من زوجتى الأولى حتى كدتُ أضعف وأتراجع عن السفر .

وسافرت وحيداً إلى مقر عملى ، وقضيت عام الغربة وحيداً . . ثم رجعتُ مشتاقاً إلى أسرتى الأولى وزوجتى الثانية بوجه خاص ، فإذا بى أكتشف أن لها علاقة مع زميل آخر لنا فى العمل . . وتأكدتُ من هذه العلاقة الآثمة بنفسى ورأيت بعينى ما أكد لي خيانتها ، فذهلت ذهولاً شديداً وأحسست بطعنة خنجر فى صدرى . . وطلقتها وأنا أشعر بالمهانة والغدر وجرح غائر فى كرامتى وقلبى .

وأخذت منها الطفلين واصطحبتهما إلى بيتى الأصيل ليعيشا معى ومع إخوتها فيه ، فكانت الواقعة الكبرى ! . . إذ كانت زوجتى الأولى - حتى هذه اللحظة - لا تعلم بأمر زواجى الثانى ولا بأن لى ابنين آخرين عدا أبنائى منها . . وانفجر بركان الغضب الهائل فى وجهى ، وبدلاً من أن تساعدنى على تجاوز المحنة وتتقبل وجود الطفلين فى حياتنا ، كثرت المشاكل بيننا وتفاقمت إلى أن بلغت حدًا لم أجد معه مفرًا من إرجاع الطفلين إلى حضانة أمهما .

واستمرت المشاكل قائمة بينى وبين زوجتى الأولى طوال الفترة الماضية

بسبب هذا الزواج ، مع التائب المستمر من جانبها والمعاملة الجافة والاتهام المتكرر لي بالخيانة . . فأضيق بما ألقاه منها وأجد نفسي أتجه بغير وعى إلى من خانتني ولوثت شرفي فأجد عندها - للأسف - الراحة والمعاملة الناعمة واحتواء مشاكل . . لكنى ما إن أغادر بيتها حتى أشعر بالذل والمهانة لعودتي إليها بالرغم مما فعلتُ بي وخيانتها لي خلال سفري . ونتيجة لموقف زوجتي الأولى منى فقد أعدتُ زوجتي الثانية إلى عصمتي مرتين ، لكنى طلقته في كل مرة بعد الزواج بأيام لعجزى عن تجاوز خيانتها لي والصفح عنها .

وأنا الآن في حيرة من أمرى وأريد من يساعدنى على الابتعاد عن هذه السيدة التى تجتذبنى إليها بمعاملتها الناعمة لي ، وزوجتي الأولى لا تساعدنى على ذلك بجفائها معى واتهامها المستمر لي بالخيانة . . ولقد أدتُ فريضة الحج لكى يعيننى الله على البُعد عن تلك السيدة . . لكنى أجد نفسى - بالرغم من ذلك - مسيِّراً ولست سائراً إليها . فهل أجد بين قارئتك من رحل عنها زوجها بغير أن تنجب أو طُلقَتْ لعدم الإنجاب ، ويكون لها مسكنها المستقل لأجد لديها راحتى المفقودة مع زوجتي الأولى . . وبُعدى المأمول عن تلك السيدة !

●● ولکاتب هذه الرسالة أقول :

للفيلسوف الصينى « كونفوشيوس » كلمة حكيمة يقول فيها : « حين يخطئ الإنسان ثم لا يصحح خطأه ، فإنه يخطئ مرة ثانية » . . أما

حين يخطيء الإنسان ويدركُ خطأه فيرغب في إصلاحه بارتكاب خطأ آخر ، فإنه - في رأيي - يخطيء خطأ أشد ضراوة من خطئة الأول !

وأنت يا سيدى تريد حل مشكلتك - التى أوقعت فيها نفسك حين تزوجت من أخرى سرًّا وأنجبتَ منها ولدين - بارتكاب خطأ ثان وهو الزواج من مطلقة لعدم الإنجاب ، أو أرملة بدون أبناء ولها مسكن مستقل ! فهل هكذا يستفيد الإنسان من درس تجربته ويصلح من أخطائه ؟ !

إنك ترغب فى هذا الزواج الثالث بدعوى أن زوجتك الأولى لم تقبل وجود طفليكَ من الأخرى التى تزوجتها سرًّا فى حياتها . . ولم تنسَ غدركَ بها وخيانتكَ لها بهذا الزواج السرى . . وتكثر من لومك واتهامك بالغدر والخيانة ، وقد جربتَ من قبل العودة إلى زوجتك الثانية فلم تطق الصبر على الحياة معها بضعة أيام لأن جرح خيانتها لكَ مازال حيًّا فى قلبك . . فلماذا تضاعف من مشاكلك ومتاعبكَ بمثل هذا الزواج الثالث ؟ ! ولماذا لا تصبر على زوجتك الأولى إلى أن تهدأ جراحها وتتخفف من جرح إحساسها بغدركَ لها فتقبل وجود هذين الطفلين فى حياتها . . أو تسلم أنتَ ببقائهما مع أمهما مع استمرار مسئوليتك المادية والأدبية عنها ؟ !

إن كل إنسان له قدرته على الاحتمال التى لا يستطيع مهما أراد أن يتجاوزها . . وأنتَ قد صدمتَ زوجتكَ التى عاشرتكَ ثلاثين عامًا

وأنجبت لك أبناءً بلغوا سن الشباب صدمة العمر حين رجعت إليها ذات يوم وفي يدك طفلان تزف إليها « البشرية » بأنها أخوان مجهولان لأبنائك منها . فكيف تعجب لانفجارها بالغضب ضدك وجفائها ولومها المستمر لك لبعض الوقت ؟

.. ولماذا لا تعينها أنت على الصفح وتجاوز ما حدث بإظهار الندم الصادق على غدرك بها ، والسعى بإخلاص لاستعادة ثقتها المفقودة فيك ؟

إن من يخطيء لا يحق له الشكوى من لوم الآخرين له على خطئه في حقهم . وإنما عليه أن يتقبل هذا اللوم بصدر رحب ويتصبر عليه إلى أن يصفح عنه من أخطأ في حقه . ولهذا فلا عجب في أنك تجد لدى زوجتك الأولى اللوم والعتاب ، في حين تجد لدى الأخرى التي خانتك في سفرك « الراحة » ونعومة المعاملة .. لأنك المخطيء في حق زوجتك الأولى وليست هي ، ولأن الثانية هي المخطئة في حقك ولست أنت .. وكل مخطيء ينبغي له الاعتذار لمن أخطأ في حقه ، ومن واجبه أن يخطب وده لكي يصفح عنه .

فلماذا لا تفعل أنت مع زوجتك الأولى ما تفعله الثانية معك لكي تعينها على الصفح والنسيان ؟ .. ولماذا لا تساعدك بالفعل زوجتك الأولى على عدم التخبط بين الثانية التي تجتذبك إليها بنعومة المعاملة والعاطفة الساخنة المزيفة ، والتفكير في زواج ثالث هرباً من إحساسك بالمدلة والمهانة بعد كل عودة لهذه المرأة ؟

لا شك أن زوجتك الأولى تستطيع بحكمتها وحرصها على سعادة
أبنائها واستقرار حياتهم العائلية أن تفتح لك باب الصفح والغفران ،
وأن تتجاوز عما حدث منك في حقها ، وتبدأ معك صفحة جديدة لا
تشير فيها إلى الماضي ، الذي لا يمكن تغييره ولا جدوى من إثارته سوى
نكأ الجراح ، بدلاً من إعاتها على البرء والشفاء . . أما حكاية « العاطفة
الساخنة » هذه فلا داعى للبحث عنها من جديد بعد أن اكتويت بنارها
مع الثانية ، ودفعتَ ثمناً مؤلماً لاستمتاعك بها خارج نطاق حياتك
العائلية المحترمة . . لبعض الوقت !

العِبَارَةُ القَاتِلَةُ

قرأتُ رسالة « العاطفة الحارة » للقارىء الذى قال : إنه كان يفتقد حرارة العواطف مع زوجته ، فاستسلم لتأثير زميلة له بالمكتب - أبدتُ نحوه اهتماماً وحناناً - وتزوجها ، فتكشفتُ له عن شخصية أخرى . . وأرجو أن تسمح لى بأن أقص عليك قصتى التى تختلف تماماً عن هذه القصة .

فلقد تزوجت منذ سنوات بعيدة من فتاة لم تحصل حتى على الشهادة الابتدائية التى يحصل عليها الصغار ، وُخِيْلَ إلَيَّ وقتها أننى أستطيع أن أجعل منها زوجة متفتحة . . وخلال السنوات العشر الأولى من الزواج أنجبتُ منها خمسة أبناء تعلموا جميعاً تعليماً عالياً والحمد لله . . وأصبح منهم الآن المهندس والطبيب والمحاسب والمدير المساعد . . إلخ ، وبدلاً من أن تحمد الله على نعمته وتقدر لى كفاحى فى تربية أبنائى على الدين والأخلاق وتقوى الله ، فقد أخذها الغرور والغطرسة وأصبحت تسخط على كل شىء ، وتحرض الأبناء ضدى بدعوى أننى أسىء معاملتها . .

وزادت حياتي معها جحيماً ، فاستعنت بالصلاة والصبر إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وذلك حرصاً على سمعتي وسمعة أبنائي بين الجيران .

إلى أن كان يوم كنا نجلس فيه أمام التليفزيون نشاهد برنامجاً دينياً ، فاستمعنا إلى فضيلة الشيخ « عطية صقر » يقول في البرنامج (ما معناه) : إن الزوجة الصالحة تدخل اللجنة بطاعة زوجها . . فإذا بها تقول - ودون أن أسألها عن رأيها فيما سمعناه - إنه إذا كان دخول اللجنة يتوقف على طاعة الزوج فلست أريد دخولها ! . . فكان لهذه العبارة القاتلة منها أثر سيء للغاية في نفسي ، وما كان مني إلا أن حرمتها على نفسي تحريماً أبدياً ، وأفهمتُها أنها حرة : لها أن تترك البيت إذا شاءت ، ولها أن تبقى فيه حيث أنه لا مأوى آخر لها .

وفكرت في أمري وماذا أفعل بحياتي ، ففكرتُ في أن ألتحق بإحدى دور الضيافة للإقامة فيها ، ثم عدلتُ عن هذا التفكير وفكرتُ في البحث عن زوجة مناسبة لي في السن تكون أرملة وتعيش وحيدة ، وترغب في أن تؤنس وحدتها بمن يتحمل عنها أو معها تكاليف الحياة . . . وإني أشعر بالخجل من هذا المطلب الذي أتقدم إليك به على الرغم من شدة حاجتي إليه ، فهل تعينني على تحقيقه (علماً بأنني قد تخطيطتُ الخامسة والسبعين من عمري) ؟!

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

يا سيدى هَوِّنِ على نفسك ، فلقد قلتَ فى رسالتك إنك قد تزوجتَ من «فتاة» لم تحصل حتى على الشهادة الابتدائية التى يحصل عليها الصغار ، ويبدو أنها لم تعوض نقص تعليمها بخبرة الحياة والحكمة الفطرية التى يهبها الله لمن يشاء . . فلماذا تعاقبها إذن على جهلها - بالقياس بعلمك وحكمتك ؟ . . ولماذا لا تتجاوز عن الأمر كله لكيلا تعرّض حياتك العائلية للقلق والاضطراب وأنت فى سن الجلال والاحترام ؟

إنك تقول : إنك قد تجاوزت الخامسة والسبعين من العمر . . ومعنى ذلك أن زوجتك لا بد أن تكون قد تجاوزت الآن الستين أو الخامسة والستين على أقل تقدير ، وبالتالي فقد عاشرتها مالا يقل عن أربعين عامًا ، أفلا يشفع لها ذلك فى أن تتجاوز عن هذه العبارة السخيفة التى أطلقتها فى لحظة حمق وجهل ؟! . . أو تكتفى بما عاقبتها به فى حينه من قطيعة وتنسى الأمر كله ؟!

إن الإقدام على الزواج فى هذه المرحلة من العمر سوف يعرّض زوجتك لمحنة قاسية وسيعرّض أبناءك الكبار كذلك لخرج عائلى بالغ . . بل وسوف يعرّضك أنت قبل الجميع لما لا تحتمله من اضطرابات وعناء . . فلماذا كل هذا العناء يا سيدى ؟ . . ولماذا لا تحتل شريكة العمر إلى النهاية وترجو أجر الصابرين ممن لا تضيع عنده الأجور ؟

أما عن تحريمها على نفسك ، ففي صحيح مسلم عن « ابن عباس » أنه قال : إذا حرم الرجل امرأته فهي يمينٌ يكفرها ، وفي رواية أخرى أن رجلاً جاءه وقال له : إني جعلتُ امرأتى على حراماً ، فقال له ابن عباس : كذبت ، ليست عليك بحرام ، ثم تلا قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ (١) .

صدق الله العظيم .

وبهذا فإن عليك كفارة يمين لكي تعدل عن هذا التحريم ، وهي كما تعلم إطعام عشرة مساكين إذا كنت قادراً ، أو صيام ثلاثة أيام إذا لم تكن كذلك .

فكفر عن يمينك . . وعش أيامك في سلام ولا داعي للمشاكل !

(١) سورة التحريم ، الآية ١ ، ومن الآية ٢ .

كُشُّ الطَّائِرِ

أنا شاب في العشرينيات من عمري . . شاء لي القدر أن أحب فتاة وأنا طالب في نهاية المرحلة الثانوية . . واستمر الحب قويا بيننا حتى بلغتُ عامي الجامعي الثاني ، ثم شعرتُ بأن فتاتي هذه سوف تخرج من حياتي إلى الأبد وسوف تتزوج غيري بضغط شديد من أهلها ، وبضغط أشد من ظروفها الاجتماعية القاسية . . فلم أُطِقِ صبرا . . وتوجهتُ بلا تردد إلى أهلها ، وطلبتُ يدها على الرغم من اعتراض أهلي على ذلك . . وتمسكتُ بي فتاتي ، فاستجاب أهلها لنا ووافقوا على زواجنا . . ولأنني أعمل في محل تجاري بعد الدراسة يملكه أحد أقاربي ، فلقد اعتمدتُ على نفسي في تقديم شبكة متواضعة ، واستأجرتُ في مدينتنا بالأقاليم شقة صغيرة من غرفة وصالة ، وتم عقد القران والزواج خلال شهر واحد .

وغادرتُ بيت أبي وبدأتُ حياتي الزوجية مع الفتاة التي أحببتها وأحببتني منذ ٤ سنوات . وبعد شهر واحد من زواجنا جاء أبي وتحدث

إلى بلطف ، ودعاني للعودة إلى بيته ومعى زوجتى . . واستجبت لرغبة
أبى ، وتركت الشقة والعمل أيضا استجابة لرغبة أبى ، وليتنى لم أفعل
. . فلقد بدأت المشاكل من جانب شقيقاتى .

و شاءت إرادة الله خلال ذلك أن تحمل زوجتى على غير رغبة منى أو
منها ، فازداد الموقف تعقيدا . . وبالرغم من أن أبى وأمى قد أحبا
زوجتى ، إلا أن كثرة المشاكل قد جعلت أبى يضيق بى ذرعا فى النهاية
ويطردنى من رحمته وبيته أنا وزوجتى بغير أن يعطينا شيئا مما جهزته
زوجتى للزواج . . وفى يوم مشئوم غادرتُ أنا وزوجتى بيت أهلى لا
نملك إلا ما نرتديه من ملابس ، وتركنا وراءنا غرفة نوم كاملة قديمة
كنت قد أحضرتها ، والغسالة والبوتاجاز والكاسيت وملابسى وملابس
زوجتى ، ونصحنى أحد الخيرين بأن أترك كل شىء إلى أن تهدأ الأمور ،
ف فعلتُ ذلك . . ونزحتُ عن بلدتى بالشرقية إلى القاهرة موطن زوجتى ،
وواجهنا الحياة معًا بلا سكن ولا عمل ولا مال ولا شىء سوى ما يجمع
بيننا من حب ورغبة فى أن يسعد كلُّ منا الآخر .

ومضت علينا أيام قاسية ، لكنى لم أفقد صبرى ولا إيمانى بحقى فى
الحياة ، وأقسمت أمام الله أن أحافظ على زوجتى ، وأن نعتمد على
أنفسنا وألا نحتاج إلى أحد ، وأن أكمل تعليمى مهما واجهنا من صعاب
. . إلى أن يأتى اليوم الذى يقتنع فيه أبى بأن زواجى لم يضر بى ولم يؤثر
على تعليمى كما كان يتخوف .

وبعد أيام مريرة استطعت تأجير غرفة - أو «عشة» بمعنى أصح

بالقلوبية على مشارف القاهرة ووفقنا الله إلى العمل أنا وزوجتي في محل للحلويات والأطعمة في الهرم ، فأصبحنا نذهب إليه سويًا في الصباح ونرجع منه معًا في المساء إلى غرفتنا أو « عشتنا » ، فنسعد بقضاء ساعة هادئة في الحديث معًا ، ونتناول طعام العشاء في سكينه ، ثم نستسلم لنوم ثقيل يزيع عنا شقاء اليوم الطويل في العمل وركوب المواصلات .

ولعلك تعتقد يا سيدى أننى أكتب إليك رسالتى هذه لأننى محتاج إلى معونة مادية . . لا والله . . فلقد كتبتُ إليك لأننى أحتاج فقط لأن تقف إلى جانبى فى العثور على غرفة بأية منطقة بالهرم بالإيجار وبدون مقدم ، لأن المسافة بين المكان الذى أقيم فيه والعمل طويلة جدًا ومرهقة للغاية ، لأن المنطقة التى نساكن فيها حاليًا أيضًا مليئة بالعاطلين ومعروفة بعدم الاستقرار ، فهل تساعدنى فى ذلك ؟ . . وهل تستجيب لرغبتى فلا تشير إلى اسمى أو عنوان العمل فى هذه الرسالة لكيلا أرى نظرة شحاته فى عين أحد ؟

●● ولكتاب هذه الرسالة أقول :

الأصل فى تعبير « عش الزوجية » الذى نستخدمه كثيرًا فى الإشارة إلى البيوت الصغيرة الجديدة ، أنه تشبيه لها بعش الطائر الذى يبنيه مع وليفه قشه قشه ، ثم يهجعان إليه فى النهاية ويشعران فيه بسكينه القلب والأمان .

ومن طبيعة هذا العش أن يتم بناؤه ببطء وبالتعاون المشترك بين

الأليفين اللذين اختار كل منهما الآخر ليخصه بمودته ويحيا إلى جواره ،
كما أن من طبيعته أيضا أن يكون دافئا بالعطف والحب والمشاركة ، وإلا
فلن يفقس البيض داخله ويفرخ أفراخه الصغيرة الحبيبة .

ومن البيوت الزوجية ما ينطبق عليها هذا التعبير المجازى بمعناه
الصحيح مهما كان تواضعها وبساطتها ، ومنها ما لا يستحق وصفه به
مهما كانت رياشها ورفاهيتها .

ولا شك أن هذا التعبير الشعري ينطبق بمعناه الصحيح على المكان
العارى الذى يحتويك الآن أنت وزوجتك ، وسوف ينطبق أيضا على أى
مكان آخر تنتقلان إليه ، ما ظل الحب والعطف متبادلين بينكما على
النحو السليم .

لقد اخترت أيها الشاب حياتك وتحملت تبعات اختيارك ، ولاشك
أن أبويك كانا يفضلان لك أن تنهى دراستك وتستقر فى عمل مأمون
أولاً قبل أن تتحمل مسؤولية زوجة وأسرة صغيرة جديدة . . لكن ما
جرى قد جرى ، ولا مفر الآن من مواجهة الواقع والتعامل معه
بشجاعة . .

فإذا كان لى أن أطلب منك شيئاً فهو ألا تقطع أنت ما بينك وبين
أبويك وإخوتك حتى ولو كانوا قد باعدوك . . فلكل طرف رؤيته فى
جوانب المشكلة ومبرراته التى لا تخلو من منطق لموقفه منها . غير أن
العلاقات العائلية ينبغى لها أن تكون فوق الخلافات الطارئة مهما بلغت

مرارتها في بعض الأحيان ، ولابد لما انقطع بينك وبين أبويك وذويك أن يتصل من جديد ذات يوم قريب . وخير ما تُسعد به أبويك هو أن تحقق بالفعل ما عاهدت نفسك عليه حين خرجت لمواجهة الحياة مع زوجتك عقب مغادرتك أو طردك من جنة الأهل ، وهو أن تستكمل مشوار تعليمك ، وتحقق نجاحك في الحياة العملية ، وتعتمد على نفسك في بناء حياتك ، فترجع إلى أهلك فائزاً منتصراً ولست منهزماً كسيراً .

والحق أن أبويك هما أول من يسعدان بنجاحك في دراستك وحياتك ، وبسعادتك مع زوجتك حتى ولو كانا قد اعترضوا على زواجك المبكر . . فالآباء والأمهات قد يعترضون على اختيار الأبناء إشفاقاً عليهم من التعاسة والفسل . . لكنهم هم أنفسهم أول من يسعدون في أعماقهم إذا أثبتت لهم تجربة الأيام خطأ توقعاتهم . . ومعارضتهم لمثل هذا الزواج ليست سوى إشفاق مغالى فيه - في بعض الأحيان - على الأبناء من المعاناة والانزمام في معركة الحياة التي خاضوها قبل أن يستعدوا لها الاستعداد الكافي . .

ومن واجب الأبناء أن يقنعوا الآباء والأمهات بسعادتهم وبصواب اختياراتهم ، وبأن هذه الاختيارات نفسها كانت قوة دفع لهم إلى الأمام ولم تكن كما تخوفوا قوة جذب إلى الوراء . . وهذا هو التحدى الذى يواجهك الآن أنت وزوجتك الشابة . . والواضح أنكما قد قبلتُما به وتحملا تبعاته بصبر وكفاح ، فواصلوا حياتكما وكفاحكما ، وتمسكا

بحياتكما وسعادتكما وحبكما ، ودافعا عن كل ذلك ضد قوى القبح
والياس والانهمام . . وتفضل بزيارتي أو الاتصال بي لتدبير ما طلبت . .
والله المستعان على كل أمر عسير .

النُقطة السوداء

أنا زوجة رجل معروف وله مكانته في المجتمع وسمعته الطيبة وتدينه المشهود له به . . وقد رزقنا الله سبحانه وتعالى البنين والبنات ، ومضت رحلة العمر بخيرها وشرها ، وكبر الأبناء وتزوجوا ، وأصبح لنا الآن ٤ أحفاد نسعد بهم ونشعر بامتدادنا فيهم . . ولقد تغير كل شيء تقريباً في الحياة منذ تزوجتُ قبل ثلاثين عاماً إلا شيئاً واحداً لم يتغير في زوجي ، وهو النقطة السوداء الوحيدة في شخصيته التي لم أجد لها دواء ولا شفاء حتى الآن .

فمنذ سنوات زواجنا الأولى اكتشفتُ فيه أسوأ ما يمكن أن يتلى به إنسان من مرض ، وهو داء الخيانة مع الشغالات . . وحين اكتشفتُ ذلك أصرتُ على الطلاق أكثر من مرة ، وفي كل مرة كان يستعطفني أن أصفح عنه وأتجاوز عما حدث ، ويعتذر عنه بأنه لم يكن في وعيه أو بأنه من طيش الشباب . . . إلخ . . . وكنتُ أصفح في النهاية وأصبر من أجل

أطفالي . . وبعد وفاة أبي ووفاة والدَي زوجي اللذين كنتُ أشكو لهما مما يفعل بي زوجي فيخففان عني ، سلمتُ بأن هذا هو قدرى فى الحياة ، واتجهتُ لرَبى وتركتُ عملى . . وتفرغتُ لتربية أبنائى والعناية بزواجى . . وكنتُ امرأة شديدة الجمال والإثارة ، وربة بيت من الطراز الأول ، وأُمَّاً تحنو على أبنائها ، وزوجة لا تحتمل أى شىء يمس أسرتها . . كما حرصتُ على أن أفعل كل شىء يرضى زوجى ، وأن أشبع رغباته هو وأكبت رغباتى ، فأفاجأ بعد كل ذلك بالشغالة التى تعمل عندى تجىء إلى وترجونى ألا أتركها فى البيت وحدها مع زوجى فى أى وقت من الأوقات لأنه يفعل أشياء لا يرضى عنها الله ! . . فأكاد أصرخ حين أسمع ذلك ، وأسأل نفسى : ماذا يدعوهُ إلى مطاردة الشغالات صغيرات السن ، وأنا أقدم له كل ما يطلبه الرجل من امرأة؟ . . ثم أضطر فى النهاية إلى الاستغناء عن خدمات هذه الشغالة وقطع رزقها ، وتعويضها مادياً عن ذلك .

ومع تكرار هذه النقطة السوداء ماتت بداخلى أشياء كثيرة كالغيرة والكرامة الشخصية والثقة بالنفس ، وأصبح كل ما يشغلنى الآن هو حسن الختام . . وأتساءل بإشفاق : كيف سيواجه زوجى ربه بكل هذه الخطايا وهو الذى يؤدى الفرائض الدينية فى العمرة ، ثم يرجع بعد ذلك إلى هذه الأفعال المخزية !؟

إن زوجى - بالرغم مما بلغ من العمر والمكانة - مازال يطارد كل شغالة تعمل عندى ، ولا يتورع عن مغازلة صديقاتى وزميلاتى فى العمل -

ومعظمهن صغيرات السن - حتى إنه لم يدع فتاة عمرها ١٥ سنة بدون أن يتحرش بها ويغازلها . . . ولقد لجأت إلى الطبيب النفسى منذ عدة سنوات وشكوتُ له مما أعانيه، فطلب أن يلتقى بزوجى ويتحدث معه، فلما عرضتُ ذلك عليه رفض بإصرار الذهاب معى إلى الطبيب واستاء كثيراً لمجرد تفكيرى فى ذلك .

والآن يا سيدى - وبعد أن تزوج الأبناء واستقروا فى بيوتهم الصغيرة - لم أعد قادرة على مواصلة التحمل والصبر على أفعال زوجى هذه . . . إننى مازلت ربة البيت التى لا يأكل زوجها إلا من صنع يديها، والزوجة المحجبة خارج البيت التى تهتم بنفسها وزينتها داخله، وتدعو لزوجها بالهداية فى كل صلاة . . . لكننى فقدتُ آخر قطرة من قدرتى على الصبر والاحتمال بعد آخر حادث مخجل لزوجى مع آخر شغالة عملتُ عندى، وكان ذلك منذ بضعة أسابيع فقط، فقد جاءتنى الفتاة الصغيرة باكية وقد جمعت أشياءها لتستأذنى فى الرحيل بسبب ما تعرضتُ له من مضايقات زوجى، وبسبب تحرشه بها فى كل مرة تُقدم إليه فيها شيئاً . . . ولقد أثار أحزانى أننى وجدتُ هذه الفتاة الصغيرة تشعر بالإشفاق على ولا تصدق ما يحدث! وتقول لى إننى لا أستحق ذلك من زوجى . . . وهنا فاض بى الكيل نهائياً وفكرتُ جدياً فى طلب الطلاق لأن أبنائى قد كبروا الآن ولم يعد لَدَى ما يدعونى للاهتمام من أجلهم، لكننى تحيرتُ فيما سأقوله للأبناء عن سبب طلبى للطلاق وتمسكى به وقد بلغتُ أنا ووالدهم هذه المرحلة من العمر . . . إننى لم أخبر زوجى حتى الآن بعلمى

بواقعة الأخيرة مع الشغالة الصغيرة، وأفكر جدياً في هجر البيت أو طلب الطلاق والإصرار عليه.. . . فبماذا تنصحني أن أفعل بعد أن تكاثرت على الآلام الجسدية في الظهر والساق والذراع، وارتفع ضغطي بسبب ما أعانيه من هذه الأفعال المخزية؟!!

●● ولكتابة هذه الرسالة أقول :

الهوسُ بالفتيات صغيرات السن ومطاردة الشغالات، نوع من الانحراف النفسى المؤكد الذى يستعصى على العلاج بالجهود الشخصية، ويتطلب علاجاً نفسياً منتظماً، وإلا تفاقمت أخطاره وعرّض صاحبها للوقوع ذات يوم تحت طائلة القانون متهاً بارتكاب جريمة الاعتداء على قاصر أو التحرش بها.. . . غير أن آفة معظم من يعانون هذا الانحراف النفسى هى أنهم يجدون صعوبة شديدة فى الاعتراف لأنفسهم بأنهم مرضى ويحتاجون للعلاج، ويفضلون دائماً التهرب من مواجهة هذه الحقيقة، والتماس الأعذار المختلفة لأنفسهم فى كل مرة يفتضح فيها أمرهم، كما أن الآخرين قد يجدون أيضاً صعوبة مماثلة فى تصديق صدور هذه الأفعال المخزية عنهم، لتناقضها الشديد بين المظهر الوقور لهم وحقيقة ما يصدر عنهم فى الخفاء من تصرفات مخجلة.

ولهذا فإننى أرى لك أن تواجهى زوجك بما علمتِ عن واقعة الأخيرة مع الشغالة الصغيرة، وأن تحيّرته بحزم نهائى هذه المرة بين الرضوخ

للحقيقة والاعتراف بحاجته إلى العلاج النفسى ، وبين الانفصال عنه ، مع ما سوف يترتب عليه من آثار عائلية وخيمة وإزعاج للأبناء وإثارة للتساؤلات المؤلمة فى الأوساط العالية المحيطة بكم . . وإن كنتُ أتعجب يا سيدتى مما كان يدعوكِ للاستعانة دائماً بهؤلاء الشغالات الصغيريات فى بيتك وقد علمتِ عن زوجك منذ زمن طويل ضعفه المخزى مع الفتيات وتحرشه بهن ومطاردته هن . . إن كثيرات من الزوجات اللاتى عرفن عن أزواجهن مثل هذا الضعف الأخلاقى وهذا الميل المنحرف للتحرش بالصغيريات ، قد حَرَمْنَ بيوتهن - كإجراء وقائى - على مثيلات هؤلاء الفتيات ، وتكبدن فى سبيل ذلك العناء راضيات به ، بدلاً من إتاحة الفرص لأزواجهن للاستجابة لهذا الهوس الذى قد يصل ببعضهم إلى ما يسميه علماء النفس «الرغبة القهرية» فى ممارسة ما يعرفون جيداً أنه يتناقض مع كل القيم والأخلاقيات ، ومع حرصهم على سمعتهم ومكانتهم العائلية بين الأبناء وفى المجتمع .

إننى أعرف أن ذلك ليس حلاً جذرياً للمشكلة ، لكنه - على الأقل - خطوة لتضييق فرص الخطأ أمام زوجك ، ولتفادى أسباب المشاكل التى عانيتِ منها الكثير والكثير .

ولقد قلتُ مراراً : إن الوسيلة الوحيدة للتعامل مع الأزواج الذين يدمنون الاستجابة لنزواتهم وأهوائهم - إذا دعت الضرورة الزوجة إلى الحفاظ على حياتها الزوجية بسبب مصلحة الأبناء والاعتبارات الأخرى - هى أن تحاول الزوجة بقدر الإمكان تضييق فرص الخطأ أمام زوجها ، وأن

تنصرف بعد ذلك إلى العناية بأبنائها وأسرتها ونفسها مُحاولَةً حماية معنوياتها وحالتها النفسية من التأثير بهذه الخيانات المخجلة . . ولا غرابة في ذلك لأن الخطأ إنما يعيب مرتكبه أولاً وأخيراً، وليس ضحيته . . وقد يكون من الصحة النفسية في بعض الأحيان ألا يدمى الإنسان رأسه بنطح الصخر محاولاً علاجه، مع التمسك بالأمل في أن يعالج الزمن ما عجز هو عن علاجه، وفي أن يثوب المخطيء إلى رشده ذات يوم ويدرك كم أذمى قلوب من أحبوه وأخلصوا له بمثل هذا العبث الطائش !

إن الخيانة شيء مؤلم للنفس حقاً يا سيدتى . . وهى تصبح أكثر إيلاماً حين تجيء في سن الجلال والاحترام وبلا أى مبرر سوى الاستجابة لأهواء النفس ونزواتها وبحثها العايب عن المتعة العابرة . . فقولى لزوجك يا سيدتى كل ذلك، وحاولى إزالة الغشاوة عن عينيه ليرى فداحة الجرم الذى يرتكبه في حق ربه ونفسه وزوجته وأبنائه بمثل هذا العبث الصبياني، وذكره بواجباته تجاه أبنائه في ألا يخرجهم - وهم أزواج وزوجات - بمثل هذه الخطايا الفاضحة التى قد تنفجر في وجوههم وتخرج مراكزهم العائلية ذات يوم قريب . واحمليه على الاعتراف بأنه يعانى من انحراف نفسى قابل للعلاج إذا تعامل معه بجدية، والتمسى له أسباب الشفاء لدى الطبيب المختص .

أما الانفصال الآن أو هجر البيت بعد كل هذه السنين وبعد أن بلغت السفينة مرفأ الأمان، فلسوف يؤلم أبنائك بأكثر مما تحمل شخصيتك المضحية التى تحملت عناء الرحلة الطويلة من أجلهم . . كما

أنه ليس من العدل ولا الرحمة أن تضطرب حياتك وأنت في هذه المرحلة من العمر - وبعد كل ما قدمت للحياة والأبناء والزوج - بسبب هذا الطيش الجنوني من زوجك، وإنما يقضى العدل أن يعفيك هو من كل ذلك، وأن يثوب إلى رشده وربّه ويعوضك عن شقاء السنين بما يشعرك بالكرامة والسعادة والأمان .



موضوع الجِدَال

أنا سيدة في الثانية والأربعين من عمري وزوجة لرجل فاضل وإنسان
بمعنى الكلمة . . وقد أنجبتُ منه على مدى ١٢ عامًا ثلاثة أطفال
أكبرهم في الحادية عشرة من عمره، وأصغرهم - هي بنت جميلة وذكية -
في الرابعة من عمرها .

والحق أنها ليست المرة الأولى التي أكتب إليك فيها ، فلقد كتبتُ لك
من قبل رسالة لم أبعث بها إليك ، لأنني لم أستأذن زوجي في كتابتها ،
وحين قرأتها عليه شعرتُ بأنه ليس راضيًا عنها ، فمزقتها .

وكانت المشكلة التي أردتُ تحكيك فيها بيني وبينه هي أنني موظفة
حكومية ، وزوجي موظف صغير بأحد بنوك القطاع العام وينفق مرتبه
كله في البيت ، فلا يكفي لذلك بالرغم من أنه لا يدخن ولا يجلس في
مقهى . . وكان لهذا السبب يأخذ مني مرتبي كله ليكمل به نفقات البيت
ومطالب الأبناء . ولم أكن أعترض على ذلك ، لكنني كنتُ أريد فقط أن

يترك لي جزءًا من مرتبي - ولو رבעه - لكي أشعر بأنني موظفة وأتقاضى أجرًا عن عملي ولي مصروف خاص . . . وكان يغضب هو لذلك ونتجادل حول هذا الأمر ، ونختلف حول مشاركتي بمرتبي كله في مصروف الأسرة: هل هو فرض عليّ - كما كان يقول زوجي - مادامت هناك ضرورة؟! أم أنه تطوع كما كنت أقول وأرى أن الرجل هو المسئول الأول والوحيد عن تلبية مطالب أسرته!؟

والآن يا سيدي توقف الجدال بيني وبينه حول هذا الأمر ، وليته لم يتوقف . فلقد ظهرت في حياتنا منذ أربع سنوات مشكلة أخرى طغت على كل المشاكل وجعلت منها ترفاً نتحسر عليه الآن ونتمنى لو كان قد استمر . . . فلقد أصبتُ بالمرض اللعين في صدرى منذ أربع سنوات ، وقال لي الأطباء إنني محظوظة لاكتشافه مبكرًا، فحمدتُ الله على ذلك وتقبلتُ الأمر برضا ولم أجزع له ، لأنني مؤمنة بأننا لن نهرب من أقدارنا مهما أردنا . وأُجريتُ لي الجراحة بنجاح والحمد لله . . . وظلت حالتي الصحية جيدة بعدها . . . فعشتُ حياة طبيعية، ورحتُ أقوم بخدمة زوجي وأطفالي وأشارك في المناسبات الاجتماعية وأقيم حفلات أعياد الميلاد للأبناء، وأصنع التورتات بنفسى ، وأدعو الأهل والأقارب . . . ونسيتُ تمامًا أنني قد ابتليتُ بهذا المرض كما طلب مني الطبيب أن أفعل . . . واستمر الحال على هذا النحو مدة عامين ، ثم فجأة تدهورت حالتي وبدأ المرض ينتشر في جسمي ، وتمسكتُ بصبري وإيماني ورضيتُ بما اختاره لي ربي . . . وتلقيتُ العلاج من جديد، وما أدراك ما

عذابه وما آثاره الجانبية ! .. وتحملتُ كل شيء في جَلْدٍ وصلابة،
وأخفيتُ معاناتي عن زوجي وأطفالي .. حتى كانت طفلي تتعجب
للطاقة التي أغطي بها رأسي وتسالني عن سبب ارتدائي لها دائماً،
فأشغلها عن السؤال بشيء آخر. أما زوجي فلقد وقف إلى جوارى في
محتى وراح يشد أزرى ويخفف عني ، ويذهب معي من طبيب إلى آخر،
ويذكرني بمواعيد الدواء، ويصبر على ظروفى الصحية التي لم تعد تسمح
لي بأن أكون زوجة كاملة له منذ شهور. . ولم يعد له مطلب في الحياة
سوى أن يستطيع ذات يوم أن يهيبء لى زيارة بيت الله الحرام. . وقد
اشتركتنا في جمعية ادخار لكى نتمكن من أداء فريضة الحج فى المستقبل
. . لكن العمر يجرى ولا أحد يدرى هل يتسع لتحقيق هذه الأمنية
الغالية أم لا ؟

وإنى أتعجب الآن من حالنا. . فلقد كانت المشكلة التي نتجادل
حولها من قبل هى مرتبى ، وهل أحتفظ لنفسى بقدر منه أم أنفقه كله
على البيت ، فنسبنا هذه المشكلة الآن تماماً ، وأدركنا كم كانت تافهة. .
وأصبحتُ المشكلة الآن هى : هل يكتب الله لى الشفاء فى القريب
العاجل أم لا ؟ .. وهل يتسع العمر لتحقيق أمنية الحج أم لن
يتسع ؟ .. فهل تعرف يا سيدى بعض الجمعيات أو الهيئات التي يمكن
أن تساعدنا على تحقيق هذه الأمنية فى حدود إمكانياتنا البسيطة ؟

●● ولكاتبه هذه الرسالة أقول :

لو أُتيح للإنسان أن يطلع على ما تخبئه له الأيام لاستخسر أن يبدد الأوقات الخالية من مشاكل الحياة الحقيقية في الشقاء بما لا يستحق الشقاء به ، ولأحسن الاستمتاع بأوقات السعادة الصافية من كل الأكدار وغبط نفسه عليها . . ورجا ربه أن يطيل أمدها في رحلته ويحفظها عليه . . لكن متى أُتيح للإنسان أن يعرف ما سوف تحمله له أمواج الحياة في قادم الأيام ، ليسعد بحياته الحالية ويدرك كم هو سعيد الحظ لخلوها من الآلام الجادة؟!!

إننا - للأسف لا ننتبه إلى ذلك إلا حين تداهمننا اختبارات الحياة القاسية ، ولا ندرك قيمة السعادة المتاحة لنا إلا بالمقارنة مع ما نواجهه فيما بعد من أحزان وشقاء . . ولو ألهمنا الحكمة في الوقت المناسب لأبينا أن نبدد لحظة واحدة من الأيام الخالية فيما لا يستحق العناء من أجله أو الشكوى منه ، ولادخرنا كل قوانا النفسية والصحية لمواجهة ما تخبئه لنا أمواج الحياة من أنواء ، تماماً كما يستثمر الملاح أوقات هدوء الرياح في الراحة والاسترخاء والاستمتاع بجمال الطبيعة لكي يستنفر كل طاقته للسيطرة على السفينة حين تهب عليها أعاصير الشتاء . . ولأن الأمر كذلك ، فلا عجب في أن يتوارى موضوع الجدال القديم من حياتك يا سيدتى ويصبح - بالمقارنة بما امتحتك به الأقدار فيما بعد - ترفاً تتحسرين على انقضائه وتتمنين لو كان قد استمر إلى ما لا نهاية .

فأما موضوع الجدال الجديد في حياتك فإن إيمانك العميق بربك
وتسليمك بإرادته وامثالك لقضائه سوف يحسمه لصالحك بإذن الله ،
فيتحقق الشفاء التام حين يأذن به ربك إن شاء الله ، ويتسع العمر
لزيارة بيت الله الحرام وقبر رسوله الكريم بإذن الله .

والمهم أن نستمسك دائماً بالأمل في رحمة الله ، وأن نؤمن كذلك بحقنا
العادل في الحياة ، وفي الغد الأفضل الذي تتحقق فيه الأمنيات . .
فالإيمان بالله جزء جوهري من العلاج ، والأمل الغلاب في الشفاء يسرع
به إلى المريض ، والثقة في الله وحسن الظن به من أهم عوامل النجاة . .
وتفضلي بالاتصال بي لنستكمل الحديث حول كل ذلك إن شاء الله .





جَوَازُ سَفَرٍ

قرأتُ رسالة «موضوع الجدال» للزوجة الشابة التي امتُحِنَتْ بالمرض القاسى ، فأنساها ذلك موضوع جداولها السابق مع زوجها ، ووقف زوجها إلى جوارها في محتتها ، وتمنى أن تزور بيت الله الحرام معه . .

وإذا كانت هذه السيدة تتساءل : هل يتسع العمر لتحقيق هذه الأمنية الغالية ، خاصة أن إمكاناتها المادية لا تسمح لها بذلك ؟ . . فإننى لأرجو أن يوفقنى الله سبحانه وتعالى إلى أن أحقق لها رغبة العمرة هى وزوجها فى موسم مولد النبى عليه الصلاة والسلام القريب بإذن الله ، ولذا أرجو الاتصال بى وإعطائى بياناتها وبيانات جوازى السفر لإعداد اللازم إن شاء الله .

●● ولکاتب هذه الرسالة أقول :

سبقتُ يد المنون - للأسف - إلى هذه السيدة الشابة ، فانتقلتُ إلى رحاب ربها قبل فترة قصيرة - رحمها الله وأثابها عن بلائها خير الجزاء .

ولقد التقيتُ بزوجها منذ أيام وتحدثتُ معه عن أمنية أداء عمرة مولد
النبي المقبلة عسى أن يخفف الله عنه أحزانه ويعوضه خيراً عما فقدتها،
فإذا رغبتَ في أن تنال هذا الأجر فسوف أتصل بك لترتيب الأمر بإذن الله
. . والشكر لك .

الجواب المُضَيِّق

قرأتُ لك في ردودك على رسائل قرائك أن الإنسان لديه ميل غريزي للثناء لنفسه ، ولقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أقرأ فيها عنه ، فتوقفتُ أفكر في أمرى وأتساءل : هل يكون ما أشعر به وشعرتُ به معظم فترات حياتي ، هو من أثر هذا الميل الغريزي ؟

ولكى تعينني على الإجابة عن هذا السؤال أريد أن أروي لك قصتي مع الحياة ، فأقول لك إنى شاب أبلغ من العمر الآن ٣٣ عامًا ، حُرِّمْتُ من حنان الأم وأنا طفل صغير عمره ٤ سنوات ، وكان والدى وقتها مازال طالبًا وقيم معظم السنة في المدينة البعيدة - حيث يدرس - ولا يرجع إلى زوجته وطفله إلا في شهور الإجازة الصيفية فلا يبقى لي حُضن طوال العام سوى حُضن أُمى . . . ووجدتُنى وأنا في هذه السن الصغيرة قد حُرِّمْتُ منه ، وعجز عقلي الصغير عن فهم سبب غيابها عني ، غير أن الأطفال الذين لا يجترسون لكلماتهم تولوا مصارحتي بالحقيقة المريرة وهى

أنها قد «ماتت» ولن ترجع مرة أخرى أبدًا . . . ولست أذكر الآن كيف تقبل عقلى وقتها هذه الحقيقة المؤلمة ، لكنى أذكر أن مسئوليتى قد انتقلت بعد غياب أمى إلى جدتى ، وأنها قد عوضتني بعطفها عن حنان أمى المفقود ، فتعلقتُ بها بشدة ، وتمتعُ في كنفها بالحب والرعاية والحنان ، إلى أن رجعتُ من مدرستى ذات يوم وأنا تلميذ في السنة الخامسة الابتدائية فشهدت حركة مريبة في البيت وسمعتُ نواحا وصراخا ورأيتُ شقيقتى تبكى . . . فأدركتُ بحاستى أن أسرتنا قد شهدتُ حادث «غياب» جديد . . . وصرختُ هلعًا حين عرفتُ أن جدتى قد تركتني هى الأخرى .

وتلفتُ حولي أبحث عن أم أخرى لى . . . فوجدتُ شقيقتى الكبرى ، التى لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها ، وتزوجتُ بالرغم من صغر سنها قبل شهر ، تحتضنى وتقوم منى مقام الأم بالرغم من اعتلال صحتها بسبب الحمل المبكر ، فأحببتها كما أحببتُ من قبل أمى وجدتى ، ودعوتُ ربي أن يهبها الصحة وطول العمر لكى أنعم برعايتها للنهاية . . . ثم حانت ساعة ولادتها ، وذهبتُ إليها فى العيادة لأزورها وأترقب مجيء مولودها إلى الحياة ، فإذا بولادتها تتعسر ، وإذا بها تلفظ أنفاسها الأخيرة خلالها ، وإذا بى أُبتلى بفقد الأم من جديد .

وانتقلتُ رعايتى بعد ذلك إلى السيدة التى تزوجها أبى ، وكانت لم تنجب منه بعد . . . فكانت - على خلاف الشائع فى أوساطنا عن زوجة الأب - أمًّا رحيمة لى ، وتقدم نفسها للآخرين على أنها « أم فلان » أى

أمى . . ثم أنجبتُ طفلاً فأصرتُ على التمسك بتسميتها الأولى ، مؤكدة للجميع أننى ابنها « البكرى » وفى كنف هذه السيدة الطيبة تمتعتُ بالحنان والعطف الصادقين ، غير أن عمر السعادة لا يطول كثيراً فى حياتى « يا سيدى » ، فلقد فقدتها هى الأخرى بعد بضع سنوات ورحلتُ عن الحياة صغيرة . . فبكيته بدموع سخينة ، وتمنيتُ لو كانت زوجة أب قاسية لكيلا يوجعنى فراقها كما أوجعنى .

وبالرغم من كل شىء فقد واصلت الحياة واجتهدتُ بقدر الإمكان فى دراستى ، وتحملتُ ظروفى الخاصة من عيب فى النطق كان يعرضنى كثيراً لسخرية زملاء الدراسة ورفاق الصبا . . إلى ضعف السمع الذى كثيراً ما عرضنى للمواقف المحرجة . . إلى مرض فى العينين لاشفاء له ، إلى اعتلال طفيف ظهر أخيراً فى الكبد . . ولا أعرف إلى أين ستقودنى مضاعفاته . . إلى مشاكل لا حصر لها مع والدى لا أريد الإشارة إليها احتراماً وحياء منى . . إلى صدماتى العاطفية أكثر من مرة كشاب بسبب ظروفى الاجتماعية والمادية . .

وبالرغم من كل ذلك فالحياة تسير ، وهناك جوانبها المضيئة أيضاً . . فلقد تخرجتُ وعملتُ بوظيفة لا بأس بها ، وأتمتع باحترام من هم حولى فى المسكن والعمل . .

ولستُ أكتب لك رسالتى هذه طلباً لحل مشاكلى لأن حلها ليس فى مقدور أحد ، وإنما أكتبها لك لكى يقرأها بعض اللاهين والساخطين

على حياتهم بلا سبب جدّي يدعوهم لذلك ، ليعرفوا قيمة ما بين أيديهم من أسباب السعادة . . فأهمها الأسرة المستقرة والبيت الدافئ بعطف الأبوين وحبهما ورعايتها لأبنائهما . . أما أنا فإنه تحيرنى عدة أسئلة آمل أن أجد لديك الإجابة عليها . . الأول هو : هل ترانى مُحَقَّقًا فى الشعور ببعض الرثاء للنفس من واقع ظروف حياتى ، أم هل ترى ذلك من أثر هذا الميل الغريزى لدى الإنسان ؟ . . والثانى هو : إذا كان الإنسان مؤمنًا ويؤدى فرائض دينه على أكمل وجه ، فلماذا يُبْتَلَى بمثل هذا العذاب ؟ وألا يُحْتَمَلُ أن يهز ذلك من إيمانه ؟ . .

أما السؤال الأخير فهو : لو قُدِّرَ لى الزواج ذات يوم ، تُرى هل ستدور الدائرة من جديد على أبنائى فيعانون مما عانيت منه . . أم أن أقدارهم ستكون أرحم بهم من أقدارى ؟

●● ولكاتب هذه الرسالة أقول :

الحياة تسير دائماً سواء رضينا عن أقدارنا فيها أم سخطنا عليها . . . ولا خيار أمامنا سوى اللحاق بركبها ومداواة جراحنا ومحاولة التواءم مع ظروفنا وأقدارنا ، لأن القافلة لا تنتظر المتخلفين عنها . . ولا عائد لنا من التجمد أمام الأقدار سوى مضاعفة الخسائر ، واتساع الشقة بيننا وبين الركب المتجه دوماً إلى غايته .

ولا عزاء لنا سوى أن نتمسك دائماً بالإيمان بالله والرضا بقضائه وقدره خيره وشره ، وبالأمل الدائم فى أن يكون الغد الآتى أفضل من الأمس

المنقضى ، وسوى أن نردد دومًا مع « الإمام الشافعي » رضى الله عنه :

دَعِ الْأَيَّامَ تَفْعَلْ مَا تَشَاءُ

وَطَبْ نَفْسًا إِذَا حَكَمَ الْقَضَاءُ

ولقد كان من دعاء خامس الراشدين « عمر بن عبد العزيز » :

اللهم أرضني بقضائك ، وبارك في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما
أخَّرتَ ولا تأخير ما عَجَّلتَ !

وقد ضرب لنا المثل الأعظم في الرضا بقضاء ربه وقدره ، حين ثكل
ابنه التقى الورع « عبد الملك » وفاضت روحه وهو بين ذراعَيْه ، فبكاه
عمر حتى ابتلت لحيته ، ولم يرَ في ذلك بأسًا لعلمه أن الرسول الكريم
صلوات الله وسلامه عليه - قد بكى لموت ولده « إبراهيم » ولم يقل ما
يغضب ربه ، فما إن غادر عمر حجرة ابنه مطأطى الرأس كسير القلب
وجاءه الناس يعزونه ، حتى كان قد تمالك نفسه من جديد . . فقال لمن
يعزونه :

- أمر قد رَضِيَهُ اللهُ لِي فَلَا أَكْرَهُهُ .

ومن بعد الرضا بالأقدار يجيء الأمل دومًا في الغد الأفضل وتعويض
السيء ، فإذا كنتَ تسألنى بعد ذلك عن مشروعية إحساسك ببعض
الرثاء لنفسك بعد كل ما عانيتَ من حرمان : من حنان الأم ، وفقد
متكرر للأمهات البديلات ، وبصمات العناء على سمعك وبصرك

ولسانك وكبدك ، فإنى أجيبك بأن الرثاء للنفس عن حق - كما فى مثل ظروفك المؤلمة - لا يتعارض مع الرضا بأقدار الإنسان فى الحياة والقبول بها ، وإنما هى لحظات عابرة يستسلم فيها المرء لإحساسه بالإشفاق على نفسه مما يكدره ، ويتوجه فيها بالأمل فى رحمة الله أن تعوضه السوء عما عاناه من آلام وأحزان جزاءً وفاقاً لما صبر عليه من أحزان الحياة ، ولا بأس بذلك من حين لآخر كلما اشتدت معاناة الإنسان ، وكلما كانت أحزانه وآلامه حقيقية وليست موهومة ولا مُبالغاً فيها . . فمن حق المحزون أن تدمع عيناه - يا صديقى - رثاءً لنفسه ، وترويحاً عما يخترنه صدره من هموم ، وأملًا فى رحمة أرحم الراحمين سبحانه بغير أن ينقص ذلك من رضاه وإيمانه بربه وتسليمه بأقداره . . فللنفس طاقتها فى النهاية على الاحتمال ، وما اختبارات الحياة سوى امتحان السماء لصبر المؤمنين وتقبلهم لما تجيء به إليهم أقدارهم ، وقد أعا سؤالك عن حكمة الابتلاء ذوى الألباب منذ قديم الزمان ، ولم ينقذهم من حيرتهم إزاءها سوى التسليم المطلق بقضاء الله وقدره ، وإسلام الوجه لله ، والرضا بكل ما تحمله إليهم أمواج الحياة ، والتعزى فى ذلك بمضمون الحديث الشريف الذى يقول لنا : إنه ما من شوكة تصيب المؤمن إلا ويمحوها الله من سيئاته أو يرفع بها من درجاته .

وبقوله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ

قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾ (١)

وبقول النبي « داود » عليه السلام : « لله الحكمة . . ولنا الألم » .

أى أن له - جل شأنه حكمته التى تخفى عن الأفهام فيما يقدره علينا من أقدار ، ولنا نحن ظاهرها البادى من الألم . . وهو خير لنا فى الآخرة إن كنا من الصابرين . .

فما يزداد المؤمنون باختبارات الحياة ومحنتها إلا إيماناً ، وطمعاً فى حسن جزاء الصابرين عند ربهم .

فأما سؤالك : هل إذا تزوجت فسوف تدور الدائرة على أبنائك فيعانون مثل ما عانيت أنت ، فعلم ذلك عند ربك سبحانه وتعالى وحده . . غير أن الرجاء فى رحمة الله لا ينقطع أبداً ، والله جل شأنه عند حسن ظن عبده به - كما جاء فى مضمون الحديث القدسى .

ولقد وجدت أنت من إيمانك بربك ورضاك بأقدارك ما لم يجب عنك بعض الجوانب المضيئة فى حياتك ، فتحدثت عن توفيقك فى الدراسة والعمل ، فلم لا تتوقع أن تتسع مساحة هذه الجوانب المضيئة فى حياتك ، وأن يعوضك ربك عن معاناتك بالتوفيق فى الزواج . . والسعادة بالأبناء الأصحاء الناجحين فى الحياة بإذن الله ؟

إننا ندعو الله دائماً أن تكون حظوظ أبنائنا فى الحياة أفضل من

(١) سورة البقرة ، من الآية ٢١٤ .

حظوظنا نحن فيها ، وأن تجنبهم عناية السماء أشواك الطريق التي أدمت
أقدامنا خلال رحلة الحياة ، فلماذا لا تأمل أنت أيضًا في ذلك وتستبشر
به إن شاء الله ؟ !

كتب المؤلف

- ١ - أصدقاء على الورق
 - ٢ - يوميات طالب بعثة
 - ٣ - هتاف المعذبين
 - ٤ - صديقى لا تأكل نفسك
 - ٥ - نهر الحياة
 - ٦ - العصافير الخرساء
 - ٧ - صديقى ما أعظمك
 - ٨ - افتح قلبك
 - ٩ - اندهش يا صديقى
 - ١٠ - أزواج وزوجات
 - ١١ - أرجوك لا تفهمنى
 - ١٢ - رسائل محترقة
 - ١٣ - أماكن فى القلب
 - ١٤ - لا تنسى
 - ١٥ - نهر الدموع
 - ١٦ - أقنعة الحب السبعة
 - ١٧ - سلامتك من الآه
- | | | |
|------|----------------|-------------------|
| ١٩٩٨ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية |
| ١٩٨٧ | الطبعة الأولى | أدب رحلات |
| ١٩٩٨ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية |
| ١٩٩٦ | الطبعة الرابعة | مقالات وصور أدبية |
| ١٩٩٦ | الطبعة الثالثة | قصص إنسانية |
| ١٩٩٦ | الطبعة الثالثة | قصص إنسانية |
| ١٩٩٣ | الطبعة الثانية | مقالات وصور أدبية |
| ١٩٩٦ | الطبعة الثانية | مقالات وصور أدبية |
| ١٩٩٧ | الطبعة الرابعة | مقالات وصور أدبية |
| ١٩٩٦ | الطبعة الثالثة | قصص إنسانية |
| ١٩٩٦ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية |
| ١٩٩٦ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية |
| ١٩٩٤ | الطبعة الأولى | قصص إنسانية |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثالثة | قصص رومانسية |
| ١٩٩٦ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الرابعة | قصص إنسانية |
| ١٩٩٨ | الطبعة الثانية | مقالات وصور أدبية |

| | | | |
|------|----------------|-------------------|---------------------------|
| ١٩٩٧ | الطبعة الأولى | قصص إنسانية | ١٨ - هو وهى والآخرين |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ١٩ - مكتوب على الجبين |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ٢٠ - أوراق الليل |
| ١٩٩٩ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ٢١ - طائر الأحزان |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | مقالات وصور أدبية | ٢٢ - أعط الصباح فرصة |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | قصص قصيرة | ٢٣ - الحب فوق البلاط |
| ١٩٩٧ | الطبعة الثانية | أدب رحلات | ٢٤ - سائح في دنيا الله |
| ١٩٧٧ | الطبعة الأولى | قصص إنسانية | ٢٥ - قالت الأيام |
| ١٩٩٧ | الطبعة الثانية | مقالات وصور أدبية | ٢٦ - صور من حياتهم |
| ١٩٩٨ | الطبعة الأولى | مقالات وصور أدبية | ٢٧ - أهلاً . . مع السلامة |
| ١٩٩٩ | الطبعة الأولى | خواطر وتأملات | ٢٨ - قدمت أعذارى |
| ١٩٩٩ | الطبعة الأولى | قصص إنسانية | ٢٩ - أيام السعادة والشقاء |

● كتب للمؤلف من إصدارات « الدار المصرية اللبنانية »

| | | | |
|------|----------------|-------------------|---------------------------------|
| ١٩٩٨ | الطبعة الخامسة | قصص إنسانية | ٣٠ - العيون الحمراء |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الرابعة | مقالات وصور أدبية | ٣١ - وقت للسعادة . . وقت للبكاء |
| ١٩٩٦ | الطبعة الثالثة | قصص إنسانية | ٣٢ - شركاء في الحياة |
| ١٩٩٩ | الطبعة الثالثة | صور أدبية | ٣٣ - خاتم في إصبع القلب |
| ١٩٩٩ | الطبعة الثالثة | مقالات | ٣٤ - وحدي مع الآخرين |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | مقالات وصور أدبية | ٣٥ - ساعات من العمر |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثالثة | مقالات وصور أدبية | ٣٦ - عاشوا في خيالي |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | مقالات وصور أدبية | ٣٧ - ترانيم الحب والعذاب |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ٣٨ - الثمرة المرة |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | قصص إنسانية | ٣٩ - دموع القلب |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الثانية | مقالات وصور أدبية | ٤٠ - أرجوك أعطني عمرك |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الأولى | صور ومقالات أدبية | ٤١ - من المفكرة الزرقاء |
| ٢٠٠٠ | الطبعة الأولى | قصص إنسانية | ٤٢ - الأرض المحترقة |

الفهرس

- ٧ - مقدمة
- ٩ - الاختيار القهرى
- ٢٧ - سوط الحقيقة
- ٣٧ - محطة القطار
- ٤٩ - المياه الراكدة
- ٥٩ - جنى الثمار
- ٧١ - الأرض المحترقة
- ٨١ - الحرب الشرسة
- ٨٧ - الشوكة القوية
- ٩٧ - الملابس الساخنة
- ١٠٩ - الشجرة الجذباء

- ١١٧ _____ السعادة الخفية
- ١٢٥ _____ الحظ العاثر
- ١٣٣ _____ بيت الغاضبات
- ١٣٩ _____ العمر الضائع
- ١٤٧ _____ لحظة العبور
- ١٥٥ _____ الشعاع الوحيد
- ١٦٣ _____ النظرة العميقة
- ١٧١ _____ الأسئلة الصامتة
- ١٧٩ _____ وطيح المعركة
- ١٨٧ _____ المقارنة العادلة
- ١٩٥ _____ الشخصية الباهتة
- ٢٠١ _____ العاطفة الحارة
- ٢٠٧ _____ العبارة القاتلة
- ٢١١ _____ عُش الطائر
- ٢١٧ _____ النقطة السوداء
- ٢٢٥ _____ موضوع الجدال

٢٣١ - جواز سفر

٢٣٣ - الجوانب المضيئة

٢٤١ - كتب للمؤلف
